

السيرة النبوية الاقتصادية

عرض تحليلي لسيرة النبوية الشريفة من الجانبين المالي والاقتصادي



تقديم الدكتور
سامر مظهر قنطقجي

تأليف الدكتور
عامر محمد نزار جلعوط



السيرة النبوية الاقتصادية

عرض تحليلي للسيرة النبوية الشريفة من الجانبين المالي والاقتصادي

تأليف: د. عامر محمد نزار جلعوط

تقديم: د. سامر مظهر قنطقجي

الإصدار الإلكتروني الأول
1442 هـ - 2020 م



لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ
كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا

(الأحزاب: ٢١)

منشورات كاي

- إن مطبوعات (كتاب الاقتصاد الإسلامي الالكتروني المجاني) تهدف إلى :
- تبني نشر مؤلفات علوم الاقتصاد الإسلامي في السوق العالمي ؛ لتصبح متاحة للباحثين والمشتغلين في المجالين البحثي والتطبيقي .
 - توفير جميع المناهج الاقتصادية للطلاب والباحثين بصيغة إسلامية متينة .
 - أن النشر الالكتروني يعتبر أكثر فائدة من النشر الورقي .
 - أن استخدام الورق مسيء للبيئة، ومنهك لمواردها .

والله من وراء القصد .

يمكنكم التواصل من خلال : www.kantakji.com

مركز أبحاث فقه المعاملات الإسلامية
Islamic Business Researches Center



توضيح

إن كل ما ورد في الكتاب هو حقوق بحثية للمؤلف، ويعتبر ورقة بحثية من الأوراق البحثية لمركز أبحاث فقه المعاملات الإسلامية وجامعة كاي. يسمح باستخدام هذا الكتاب كمنهج أكاديمي (كما هو منشور) مجاناً مع ضرورة المحافظة على حقوق المؤلف.

www.kantakji.com

الفهرس

٤	منشورات كاي
٥	توضيح
٦	الفهرس
١١	الإهداء
١٢	التقديم
١٥	المقدمة
١٩	الفصل الأول الأحداث المالية والاقتصادية قبل الميلاد النبوي والبعثة
٢٥	أهمية التعرف على السيرة النبوية الاقتصادية
٣٠	الحالة الاقتصادية والمالية عند العرب في الجاهلية
٤٩	حفر زمزم
٥٣	بناء القليس وأصحاب الفيل
٥٨	الفصل الثاني أبرز الملامح المالية والاقتصادية من الميلاد إلى قبل البعثة
٥٩	ميلاده ورضاعته صلى الله عليه وسلم
٦٨	كفالة الجد والعم
٦٩	الاستسقاء
٧٤	العمل بالرعي والتجارة والرحلة التجارية الأولى إلى الشام
٧٩	الشريك التجاري للنبي صلى الله عليه وسلم
٨١	حلف الفضول
٨٣	بناء الكعبة
٨٧	خديجة رضي الله عنها ودورها الاقتصادي
٨٨	التجارة بمال خديجة رضي الله عنها
٩٣	زواجه صلى الله عليه وسلم من خديجة رضي الله عنها
٩٥	أثر الخلوة بغار حراء

- ٩٩..... الدور المالي لخديجة رضي الله عنها
- ٩٩ زيد بن حارثة.....
- ١٠١ العون المالي لحليمة السعدية.....
- ١٠٥ _____ الفصل الثالث الأحداث المالية من البعثة إلى الهجرة**
- ١٠٥ الدعوة السرية وتنوع البذل المالي فيها.....
- ١٠٦..... أنموذج التبرع للصالح العام؛ دار الأرقم.....
- ١١٠..... أنموذج التكافل الاجتماعي المكي؛ أبو بكر التاجر الغني.....
- ١١٦ أنموذج البذل والتضحية: مصعب بن عمير.....
- ١١٩..... الجهر بالدعوة والحصار الاقتصادي؛ مفاوضات وعروض مالية لترك الدعوة.....
- ١١٩..... اغراءات قريش وثبات الرسول صلى الله عليه وسلم.....
- ١٢٥..... الحصار الاقتصادي.....
- ١٣٦..... السياحة والهجرة.....
- ١٣٦..... الهجرة الأولى إلى الحبشة.....
- ١٣٩ الهجرة الثانية إلى الحبشة.....
- ١٤٤ الخروج إلى الطائف.....
- ١٤٨ الاسراء والمعراج.....
- ١٥٦..... بيعتنا العقبية.....
- ١٥٩ الهجرة إلى المدينة.....
- ١٦٠ فشل مؤامرة قريش.....
- ١٦٢ إلى بيت أبي بكر ثم إلى الغار.....
- ١٦٤ الرحلة من الغار نحو يثرب وقصة سراقبة بن مالك.....
- ١٦٦ تكافل الأنصار في المدينة المنورة مع المهاجرين.....
- ١٦٩..... الريح الحقيقي هو ربح العقيدة وسلامة الدين.....
- ١٦٩..... تجهيز أبي بكر رضي الله عنه لرحلة الهجرة.....
- ١٧٠ توكيل الأمين في أداء الأمانة مهما بلغت الظروف.....
- ١٧١ الاغراء المالي من قبل قريش.....

- بشرى ووفاء..... ١٧١
- مشروعية مهنة مرشد السفر والسياحة..... ١٧٣
- مشروعية بيع التولية..... ١٧٥

١٧٦ الفصل الرابع من الهجرة إلى غزوة بني المصطلق

- العمارة والبناء المكاني والاجتماعي..... ١٧٦
- بناء مسجد قباء وقصة سلمان رضي الله عنه..... ١٧٧
- وصول المدينة وبناء المسجد النبوي..... ١٨١
- اختيار سوق المسلمين..... ١٩٢
- بناء بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم..... ٢٠٢
- كتابة الدستور..... ٢٠٧
- تشريع الزكاة وغزوة بدر وما فيها من أحكام مالية..... ٢١٠
- إدارة فريضة الزكاة..... ٢١٠
- غزوة بدر الكبرى..... ٢١٤
- بناء العريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم..... ٢١٧
- مفهوم الغنائم وكيفية قسمتها..... ٢٢٢
- أمر بني قينقاع..... ٢٢٤
- غزوة أحد شوال..... ٢٢٧
- إغراء المغنم والغلول فيه..... ٢٣٤
- تجارة رابحة بنعمة من الله وفضل..... ٢٣٨
- إجلاء بني النضير..... ٢٤٠
- مفهوم الدية ومقدراها..... ٢٤٢
- حكم قطع الأشجار في المعركة..... ٢٤٤
- تقسيم الفياء..... ٢٤٥

٢٤٩ الفصل الخامس من ذات الرقاع إلى فتح مكة

- غزوة ذات الرقاع..... ٢٤٩
- غزوة الخندق شوال..... ٢٥٤

- ٢٦٤..... غزوة بني قريظة.
- ٢٦٦..... غزوة بني المصطلق.
- ٢٦٧..... جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها.
- ٢٧١..... خبر الإفك في غزوة بني المصطلق.
- ٢٧٦..... صلح الحديبية وآثاره.
- ٢٧٧..... الخروج نحو الحديبية.
- ٢٨٥..... أسر ثمامة بن أثال الحنفي وإسلامه.
- ٢٨٨..... سرية أبي عبيدة إلى سيف البحر والخطبة التقيفية.
- ٢٩٠..... مراسلة الملوك وحكم الهدايا من غير المسلمين والزواج بمارية رضي الله عنها.
- ٢٩٣..... غزوة خيبر.
- ٣٠٧..... غزوة مؤتة.
- ٣١٣..... فتح مكة.

الفصل السادس من حُنين إلى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ___ ٣١٨

- ٣١٨..... غزوة حُنين.
- ٣٣٤..... غزوة تبوك.
- ٣٣٨..... التمويل المالي لبيت المال عند الشدائد.
- ٣٤١..... الجزية.
- ٣٤٥..... مسجد الضرار وعام الوفود وضيافتهم.
- ٣٤٨..... مفهوم المنّ على الأسير.
- ٣٤٩..... عام الوفود.
- ٣٤٩..... قدوم رسول ملوك حمير بكتابهم.
- ٣٥٢..... مشروعية دفع القيمة في الجبايات المالية.
- ٣٥٣..... إسلام فروة بن عمرو الجذامي.
- ٣٥٥..... خروج الأمراء والعمال على الصدقات.
- ٣٥٧..... حجة الوداع.
- ٣٦٢..... مرض ووفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

٣٦٥ تولي أبي بكر الصديق رضي الله عنه
٣٦٧ جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفنه
٣٦٩ براءة الذمة المالية لبيت المال
٣٧٠ توريث الحصص النبوية لبيت المال
٣٧٢ التركة النبوية
٣٧٥ <u>فهرس المراجع</u>
٣٨١ <u>صدر للمؤلف</u>

الإهداء

- إلى الحبيب الشفيق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .
إلى الصحابة الكرام رضي الله عنهم جميعاً .
إلى الدعاة والباحثين في الاقتصاد الإسلامي .
إلى طلاب العلم الشرعي .
إلى كل من يبتغي المعاملة الحسنة وفق الأسوة الحسنة .
إلى كل إنسان يحب أن يتعرّف على رحمة العالمين محمد صلى الله عليه وسلم .

التقديم

سألتنني إحدى الطالبات دروساً في السيرة النبوية، فطلبت من أخي الشيخ الدكتور عامر أن يعطيها ذلك، ففعل مشكوراً محتسباً، ثم سألني عن مدى إمكانية كتابة السيرة النبوية من وجهة نظر اقتصادية؛ فيسر الله تعالى لنا أن نقدم دروساً في السيرة النبوية الاقتصادية بجامع الشيخ سعيد الجابي رحمه الله في حماة، قدمناها معاً وحضرها عدد لا بأس به من الناس بمختلف الأعمار والثقافات .

ثم طلبت منه أن يتوسع فيما كتب وبما أعطيناه، مع التوثيق اللازم لعلها تكون كتاباً يوماً ما . ومرت الأيام ليسر الله للشيخ عامر كتابة هذا الكتاب الذي يقدم جانباً مضيئاً من سيرة أعظم خلق الله تعالى، رسول الهدى صلى الله عليه وسلم، الذي لا ينطق عن الهوى .

لقد شهد تدوين السنة النبوية مراحل متعددة في التاريخ الإسلامي، ولعل ما نقدمه في كتابنا هذا مرحلة هامة خاصة في زمن الاختلالات الاقتصادية العالمية وضياع خبراتهم وعلمائهم في ثنايا الممارسة الخاطئة التي أتعبت الناس وأفلستهم وضيّعت أملاكهم .

إن السنة النبوية الاقتصادية هي كلّ ما ورد عن رسول الله من قول، أو فعل، أو عمل، أو تقرير، أو صفة، بأثر اقتصادي أو مالي أو إداري، وما أكثر هذه الآثار، والتي تستحق بالفعل التدوين والدراسة والاقتداء بها فالاقتصاد النبوي اقتصاد بني على مرحلتين :

— مرحلة مكية لم تكن فيها الدولة قائمة بل كان مجتمعاً إسلامياً،

— مرحلة مدنية اكتمل فيها بناء الدولة وانتظم .

ومرّ تدوين السنة النبوية بمراحل عدة، كانت على الشكل التالي :

مرحلة العهد النبوي : حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على حفظ القرآن

الكريم وتحفيظه وتدوينه، ولم يُقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا والقرآن

محفوظ مكتوب لا ينقصه إلا الجمع في مصحف واحد . وكان الناس يتلقون

حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلوكه شفاهة ويحفظونه في عقولهم .

ذكر مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال : لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن ، فمن كتب عني غير القرآن فليمحّه ،

وحدّثوا عني ولا حرج ، ومن كذب عليّ متعمداً ، فليتبوأ مقعده من النار . وقد

دوّنت بعض السنة ككتب ورسائل رسول الله صلى الله عليه وسلم للملوك والأمراء

وغيرها .

مرحلة العهد الراشدي : لم تكن هناك محاولات لحفظ السنة النبوية وتدوينها في

زمن الخلافة الراشدة سوى استشارة عمر رضي الله عنه أصحابه في ذلك وبقي

يستخير الله فيها شهراً ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إني كنت أريد أن

أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً، فأكبّوا عليها وتركوا

كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً .

مرحلة التدوين في العهد الأموي : بسبب اتّساع رقعة الدولة الإسلامية في زمن

الخلافة الأموية، صار المسلمون بحاجة ماسّة للاطلاع على سنة نبيهم صلى الله عليه

وسلم، فأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بتدوين الحديث وجمعه، حرصاً على حفظها وتنقيتها من أية شوائب محتملة.

مرحلة تدوين المؤلفات في علم الحديث: وضعت مؤلفات في علم الحديث

كالجرح والتعديل والناسخ والمنسوخ وغريب الحديث وغيره؛ فكانت كتب: الجوامع، والسنن، والمصنفات، والمسانيد، وغير ذلك.

وخضعت السنّة النبوية إلى العديد من عمليات المراجعة على مرّ الأزمنة والعصور، فبوت الأحاديث وجمعت فوائدها وأحكامها لتكتمل عملية التدوين التي استغرقت أربعة قرون تقريباً.

وتميزت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سائر سير البشر؛ بأنه لا يوجد أحد في التاريخ الإنساني وثقت سيرته بالتفاصيل الصحيحة والدقيقة، كما هو حال سيرة رسول الهدى صلى الله عليه وسلم؛ فمن يقرأ السيرة يشعر أنه يعيش مع صاحبها زماناً ومكاناً. وما أجمله من عيش.

وإن كتابنا هذا لم يضم كل شيء عن السيرة النبوية الاقتصادية بل هو مرحلة ولبنة في هذا البناء العظيم. ونرجو الله تعالى أن يعيننا على إكماله لاحقاً.

وصلى الله عليك يا رسول الهدى.

حماة بتاريخ ٢٦ صفر ١٤٤٢ هـ الموافق ١٣ تشرين أول / أكتوبر ٢٠٢٠ م

سامر مظهر قنطقجي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد فخر الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه ومن سار على دربه ومشى بهديه وتخلق بأخلاقه إلى يوم الدين، الحمد لله القائل في كتابه الحكيم: **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي**

يُحِبِّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ* قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (آل عمران: ٣١ - ٣٣). وبعد:

إن محبة الله تعالى أمر مفروض على كل مؤمن وذلك بإجماع الأمة¹، ولا يمكن تحقيق هذا الفرض إلا من طريق ونور واحد ألا وهو اتباع الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فترتسم وترسخ ملامح طاعة الله الحقيقية بطريق الاتباع والافتداء بالرسول الذين بلغوا عن الله تعالى، ولقد قال نبي الله هارون عليه السلام لقومه نظير هذا البلاغ: **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي** (طه: ٩٠).

ولقد عميت أو تعامت عيون أقوام عن سلوك الاتباع الحقيقي خاصة فيما يتعلق بأخلاق وسلوك المعاملات المالية فوقعوا في الغش والخداع والمكر وأكل المال بالباطل والجشع والطمع وهم في غفلة وتغافل عن القدوة العليا المتمثلة بشخصية الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسائر الأنبياء

1 إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٩٤، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي المتوفى ٥٠٥ هـ، دار المعرفة - بيروت.

والمرسلين، الذي كان المثل الأعلى والسراج المنير في كل نواحي الحياة، ومنها الناحية المالية التي نبه وحذر من حساسية وخطورة التعاطي معها.

ولقد قدّمت سيرته صلى الله عليه وسلم أروع وأدقّ المشاهد المالية العملية، منذ طفولته ومروراً بشبابه وانتهاءً ببعثته ورسالته وتبليغه الكامل عن الحق عزّ وجل، لذا فإن السيرة الاقتصادية تستحق أن نقف عندها ليس لمجرد الوقوف عند الأحداث والروايات والمواقف التاريخية وتحقيق ثبوتها فحسب، وإنما لأجل أن ننظر ونتأمل ونتفكر ونستنتج الدروس والعبر حول كل قول وسلوك وخبر، وإن علماء الأمة في القديم والحديث الذين كتبوا في السيرة قد تنوعت أساليبهم وإبداعاتهم، كل حسب ما يسر الله له؛ فمنهم من كتب السيرة الشريفة مع التحقيق والتوثيق في الأسانيد والروايات، ومنهم من دقق وحقق فيها ورجح بعضها على بعض، ومنهم من جعل تنوع تلك المصادر أساساً للتحليل العملي والفقهية لكافة نواحي السيرة الشريفة، ولقد رأيت بعد اطلاعي ودراستي لعدد من تلك الدراسات أن أقف عند الناحية الاقتصادية في السيرة الشريفة تحليلاً مالياً واقتصادياً وذلك لما وجدته من مشاهد مالية واقتصادية كثيرة تستحق مزيداً من العناية والرعاية والنظر العلمي.

وسأعتمد بإذن الله في هذه الدراسة بالدرجة الأولى على ما سبق مما كتبه أهل هذا الفن على اختلاف العصور، والذين أجادوا وأفادوا، إضافة لما ذكره علماء الحديث مما يتعلق بالتعامل المالي الشريف للحبيب محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم سأعمل بمشيئة الله على إيضاح ذلك البحث تحليلاً مالياً واقتصادياً مستنيراً بالفقه الإسلامي وأصوله، والسنة النبوية وشروحها، وما كتبه الباحثون في الاقتصاد

الإسلامي وغير ذلك من المناهل العذبة الصافية لهذه الشريعة عبر الأزمان والعصور المتلاحقة .

وإن من الأمور الأساس التي تدعو للنظر في السيرة النبوية من الجانب المالي والاقتصادي أن الشفييع محمد صلى الله عليه وسلم نبهنا إلى أن المسؤولية عن المال هي مسؤولية مضاعفة فقال صلى الله عليه وسلم: لا تزولُ قدماً عبد يومَ القيامة، حتى يُسألَ عن أربع: عن عُمره فيما أفناه؟ وعن عِلْمِهِ ما عَمِلَ به؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيما أبلاه؟¹ .

ولقد كان الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم أتمودجاً أعلى في كل شيء وكان أجود الناس وأكرمهم قبل بعثته وبعد بعثته، وكان لا يسأله أحدٌ شيئاً عنده إلا أعطاه قليلاً كان أو كثيراً وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر، وكان أجود الناس بالخير يمينه كالريح المرسلة .

فالحمد لله الذي أكرمنا بهذا الحبيب شاهداً ومبشراً ونذيراً، وسطعت أنواره فكانت دعوته سراجاً وقمراً منيراً، وأرسله الرحمن لكل العوالم رحمة، وأيده بصحب كالنجوم الوضياء لكل من كان بصيراً، وتعجب المستكبرون من أوصافه فحكى القرآن حالهم قائلاً عنهم: **وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلِ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا* أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا** (الفرقان: ٧ - ٨)؛ فإن

1 أخرجه الترمذي وقالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، كتاب الزهد، باب في القيامة، ج ٤ ص ٦١٢. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

وَقُتِّتَ لِلْبَيَانِ فَمَنْ تَوَفَّقَ اللَّهُ الرَّحْمَنَ وَإِنْ أَخْطَأْتَ فَمَنْ نَفْسِي وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ . وَصَلَاةُ
اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَى الْهَادِي الْأَمِينِ رَسُولِ اللَّهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَحِبَّابِهِ أَجْمَعِينَ ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

عامر محمد نزار جلعوط

حمارة ٢٤ ذى القعدة ١٤٣٧ هـ

الفصل الأول الأحداث المالية والاقتصادية قبل الميلاد النبوي والبعثة

يُعد هذا الفصل بمثابة الأساس العام لفهم السيرة النبوية من جانبها الاقتصادي والمالي، وسأذكر فيه أهمية دراسة السيرة النبوية المالية، وأبرز الملامح المالية والاقتصادية قبل ميلاد النبي محمد صلى الله عليه وسلم من الحالة الاقتصادية عند العرب قبل الميلاد، وحفر زمزم، وحادثة بناء القلّيس وأصحاب الفيل، كما وسأبين أبرز الملامح المالية والاقتصادية من الميلاد إلى قبل البعثة، وسأختم الفصل ببعض الحديث عن أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها.

تمتاز السيرة النبوية عن أي سيرة أخرى في الحياة، باتساعها وعمقها، ذلك لأنها تتعلق بشخصية خاتم الأنبياء والمرسلين وحبیب رب العالمين سيّدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، خُلد كثير من أحداثها المالية والاجتماعية في القرآن الكريم، وفي روايات أهل العلم عبر العصور الذين حبوها عناية ورعاية فريدة، وسيبدأ البحث في تعريفات ومفاهيم عامة حول رحاب مفاهيم الفقه المالي للسيرة النبوية الشريفة وذلك كما يلي :

تعريف

نسمع مواقف رائعة للسيرة النبوية الشريفة، ويغيب مفهومها العام عن كثير من الناس؛ فما هو مفهوم السيرة بشكل عام؟ والسيرة الاقتصادية بشكل خاص؟ وهذا ما سأعرضه في هذا المبحث كما يلي :

أولاً - تعريف السيرة النبوية: إن كلمة السيرة مشتقة من السَّيرُ، وهو الذهاب، يُقال: سارَ يَسِيرُ سَيْراً وَمَسِيراً وَتَسِيراً وَمَسِيرَةً وَسَيْرَةً، ويُقال: سارَ القومُ يَسِيرُونَ سَيْراً وَمَسِيراً إذا امتدَّ بهم السَّيرُ في جهة توجَّهوا لها.

ويقال بارك الله في مَسِيرِكَ أي سَيْرِكَ والاسم من كل ذلك السَّيرَة يقال إنه لِحَسَنُ السَّيرَة، وفي الحديث نُصِرْتُ بالرُّعبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ أي المسافة التي يُسار فيها من الأرض كالمَنْزِلَةِ والمُتَهَمَةِ والسَّيرُ يكون بالنهار والليل وأما السَّرَى فلا يكون إلا ليلاً والسَّيرَةُ السُّنَّةُ، والسَّيرَةُ الطريقة، يقال سارَ بهم سَيْرَةً حَسَنَةً، والسَّيرَةُ الهَيْئَةُ، قال تعالى: **قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى** (طه: ٢١) وسَّيرَ سَيْرَةً حَدَّثَ أَحَادِيثَ الْأَوَائِلِ¹. وعليه فالسيرة النبوية عموماً هي:

الطريقة والهيئة التي نُقلت لنا عن كل حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مع الخالق جلَّ جلاله، ثم مع جميع الخلق قولاً وعملاً وإقراراً.

ثانياً - تعريف السيرة الاقتصادية:

لم أعر على مصطلح السيرة الاقتصادية بشكل صريح مخصوص، وإن أكثر من كتب في السيرة النبوية وفقهها أشار إلى بعض الأمور المرتبطة بالاقتصاد، ويمكن القول بأنها:

الطريقة والهيئة التي نُقلت إلينا عن التعامل النبوي الاقتصادي والمالي، بما يتصل بحياة خاتم الأنبياء، مع الخالق جلَّ جلاله ثم مع المخلوق.

عناصر التعريف:

¹ لسان العرب ج ٤ ص ٣٨٩.

١. الطريقة والهيئة: بمعنى ما عرّف العلماء السنة؛ التي نقلت عن النبي صلى الله

عليه وسلم في القول والفعل والتقارير.

٢. نقلت إلينا: يشمل ذلك كل الطرق الناقلة في القرآن وتفسيره، ونقل الصحابة

ومن بعدهم إلى يومنا هذا.

٣. التعامل الاقتصادي والمالي: يشمل ذلك كل ما يقع عليه المحرك الاقتصادي من

تجارة وشراكة وزراعة وغير ذلك، كما يتضمن الأثر المالي بشكل مباشر كالبيع

والشراء والهبات وما شابه، أو غير مباشر كالاستسقاء والبركات.

٤. ما يتصل بحياة خاتم الأنبياء سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم: سواء قبل

مولده صلى الله عليه وسلم أو بعد مولده مروراً ببعثته إلى انتقاله إلى الرفيق

الأعلى، ويدخل في ذلك أحوال أصحابه الكرام رضي الله عنه وزوجاته أمهات

المؤمنين رضي الله عنهن.

٥. المراد بالتعامل المالي مع الله الخالق:

• الإخلاص لله رب العالمين؛ قال الله تعالى: **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ**

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ

(البينة: ٥).

• أداء العبادات المالية؛ كالزكاة وصدقة الفطر والندور والأضاحي، قال الله

تعالى مخاطباً رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ**

صَدَقَةٌ تَطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
(التوبة: ١٠٣) .

• أداء البدائل التعبدية عند العجز؛ ويكون بالفدية قال الله تعالى: أَيَّامًا
مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى
الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا
خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (البقرة: ١٨٤)، وكذلك التحلل من نية
العمرة والحج عند الإحصار، وتعثر المضي لمكة كما حدث مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، قال تعالى: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ
أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ
مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ
أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ
يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ
يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ
(البقرة: ١٩٦) .

• أداء الكفارات المالية ككفارة اليمين، قال تعالى: لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي
أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ

مَسَاكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتِهِمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ
لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيَّمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا
أَيَّمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (المائدة: ٨٩).

• التحذر من الربا والغلول، قال تعالى: وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ وَمَنْ يُغْلَلْ
يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (آل
عمران: ١٦١).

• طلب المدد الاقتصادي ممن لا تنفذ خزائنه جل جلاله؛ كالاستسقاء
والمعجزات ذات الأثر المالي من نبع الماء وتكثير الطعام، وسيمر أمثلة كثيرة
عن ذلك لاحقاً.

والمراد من التعامل المالي مع الناس عدة أمور، وذلك كالاتي:

• كافة عقود المعاوضة؛ كالبيع والشراء والهبة الرهن والاستعارة وغيرها،
وأمثلتها كثيرة في سيرته صلى الله عليه وسلم كاستعارته الدروع بمكة من
صفوان بن أمية يوم حنين.

• التنبيه على كافة أنواع الاحتيال المالي؛ من غش وأكل للمال بالباطل، عن
أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على صبرة
من طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال يا صاحب الطعام! ما

هذا؟ قال أصابته السماء يا رسول الله! قال أفلا جعلته فوق الطعام حتى

يراه الناس؟ ثم قال من غش فليس منا¹.

وعن أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنكم

تختصمون إلي ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فمن قضيت له بحق أخيه

شيئاً بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها².

• المهور والنفقات المالية؛ التي كان يقوم بها النبي صلى الله عليه وسلم

لزوجاته أو لبناته أو لأصحابه أحياناً رضي الله عنهم.

• التكافل النبوي مع الصحابة والمؤلفة قلوبهم؛ وأمثلة كثيرة ستمر لاحقاً إن

شاء الله، كما في غزوة الأحزاب وأحواله صلى الله عليه وسلم مع أصحاب

الصفة، ومن أوضح النصوص في ذلك قول الحق تعالى: **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ**

وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا

مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ

وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ

يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

1 أخرجه الترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع ج ٣ ص ٦٠٦. محمد

بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمى دار إحياء التراث العربي - بيروت.

2 البخاري، كتاب الشهادات، باب من أقام البيعة بعد اليمين، ج ٢ ص ٩٥٢. محمد بن إسماعيل

أبو عبدالله البخاري الجعفي دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.

الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرًا عَظِيمًا (الفتح: ٢٩). ويدخل في ذلك

الآثار المالية المباشرة وغير المباشرة على بيت المال .

أهمية التعرف على السيرة النبوية الاقتصادية

إن دراسة الهدي النبوي المالي له أهميته عند كل مسلم؛ فهو يحقق عدة أهداف تستمد أنوارها من كنف حياة الحبيب صلى الله عليه وسلم الذي كان أجود الناس وأكرمهم قبل بعثته وبعدها، حيث كان صلى الله عليه وسلم:

- **أعظم الناس صدقةً** بما ملكت يده، وكان لا يستكثر شيئاً أعطاه الله تعالى ولا يستقله وكان لا يسأله أحدٌ شيئاً عنده إلا أعطاه قليلاً كان أو كثيراً. يُستدل على ذلك بقول خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم غنماً بين جبلين فأعطاه إياه؛ فأتى قومه؛ فقال: أي قوم أسلموا فوالله إن محمداً ليعطي عطاء ما يخاف الفقر؛ فقال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها¹.

- **أجود الناس بالخير** يمينه كالريح المرسلة، وكان إذا عرض له محتاج؛ آثره على نفسه تارة بطعامه وتارة بلباسه. يُستدل على ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنه ما قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس وأجود ما

¹ صحيح مسلم ج ٧ ص ٧٤ كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال لا. وكثرة عطائه. أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري دار الجيل بيروت + دار الآفاق الجديدة - بيروت.

يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل عليه السلام يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن؛ فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة¹.

• **تنوع أصناف العطاء وصدقته؛ فتارة بالهبة وتارة بالصدقة وتارة بالهدية**
وتارة بشراء الشيء ثم يعطي البائع الثمن والسلعة جميعاً كما فعل ببعير أثناء عودته من غزوة ذات الرقاع.

• **إن اقترض؛ رد بأكثر منه، ويشترى الشيء فيعطي أكثر من ثمنه، عن أبي رافع² رضي الله عنه قال: استسلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرًا؛ فجاءته إبل الصدقة، قال أبو رافع: فأمرني رسول الله أن أعطي الرجل بكره؛ فقلت: ما أجد إلا جملاً خياراً رباعياً؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعطه إياه، وإن خيار الناس أحسنهم قضاء³.**

• **يقبل الهدية، ويكافئ عليها بأكثر منها أو بأضعافها تلطفاً وتنوعاً في**
ضروب الصدقة والإحسان بكل ما هو ممكن. عن أبي هريرة رضي الله عنه:
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت

1 صحيح البخاري كتاب المناقب باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم ج 3 ص 1304.
2 أبو رافع ومولى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبط مصر. كان عبداً للعباس فوهبه للنبي صلى الله عليه وسلم. فلما أن بشر النبي صلى الله عليه وسلم بإسلام العباس أعتقه. روى عدة أحاديث، وشهد غزوة أحد، والخندق، وكان ذا علم وفضل. توفي في خلافة علي وقيل: توفي بالكوفة سنة أربعين رضي الله عنه. سير أعلام النبلاء ج 2 ص 16.
3 أخرجه مسلم، كتاب المساقاة، باب من استسلف شيئاً فقضى خيراً منه و«خيركم أحسنكم قضاء» ج 5 ص 54.

ولو أهدي إلي ذراع أو كراع لقبلت¹. وعن عائشة رضي الله عنها: أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة يبتغون بها أو يبتغون بذلك مرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم². وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتني بطعام سألت عنه أهديت أم صدقة؛ فإن قيل صدقة، قال لأصحابه: كلوا، ولم يأكل، وإن قيل هدية ضرب بيده صلى الله عليه وسلم فأكل معهم³.

فهل بعد هذا الوصف المالي الخُلقي لسيدنا محمد الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، - والذي هو بالحقيقة شيء قليل مقارنة بحقيقته الجوهرية - وهل بعد هذا كله نقصر ولا ندخل في تربة مسك سيرته وريحان جمال أنس تعامله المالي الذي هو نبراس ونور الفرد المسلم في شتى مواقف الحياة؟ فالحمد لله الذي أكرمنا بهذا الحبيب شاهداً ومبشراً ونذيراً، سَطعت أنواره فكانت دعوته سراجاً وقمرًا منيراً، أرسله الرَّحمن لكل العوالم رحمة، وأيَّده بصحبة كالنَّجوم الوضّاء لكل من كان بصيراً.

يمكن إيجاز أبرز أهداف الفقه الاقتصادي للسيرة النبوية بما يلي:

١. الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال معرفة شخصيته صلى الله عليه وسلم⁴، وأعماله وأقواله وتقريراته فهو الأسوة والقُدوة الحسنة ليس في

1 البخاري كتاب الهدية وفضلها باب القليل من الهبة ج ٢ ص ٩٠٨.

2 البخاري، كتاب الهبة وفضلها، باب قبول الهدية ج ٢ ص ٩١٠.

3 البخاري، كتاب الهدية وفضلها، باب قبول الهدية ج ٢ ص ٩١٠.

4 أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب الوقار ج ٢ ص ٦٢٢ - دار الفكر.

المال فحسب؛ إنما في كل شيء، قال تعالى: **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ**

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (الأحزاب: ٢١).

فكيف إذا كان صلى الله عليه وسلم قد صرّح ووضّح أنّ الاقتصاد هو جزء من النبوة عن عبد الله بن عباس أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: **إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة.**

وفي رواية أخرى عن عبد الله بن سرجس المزني: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة**¹.

٢. **التعرف على فقه المعاملات الاقتصادية من الهدي النبوي صلى الله عليه وسلم وآراء أهل العلم في كيفية الاستفادة منها.**

٣. **اكتساب محبة الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال معرفة محبته وشفقته وتكافله مع أصحابه وأمتة والناس أجمعين.**

٤. **التعرف على بذل وعطاء وتكافل الصحابة الكرام الذين عاشوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك لأجل السير على نهجهم واتباع سبيلهم في البذل والعطاء والتقوى.**

1 سنن الترمذي كتاب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ما جاء في التآني والعجلة ج ٤ ص ٣٦٦.

٥ . توضح السيرة الاقتصادية الحياة والاقتصادية والمالية التي أحاطت بالرسول

صلى الله عليه وسلم، بدقائقها وتفصيلها، وعلى هذا فكل مسلم يجد حاجته في المعاش والمال الخاص منه والعام .

٦ . يتعلم المسلم من المنهج النبوي كل فنون إدارة الصراع والأزمات في إدارة كل

مرحلة من مراحل حياته، وفي الانتقال من مستوى إلى آخر؛ ليوافق أزمات التمويل والإنفاق والاقتصاد فيهما . فالمسؤولية عن المال هي مسؤولية مضاعفة، وقد خصص لها سؤالان بينما خصص لغيرها سؤال واحد، قال صلى الله عليه وسلم: وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟¹ .

٧ . نحن في أشد الحاجة لمعرفة المنهج النبوي في تربية الأمة وإقامة الدولة، ومعرفة

سنن الله في الشعوب والأمم والدول، لمعرفة كيف تعامل معها النبي صلى الله عليه وسلم عندما انطلق بدعوته إلى الله، لعلنا نلتمس من هديه صلى الله عليه وسلم الطريق الصحيح في التمكين لديننا لنقيم بنيانه على منهجية سليمة تستمد أصولها وفروعها من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله أهمية دراسة فقه السيرة عموماً: قد تظن أنك درست حياة محمد صلى الله عليه وسلم إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة وهذا خطأ بالغ . وإنك لن تفقه السيرة حقاً إلا إذا درست القرآن الكريم والسنة المطهرة، ويقدر ما تنال من ذلك، تكون صلتك بنبي الإسلام² .

1 أخرجه الترمذي وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، كتاب الزهد، باب في القيامة، ج ٤ ص ٦١٢ .

2 فقه السيرة النبوية للدكتور علي الصلابي ص ١٠ - ٦ - ط ١٤٣٤ هـ - دار ابن كثير بيروت .

الحالة الاقتصادية والمالية عند العرب في الجاهلية¹

يتناول هذا المبحث الحالة الاقتصادية والمالية عند العرب في الجاهلية، من ناحية الزراعة وجودها وندرتها، والصناعة وأسباب ضعفها عند العرب، والتجارة وتنوعها، إضافة لأموال مالية أخرى تتعلق بالأسواق والقرض والصراف والربا.

الزراعة: كانت الجزيرة العربية صحراء في غالبها، وكان داخل الجزيرة شيء من الزراعة والحرث واقتناء الأنعام²، وقد حدثنا القرآن الكريم عن وجود الزراعة عند

العرب كما في سورة سبأ، قال تعالى: **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ**

يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ بَلَدَهُ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ*

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ

وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ* ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (سبأ:

١٥ - ١٧). أي لقد كان لولد سبأ في مسكنهم علامة بينة، وحجة واضحة على

أنه لا رب لهم إلا الذي أنعم عليهم النعم التي كانوا فيها.

¹ السيرة النبوية للدكتور علي الصلابي ج ١ ص ٢٧، دار ابن كثير، ط ٦/ ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

² الرحيق المختوم ص ٤٩. صفي الرحمن المباركفوري دار المؤيد - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨.

قال الطبري¹: وسبأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم أبي اليمن، والجنة:

كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض: **وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ**

لَأَقْوَةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرْنَ أَنَا قَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (الكهف: ٣٩).

وعند التأمل والتفكير في الطبيعة الجغرافية والمناخية لشبه الجزيرة العربية؛ يظهر

بوضوح انتشار واتساع الصحراء عموماً، وإن الزراعة تقتصر على بعض الواحات

والأماكن كالتائف وخيبر وحول المدينة المنورة وغير ذلك. ولقد أكد القرآن الكريم

قلة الزرع في الجزيرة عند البيت العتيق؛ بشهادة دعوة إبراهيم عليه السلام عندما

ترك زوجته هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام، قال الله تعالى: **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ**

دُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفِيدَةً مِنَ

النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (إبراهيم: ٣٧).

الدروس والعبر:

١- أثر المناخ في الاقتصاد²: إن للوقوف على أسس اقتصاد أمة من الأمم، لا بد

من الوقوف على طبيعة إقليمها من جو وأرض؛ فلطبيعة المناخ والجغرافية أثر كبير

¹ جامع البيان في تأويل القرآن ج ٢٠ ص ٣٧٥ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري المتوفى: ٣١٠ هـ تحقيق أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

² المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٧ ص ٥ وما بعدها الدكتور جواد علي، ط ٢ - ١٤١٣ هـ/١٩٩٣.

في تحديد خيارات تلك الأمة وفي تكوين سماتها وعاداتها وانتاجها: من نتاج زراعي أو حيواني أو صناعي، ثم في فقرها وغناها وذلك وفق الآتي:

• **الجو البارد** ذو الأمطار الغزيرة، لا يمكن أن يكون أثره في الأحياء كأثر الجو الحار الرطب، أو الجو الحار الجاف، أو الجو المعتدل؛ فالجو البارد يدفع الإنسان إلى العمل ويبعث فيه الحيوية والنشاط، ويجبره على العمل، ويقدم له الماء هدية من السماء، ثم هو يكره الأرض أن تتلحق بماء المزن، لتولد خضرة تكسو الأرض ببساط جميل يخلب الأبواب، وتولد للماشية علفاً طرياً شهياً، وللإنسان أرضاً طبيعة لا تحتاج إلى سقي باليد أو بالآلة، ثم هو يوفر له الكثير من الجهد الذي يجب على الإنسان أن يبذله في البلاد الحارة الجافة لاستصلاح التربة ومكافحة الحشرات التي تبارك فيها الحرارة إلى غير ذلك من صعوبات، لا تقاس بها الصعوبات التي تواجه سكان البلاد الباردة الممطرة.

• **أما الجو الحار الرطب**؛ فيُغيث الإنسان بمطر، قد ينهمر انهماراً، وقد ينزل بمواسم، لكن حرارته الشديدة المتشعبة بالرطوبة، تهد الجسم، وتعطيه رخواة في بدنه وفي عقله، تجعله يميل إلى الخمول والكسل والدعة، وإلى الاسترسال في العواطف، ثم تحرمه من نشاط إنسان الجو البارد، وتجعله دونه في العمل، وفي سعيه في هذه الحياة، والضرب في هذه الأرض وفي استغلال التربة وما فيها وما عليها.

• **أما الجو الحار الجاف**؛ فيحرم سكانه من نعمة "الغيث" في الغالب، ويلبس سطح الأرض أكسية غبراء من رماله تذروها الرياح، ثم هو يجعل من الصعب

على الإنسان أو الحيوان أن يجد قوته في هذه القفار الواسعة المغبرة، أو أن يعيش فيها عيشة مستقرة دائمة؛ في مجتمعات كثيفة كمجتمعات الأجواء الباردة أو المعتدلة أو الحارة الرطبة؛ فيضطر إلى التنقل والارتحال بحثاً عن الكأ والماء، اللهم إلا في مواطن الماء، وهي عزيزة ثمينة لأنها في أرض غلب على طبعها الجفاف. فتصير هذه المواطن القليلة هدفاً لهجمات العطشى عليها في سني القحط وانحباس المطر، وأيام الضيق والشدة، لسد الرمق وللمحافظة على ما في الجسم الذابل النحيل من عروق لتعينه على البقاء حتى يفنى بطعنة، أو يموت حتف أنفه.

٢- ضعف خصوبة التربة في أرض العرب سبب في ضعف العرب في موارد

الزراعة: إذا تم قياس مساحة الأراضين الخصبة منها القابلة للزرع والإنبات ذات الماء بالأراضين المجذبة، سيرى أنها قلة إلى كثرة، وأن ما لا يصلح منها للزرع أكثر بكثير مما يصلح له. وأن مساحة البراري والبوادي تزيد على مساحة الأرض الطيبة الخصبة، وأن هناك أراضين ذات طبقات ثخينة من الرمال، أكرهت الناس على الابتعاد عنها، ترفعاً من أن يطاء وجهها خفّ جمل أو نعل إنسان، أو أن تدوسها الأقدام.

وقد نشأ عن هذا الوضع ضيق مساحة الأراضين المزروعة، لشح الماء وعدم كفايته لإرواء الإنسان ولإرواء ماشيته وإسقاء أراضين واسعة، ضيق أثر في شكل تكوين المجتمع العربي؛ فلم يسمح بظهور المجتمعات الكثيفة الكبيرة في جزيرة العرب،

والمجتمعات الكثيفة الكبيرة، هي المجتمعات الخلاقة التي تتعقد فيها الحياة، وتظهر فيها الحكومات المنظمة للعمل وللإنتاج وللتعامل بين الناس .

إن ما مضى جعل المجتمعات المذكورة مجتمع مستوطنات، رزقها من زراعتها الصغيرة ومن رعاية الماشية، واقتصادها اقتصاداً بدائياً لا تعقيد فيه؛ فلا تطوير يحول المواد الأولية إلى مواد أخرى أفيد منها وأكثر ربحاً تفيد المجتمع، وتعود عليه بأرباح طائلة من بيع المنتجات في الأسواق .

ما مضى صيرّ العرب قومًا يكرهون الزراعة وينفرون منها، ويرون المزارع مواطنًا من الدرجة الدنيا، ولا سيما ذلك المزارع الذي يزرع الخضر والبقول وعلف الحيوان؛ فهو عندهم "خضار" .

ولو كانت للعرب مياه فائضة، وأمطار غزيرة لما كرهوا الزراعة، ولما ازدروا شأنها؛ فحرمانهم من الماء جعلهم يستحقرون شأن الزراعة لأنهم لم يتذوقوا ثمرتها ولم يشعروا بخيراتها، ولهذا اختلف عنهم أهل اليمن وبقية العربية الجنوبية ومن وجد عندهم الماء؛ فغرسوا وزرعوا واعتبروا الزراعة نعمة، وتقدموا إلى آلهتهم لكي تبارك في زرعهم وتنعم حصادهم وتعطيهم غلات وافرة كثيرة .

وتبلغ مساحة جزيرة العرب حوالى مليون وربع مليون ميل من الأميال المربعة¹؛ فحدود أرضهم² من العُدَيْب³ إلى مكة ومن عدن أبين إلى أقصى حجر باليمن بمهرة⁴.

٣- **حث الإسلام على الزراعة**: شارك الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة في أمر الغرس وبذلك أبطل الإسلام نظرة العرب في الجاهلية ورؤيتهم للمزارع. روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة**⁵.

٤- **جعل الإسلام في الزراعة مورداً مالياً كبيراً**: إن في ركن الزكاة يسمى بمورد العشر وفي خراج الأراضي التي فُتحت كأرض خيبر وأرض السواد في العراق وغيرهما، ولقد خُصت الزراعة بكثير من أحكام المعاملات كالمغارسة والمزارعة وغير ذلك.

1 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٧ ص ٥ وما بعدها الدكتور جواد علي، ط ٢ - ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣.

2 المبسوط للسرخسي ج ٣ ص ٧.

3 العُدَيْب: تصغير العذب وهو الماء الطيب والعذيب بظاهر الكوفة وفيها عسكر المسلمون لما توجَّهوا إلى عدوهم في القادسية معجم قبائل العرب القديمة والحديثة عمر رضا كحاله ج ١ ص ١٢٦، دار العلم للملايين بيروت ١٣٨٨ هـ - ط ٢. كذا الروض المعطار ص ٤٠٩.

4 مهرة بالفتح ثم السكون والصحيح كما يقول ياقوت الحموي وجزم به مهرة بالتحريك ثم قال: أنها تنسب إلى قبيلة وهي مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاة تنسب إليهم الإبل المهرية. وذكر كتاب الروض المعطار أنها من بلاد اليمن، عن معجم البلدان ج ٥ ص ٢٣٤ دار الفكر - بيروت، كذا الروض المعطار ص ٥٦١.

5 صحيح البخاري كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ج ٢ ص ٨١٧.

٥- تقدم مهنة الزراعة على أنماط الحياة الاقتصادية الأخرى: قال ابن خلدون في

تاريخه: أما الفلاحة فهي متقدمة عليها، أي عن الصناعة والتجارة، كلها بالذات إذ هي بسيطة وطبيعية فطرية لا تحتاج إلى نظر ولا علم ولهذا تنسب في الخليقة إلى آدم أبي البشر وأنه معلمها والقائم عليها إشارة إلى أنها أقدم وجوه المعاش وأنسبها إلى الطبيعة¹.

٦- جفاف أرض العرب يشمل فترة قبل الإسلام وبعده: هي مستمرة إلى يومنا

هذا بنسبة كبيرة، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر أن في آخر الزمان ستعود الخضرة إلى جزيرة العرب. عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً².

ويعتبر التمر من أبرز المنتجات الزراعية التي تميزت بها شبه الجزيرة العربية، والأماكن التي اشتهرت فيها زراعته هي يثرب المدينة المنورة لاحقاً، ومنطقة خيبر، ومنطقة الطائف، حيث جاء عن ذلك أثناء خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم لدعوة أهلها.

٧- الصناعة: كان العرب أبعد الأمم عن الصناعة، وكانوا يأنفون منها، ويتركون

العمل فيها للأعاجم والموالي، وعندما أرادوا بناء الكعبة استعانوا برجل قبضي نجا

1 تاريخ العلامة عبد الرحمن بن خلدون ج ١ ص ٣٨٣. دار إحياء التراث العربي - بيروت. ج ١ ص ٣٨٣.

2 أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها ج ٣ ص ٨٤. وأخرجه أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ج ٢ ص ٤١٤.

من سفينة غرقت بجدة ثم أقام فيها¹؛ حتى إن الشريف منهم وذا الجاه، كان لا يحضر وليمة يدعوه إليها شخص من أصحاب هذه الحرف، استنكافاً وازدراءً؛ لأنه ليس في منزلته ومكانته. وقد كان عمل الرسول كبيراً في نظر رؤساء القوم يومئذ، حينما جوّز حضور طعام الخياط والصائغ وأمثالهما، وكان يحضر منازلهم؛ فعدّ القوم ذلك عملاً غير مألوف ومخالفاً للعرف والتقاليد. ومن الحرف المتداولة² بين الجاهليين النجارة والحدادة والحياكة والنساجة والخياطة والصياغة والدباغة والبناء ونحوها من حرف يحترفها الحضر في الغالب.

ومن أمثلة تلك الصناعات التي قام بها العرب في مكة قبل الإسلام في مهنة الحدادة وبها كانت صناعة السيوف فعن خباب، قال: كنت قيناً - أي حدّاداً - بمكة؛ فعملت للعاص بن وائل سيفاً؛ فجئت أتقاضاه؛ فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت ثم تبعث. فقال: إذا بعثت كان لي مال؛ فسوف أقضيك. فقلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فأنزلت: **أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأَمُوتَنَّ مَالًا وَوَلَدًا** (مريم: ٧٨) ³.

ومن أمثلتها ما ضربه القرآن الكريم لنا مثلاً حيث كانت النساء في البادية يقمن بالغزل من خيوط الكتان والصوف وقد ضرب بهن المثل في القران الكريم، قال تعالى: **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقِضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا** (النحل: ٩٢).

1 السيرة النبوية للصلابي ج ١ ص ٢٧.

2 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٧ ص ٥٤٢ وما بعدها الدكتور جواد علي، ط ٢ ١٤١٣ هـ - ١٩٣٣.

3 سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢ ص ٣٢٤. الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م مؤسسة الرسالة بيروت.

ومن أمثلتها أيضاً صناعة الخزف وهو ما عمل من الطين وشوي بالنار فصار فخاراً، والفخارة من الحرف المعروفة عند العرب في الجاهلية، وأواني الشرب أي الجرار هي من أكثر الفخار استعمالاً حيث يوضع فيها الماء، والكيان. واستعمل الفخار لحزن المواد الغذائية أيضاً، ولحفظ الأشياء الثمينة مثل الذهب والنقود والحلي، ولأغراض أخرى عديدة، ويكون في كل الأماكن الأثرية مادة مفيدة للآثاريين.

وظالما استعملت الجرار لحزن الأشياء النفيسة فيها مثل الذهب والنقود والحلي وما شاكل ذلك، إذ توضع هذه الأشياء في داخل جرة ثم تسد وتدفن حتى لا يقف عليها اللصوص والطامعون في المال.

وقد عرف أهل العربية الجنوبية "البلور" لوجوده في اليمن وفي أماكن أخرى. وهم يستخرجونه من نوع خاص من الحجر ويصقلونه بعناية، والغالب عليه اللون الأبيض غير إن بعضه ذو ألوان أخرى، هو لون الحجر الذي أخذ منه¹.

الدروس والعبر:

١ - الصناعة وعمل اليد: تعد الصناعة من المهن التي تحتاج إليها الأمم في حياتها، وهذا ليس بالأمر الجديد، وقد أخبرنا الله تعالى عن سيدنا داود عليه السلام فقال:

وَعَلَّمَآءُ صِنْعَةٍ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ

(الأنبياء: ٨٠). وروى البخاري عن المقدم رضي الله عنه: عن رسول الله صلى الله

1 الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٨ ص ٥٨ وما بعدها الدكتور جواد علي، ط ٢ - ١٩٩٣/هـ ١٤١٣.

عليه وسلم قال: ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده¹.

٢- الضعف النسبي للإنتاج الصناعي عند العرب قبل الإسلام: قال ابن خلدون²: أما الصنائع فهي ثانيتها ومتأخرة عنها لأنها مركبة وعلمية تُصرف فيها الأفكار والأنظار، لهذا لا يوجد غالباً إلا في أهل الحضرة الذي هو متأخر عن البدو وثانٍ عنه، ومن هذا المعنى نسبت إلى إدريس الأب الثاني للخليفة أنه مستنبطها لمن بعده من البشر بالوحي من الله تعالى. ويعود سبب الضعف العام للصناعة عند العرب قبل الإسلام³:

- العمل باليد من الأمور المستهجنة عند الأعراب، وعند أكثر العرب أيضاً لأن الصناعة من حرف العبيد والخدم والأعاجم، والمستضعفين من الناس وطبعاً هذا ما أبطله الإسلام.
- الصناعة لا تقوم إلا في مكان تتوفر فيه إمكانياتها من استقرار وأمن، ومن وجود حاجة إليها، ومن توفر المواد الأولية فيها، والمواد الخام اللازمة لها. أما البداوة؛ فحاجاتها إلى الإنتاج قليلة، لسذاجة الحياة وبساطتها فيها.

1 صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده ج ٢ ص ٧٣٠.
 2 عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، من ولد وأئل بن حجر: الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة. أصله من إشبيلية، ولد بتونس سنة ٧٣٢هـ ونشأ فيها رحل إلى فاس وقرطبة وتلمسان وأنطلس، وتولى أعمالاً، وعاد إلى تونس. ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برفوق. وولي فيها قضاء المالكية، اشتهر بكتابه: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن كتبه شرح البردة وكتاب في الحساب ورسالة في المنطق وشفاء السائل لتهديب المسائل وله شعر. توفي في القاهرة سنة ٨٠٨ هـ.
 3 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٧ ص ٥٠٥ وما بعدها الدكتور جواد علي، ط ٢ - ١٩٩٣/١٤١٣.

٣- ارتباط صناعة العرب بمكونات البيئة العربية وحاجتها: البيئة العربية كانت في صراع مستمر بين كثير من القبائل فاحتاجوا لصناعة الأسلحة كالسيوف والرماح، وكانوا في بيئة صحراوية فاحتاجوا إلى وسائل لنقل المياه وحفظها كالجرار، وكانوا في بيئة رعي فاستغلوا جلود الأنعام في صناعتهم واستثمروها.

٤- قبول الدعوة وإبطال صنيع الجاهلية: اختلف في إجابة الدعوة فقال بعضهم: واجبة لا يسع تركها، والأفضل أن يجيب إذا كانت وليمة، وإلا فهو مخير والإجابة أفضل لأن فيها إدخال السرور في قلب المؤمن، وينبغي أن لا يميز الغني بالإجابة عن الفقير فذلك هو الكبر المنهي عنه¹.

ولقد كان أهل الجاهلية يستكبرون من إجابة دعوة أهل الحرف تكبراً، ولقد نهى الإسلام عن صنيعهم وورد على ذلك أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم حيث روى البخاري رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن خياطاً دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الطعام؛ فقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبزاً من شعير، ومرقاً فيه دباء وقديد؛ فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتتبع الدباء من حول الصحيفة؛ فلم أزل أحب الدباء من يومئذ².

1 الدرر المباحة في الحظر والإباحة ص ١٧، للعلامة خليل بن عبد القادر الشيباني الشهير بالنحلاوي، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م - المطبعة العلمية بدمشق.

2 صحيح البخاري، كتاب البيوع باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف، ج ٢ ص ٧٣٧.

٥- دفين الجاهلية: الركاز: مرّ في استفادة العرب من صناعة الفخار قيام كثير منهم بدفن مالهم من بعض الأموال الثمينة فيها وهذا الدفين يسمى بالركاز. وعرفه جمهور الفقهاء بدفين الجاهلية قلّ أو أكثر¹، والمراد بالجاهلية، أي قبل الإسلام مما كان يُستخدم من قبلهم كضرب الأعاجم العملة، أو حليتهم، أو صور ملوكهم، وما شابه ذلك، وسوى أمر الجاهلية فهو لقطه. وعرف الحنفية² بأنه مال مركزوز تحت الأرض، أعم من كون راكمه الخالق أو المخلوق. ولقد وردت مشروعية الركاز في السنة والإجماع؛ ففي السنة: قوله صلى الله عليه وسلم: **وفي الركاز الخمس**³. وفي الإجماع، قال ابن المنذر⁴: لا نعلم أحداً خالف هذا الحديث، إلا الحسن فإنه فرق بين ما يوجد في أرض الحرب، وأرض العرب؛ فقال: فيما يوجد في أرض الحرب الخمس، وفيما يوجد في أرض العرب الزكاة⁵.

1 المدونة الكبرى للإمام مالك ج ٢ ص ٢٩٣ مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ) دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، الإقناع للشربيني ج ١ ص ٢٢٥ شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ) مكتب البحوث والدراسات - دار الفكر، دار الفكر - بيروت، المغني ج ٢ ص ٣٢٣. أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، مكتبة القاهرة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

2 رد المحتار ج ٧ ص ١٣٥.

3 صحيح البخاري باب وفي الركاز الخمس ج ٢ ص ٥٤٥، وصحيح مسلم باب جرح العجماء جبار... ج ٣ ص ١٣٣٥. سنن الترمذي أبواب الزكاة - باب ما جاء في أن العجماء جرحها جبار، وفي الركاز الخمس ج ٣ ص ٣ / رقم ٦٤٢.

4 ابن المنذر: الإمام الحافظ العلامة، شيخ الإسلام، أبو بكر، محمد بن إبراهيم ابن المنذر النيسابوري الفقيه، نزيل مكة، وصاحب التصانيف: الإجماع، وكتاب: المبسوط، وغير ذلك، توفي سنة ٣١٨. عن سير أعلام النبلاء ج ١٤ ص ٤٩٠.

5 المغني ج ٢ ص ٣٢٧.

مصرف الركاز: اختلفت الرواية عن أحمد فيه¹، مع ما فيه من اختلاف أهل العلم؛ القول الأول: أهل الصدقات. ونص عليه أحمد في رواية فقال: يعطي الخُمس من الركاز على مكانه، وإن تصدق به على المساكين أجزأه، وهذا قول الشافعي². وأما القول الثاني: فمصرفه مصرف الفيء، أي يُخلط بالميزانية العامة للدولة، وبها قال أبو حنيفة وأحمد ومالك في رواية أخرى عنه، قال الإمام أبو يوسف: وهو بمنزلة الغنيمة يغنمها القوم فتُخمس وما بقي فلهم³.

ودليل القول الأول: أن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه، أمر صاحب الكنز أن يتصدق به على المساكين حيث قال له: اقسّمها خمسة أخماس فقسّمتها؛ فأخذ علي منها خمسا وأعطاني أربعة أخماس؛ فلما أدبرتُ دعائي؛ فقال: في جيرانك فقراءٌ ومساكينٌ؟ قلت: نعم. قال: فخذها فاقسمها بينهم⁴.

وذكر الشافعي⁵ تعليقاً عن هذا الحديث بأنه ينقض بعضه بعضاً إذا زعم أن علياً قال وخمس للمسلمين فكيف يجوز أن يكون الوالي يرى للمسلمين في مال رجل شيئاً ثم يرده عليه أو يدعه له والواجب على الوالي أن لو منع رجل من المسلمين شيئاً لهم في ماله أن يجاهده عليه، وهذا عن علي مستنكر وقد روى عن علي بإسناد موصول أنه قال: أربعة أخماس لك واقسم الخمس على فقراء أهلك، ولعل

1 المغني ج ٢ ص ٣٢٧.

2 المغني ج ٢ ص ٣٢٩.

3 الخراج لأبي يوسف ص ٢٣؛ فتح الباري لابن حجر ج ٣ ص ٣٦٥. أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.

4 البيهقي في السنن الكبرى: ج ٤ ص ١٥٦. أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر

البيهقي مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤ - ١٩٩٤.

5 الأم ج ٢ ص ٩٣. الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ١٥٠ - ٢٠٤، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

علياً رضي الله عنه عَلمه أَمِيناً وَعَلمَ في أهله فقراء من أهل السهمان فأمره أن يقسمه فيهم .

ولأنه مستفاد من الأرض، أشبه المعدن والزرع .

وأما دليل القول الثاني: لما روى أبو عبيد¹، بسنده أن رجلاً وجد ألف دينار مدفونة خارجاً من المدينة؛ فأتى بهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فأخذ منها الخمس مائتي دينار، ودفع إلى الرجل بقيتها، وجعل عمر رضي الله عنه يقسم المائتين بين من حضره من المسلمين، إلى أن فضل منها فضلة²، ولأنه مال مخموس زالت عنه يد الكافر. ويطمئن القلب للقول أن حُمس الركاز إن حصل وظهر فهو لبيت المال يخصص وفق نفقات الزكاة عند الشافعي وأحمد في رواية، وتطلق يد بيت المال في نفقاته حسب مصالح الأمة وفق قول جمهور الفقهاء .

٦- التجارة: إذا كانت الجزيرة العربية قد ضعفت فيها الزراعة والصناعة؛ فإن موقعها الاستراتيجي بين إفريقيا وشرق آسيا أهلها لتحتل مركزاً متقدماً في التجارة الدولية آنذاك. وكان أهل مدن الجزيرة العربية يمارسون التجارة، لا سيما أهل مكة؛ فقد كان لهم مركز تجاري ممتاز، وكان لهم بحكم كونهم أهل الحرم منزلة في نفوس العرب فلا يتعرض أحد لتجارتهم بسوء، وقد امتن الله عليهم بذلك في القرآن

الكريم: **أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ**

يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (العنكبوت: ٦٧)، كما كانت لقريش رحلتان

1 الأموال ص ٤٢٨، برقم ٨٧٥. أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى:

٢٢٤هـ) دار الفكر. - بيروت.

2 المغني ج ٦ ص ١٠.

عظيמתان شهيرتان : رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، يذهبون فيها آمنين بينما غيرهم يُتخطفون من حولهم، هذا عدا الرحلات الأخرى التي يقومون بها طوال العام، قال تعالى: **لَا إِلَافَ قَرِيْشٍ إِلَّا فِيْهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ*** **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** (قريش: ١-٤).

كانت القوافل تحمل الطيب والبخور، والصمغ، واللبن، والتوابل والتمور، والروائح العطرية، والأخشاب الزكية، والعاج، والأبنوس، والخرز، والجلود، والبرود اليمنية والأنسجة الحريرية، والأسلحة وغيرها مما كان يوجد في شبه الجزيرة، أو يكون مستورداً من خارجها، ثم تذهب القوافل به إلى الشام وغيرها وتعود محملة بالقمح، والحبوب، والزبيب، والزيتون، والمنسوجات الشامية وغيرها. كما اشتهر اليمنيون بالتجارة، وكان نشاطهم في البر والبحار؛ فسافروا إلى سواحل إفريقيا والهند وإندونيسيا وسومطرة وغيرها من بلاد آسيا، وجزر المحيط الهندي أو البحر العربي، وقد كان لهم فضل كبير بعد اعتناقهم الإسلام؛ في نشر الإسلام في هذه الأقطار. وقد نجم عن تلك التجارات فوائض اقتصادية لدى تجار مكة وغيرهم من التجار العرب.

٧- الإقراض والاقتراض: كان التعامل بالربا منتشراً في الجزيرة العربية، ولعل هذا الداء الوييل سرى إلى العرب من اليهود. وكان يتعامل به الأشراف وغيرهم وكانت نسبة الربا في بعض الأحيان إلى أكثر من مائة في المائة.

٨- الأسواق: كان للعرب أسواقاً مشهورة؛ كعكاظ، ومجنة، وذو المجاز. يذكر بعض المؤلفين في أخبار مكة أن العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة، ثم يذهبون منه إلى مجنة بعد مضي عشرين يوماً من ذي القعدة؛ فإذا رأوا هلال ذي الحجة ذهبوا إلى ذي المجاز فلبثوا فيها ثمانين ليال، ثم يذهبون إلى عرفة، وكانوا لا يتبايعون في عرفة ولا أيام منى حتى جاء الإسلام فأباح لهم ذلك، قال تعالى: **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَافَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ** (البقرة: ١٩٨). وقد استمرت هذه الأسواق في الإسلام حيناً من الدهر ثم درست، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت أسواقاً للأدب والشعر والخطابة يجتمع فيها فحول الشعراء ومصاقع الخطباء، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم، ومفاخرهم، ومآثرهم، وبذلك كانت ثروة كبرى للغة، والأدب، إلى جانب كونها ثروة تجارية.

الرفادة: الرفادة من الرُفد وهو العطاء والصلة، وكانت الرفادة والسقاية لبني هاشم. قال ابن هشام: كانت الرفادة خرجاً - مالية طوعية قدر الاستطاعة - تُخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب؛ فيصنع به طعاماً للحاج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد. وذلك أن قصياً فرضه على قريش؛ فقال لهم حين أمرهم به: يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى

يصدروا عنكم ففعلوا؛ فكانوا يُخرجون من أموالهم كل عام خرجاً يدفعونه إليه ليصنع طعام الحجيج أيام منى .

الدروس والعبر :

١ - حكى الله نعمه على العرب ومنها إطعامهم من الجوع ونشر الأمن والأمان لهم ومع هذه النعم أمرهم الله على شكره حتى تدوم لهم النعم .

٢ - حرّم الله الربا؛ الذي كان منتشرًا في الجاهلية وكل أنواعه قال الله تعالى :
الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقْوَمُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ*
يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ* وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* وَاتَّقُوا أَيَّامًا تَأْتُرُ جَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تَتَوَقَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (البقرة ٢٧٥ - ٢٨١) .

٣- كان للعرب كثير من الأسواق: أخبر القرآن عن حالهم عندما تعجب المستكبرون من أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم - وسيمرّ موضع ذلك في السيرة لاحقاً - : **وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا* أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا** (الفرقان: ٧- ٨) ثم حكى القرآن صفة المرسلين عموماً أنهم كذلك مثله صلى الله عليه وسلم يأكلون الطعام وينظرون في معاش الناس وتعاملهم في الأسواق، قال تعالى: **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا** (الفرقان: ٢٠).

٤- كان¹ النظام القبلي للعرب تحكمه القبيلة وكان لزعيم القبيلة حقوقاً مادية: كان للزعيم في كل غنيمة تغنمها المرباع وهو ربع الغنيمة، والصفايا وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة والنشيطة وهي ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء والفضول وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة. وكانت الحروب بين القبائل على قدم وساق، وكان رزق بعض القبائل في كثير من الأحيان في حد سيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقض عليها قبيلة أخرى في ساعة من ليل أو نهار لتسلب أنعامها ومؤونها، وتدع ديارها خاوية كأن لم تسكن بالأمس. كما كان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر أو خشية منه؛ فجاء الإسلام وحرّم

¹ السيرة النبوية للصلاحي ج ١ ص ٢٦، دار ابن كثير ط ٦ - ١٤٣٤ هـ

ذلك قال تعالى: **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ كُفْرًا بِآيَاتِي وَمَا حَرَّمَ رَبِّيَ كُفْرًا بِآيَاتِي وَمَا حَرَّمَ رَبِّيَ كُفْرًا بِآيَاتِي وَمَا حَرَّمَ رَبِّيَ كُفْرًا بِآيَاتِي**
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ
 (الأنعام: ١٥١). وقال تعالى: **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ**
وَإِيَّاهُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (الاسراء: ٣١).

٥- كان عند العرب أنكحة باطلة، ومنها نكاح الشغار وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداق.

٦- كان عند العرب الكرم: كان خُلُق متأصل في العرب، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا فرسه، أو ناقته؛ فيأتيه الضيف؛ فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له، وكرم حاتم الطائي سارت به الركبان، وضربت به الأمثال وكذا عنترة العبسي القائل:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك	إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الوقعة أنني	أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وكذا حاتم الطائي القائل:

أماوي إنَّ المالَ غادٍ ورائحُ	ويبقى من المالِ الأحاديثُ والذُّكْرُ
أماويَّ إنِّي لا أقولُ لسائلٍ	إذا جاءَ يوماً حلَّ في مالنا نذرُ
وقد علمَ الأقوامُ لو أنَّ حاتمًا	أرادَ ثراءَ المالِ كانَ له وفرُ

حفر زمزم

بئر زمزم هي بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، سقاها الله إياه حين ظمئ وهو صغير فالتمست له أمه ماء فلم تجده فقامت إلى الصفا تدعو الله وتستغيثه لإسماعيل ثم أتت المروة ففعلت مثل ذلك؛ فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام، ليهمز له - ضغط - بعقبه في الأرض فظهر الماء.

حفر عبد المطلب لزمزم وإخراج كنزه:

أمر عبد المطلب في منامه بحفر زمزم، ووصف له موضعها؛ فقام يحفر؛ فوجد فيه الأشياء التي دفنها الجُراهمة¹ حين لجأوا إلى الجلاء، أي السيوف والدروع والغزاليين من الذهب؛ فضرب الأسياف باباً للكعبة، وضرب في الباب الغزاليين صفائح من ذهب، وأقام سقاية زمزم للحجاج².

قال ابن هشام: ثم ولي عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب فأقامها للناس وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه وأحبه قومه وعظم خطره فيهم³.

الدروس والعبر:

1 نسبة إلى جرهم الذين بَعَوْا بِمَكَّةَ وَاسْتَحَلُّوا خِلَالَهَا مِنَ الْحُرْمَةِ فَظَلَمُوا مَنْ دَخَلَهَا مِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا، وَأَكَلُوا مَالَ الْكُعْبَةِ الَّذِي يُهْدَى لَهَا وَتَمَّ نَفِيهِمْ مِنْ مَكَّةَ بَعْدَ قِتَالِ.

2 سيرة ابن كثير ج ١ ص ١٧١. السيرة النبوية للإمام أبي الفداء اسماعيل بن كثير ٧٠١ - ٧٤٧ هـ ١٣٩٦ - ١٩٧١ م دار المعرفة، بيروت.

3 سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٢.

١ - ماء زمزم: أخرج الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنه ما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ماء زمزم لما شرب له؛ فإن شربته تستشفى به شفاك الله، وإن شربته مستعيذاً عاذك الله، وإن شربته ليقطع ظمأك قطعه، قال: وكان ابن عباس إذا شرب ماء زمزم قال: اللهم أسألك علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاءً من كل داء، وأخرج أحمد عن جابر رضي الله عنه ما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ماء زمزم لما شرب له. وما رواه مسلم في صحيحه في قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه: إنها طعام طعم. أي تشبع شاربها كما يشبعه الطعام.

وبناء على هذه النصوص تُعد المميزات التي احتوتها مياه زمزم فريدة من نوعها، بل لا يماثلها أي نوع من المياه في العالم؛ فهي شراب وطعام ودواء علاجي وغذاء عقلي يساعد صاحبه على اكتساب العلم والمعرفة، ويشكل هذا من الناحية الاقتصادية عرضاً خاصاً لكل مسلم يقبل على الشرب منه مستحضراً النية التي يرغبها من عند الله تعالى.

٢ - القيمة المالية لماء زمزم: شكل ماء زمزم مورداً مالياً غير مباشر للمسلمين عبر كل العصور؛ فقد وُقر وجوده تكاليف نقل المياه وتحليتها. وإذا نظرنا لكمية العبوات المائية التي تعبأ في زماننا، حيث توزيع مجاناً على الحجاج والمعتمرين؛ فإذا أرادوا شراء ما يحتاجونه من مياه للشرب لدفعوا أثمناً عالية إذا ما قيست بنفقة ملايين الناس الوافدين للعبادة بمكة سنوياً، وهذا مثال لما يمكن تقديره على أولئك الناس.

٣ - إن ما أُخرج من بئر زمزم من حليّ استفيد منه في صناعة باب الكعبة كأول حلية لها: لا يُعدّ فعل عبد المطلب تشريعاً؛ فهو أخذ الكنز من أرض الحرم ووضعه في الكعبة المشرفة بعد أن كانت خرجت القرعة للكعبة، وهذا يتوافق مع النظرية العامة للموارد المالية القائمة على التخصيص المالي في الموارد والنفقات .

ويقوم النظام المالي الإسلامي¹ على أساس تخصيص الإيرادات التي يُوجّه كل واحد منها إلى كفاية نوع من الحاجات العامة ولا يُنقلُ قِسْمٌ إلى آخر إلا عند الضرورة التي تُقدر بقدرها. قال صاحب رد المحتار: إن على الإمام أن يجعل لكل نوع بيتاً يخصه، وله أن يستقرض من أحدها ليصرفه للآخر، ويعطي بقدر الحاجة والفقه والفضل؛ فإن قصرّ كان الله تعالى عليه حسيباً².

٤ - المياه وبناء الحضارات: شكلت المياه عبر التاريخ الأساس الأول لبناء الحضارة وال عمران البشرية، ويمكن تتبع ذلك من خلال متابعة الكثافة السكانية للحضارات الإنسانية حول المياه العذبة، وقد أبان القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى: **أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ** (الأنبياء: ٣٠).

وإذا نظرنا إلى حال مكة قبل أن يُخرج الله ماء زمزم لإسماعيل عليه السلام؛ فلم تكن معمورة بالناس، وقد حقق الله فيها دعوة إبراهيم عليه السلام: **رَبَّنَا إِنِّي**

1 السياسة الاقتصادية والنظم المالية في الإسلام للدكتور أحمد الحصري ص ٤٤٨ بتصرف، كذا النفقات العامة في الإسلام للدكتور يوسف إبراهيم يوسف ص ١٤١ - ١٤٢ بتصرف.
2 رد المحتار ابن عابدين ج ٢ ص ٣٦٩.

**أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ
فَاجْعَلْ أَفِيدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** (إبراهيم: ٣٧).

وقد يقال: كيف كانت حياة أهل مكة قبل أن يجدد عبد المطلب حفر زمزم؟، ذكر ابن هشام¹ في سيرته: كانت قريش قبل حفر زمزم قد احتفرت بئارا بمكة؛ فيما حدثنا زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق قال: حفر عبد شمس بن عبد مناف الطوى، وهي البئر التي بأعلى مكة عند البيضاء دار محمد بن يوسف الثقفي. وذكر مجموعة من الآبار الأخرى، مثل:

- بذر، التي حفرها هاشم بن عبد مناف.
- سجلة، التي كانت للمطعم بن عدي.
- سقيّة، التي حفرها بنو أسد بن عبد العزى، وغير ذلك من الآبار².

٥ - الناس شركاء في المياه: إن في إقامة عبد المطلب أمر السقاية من مياه زمزم وبذله لتلك المياه دون مقابل مالي، أمر ذكرته السنّة النبوية كحق للناس بالتشارك بالمياه غير المحازة. قال صلى الله عليه وسلم: **الناس شركاء في الماء والكلاء والملح**،

¹ ابن هشام صاحب السيرة أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المَعافري وهذه النسبة إلى المَعافر بن يعفر قبيلة كبير ينسب إليه بشر كثير عامتهم بمصر، وكان له تقدم في علم النسب والنحو، وهو من مصر وأصله من البصرة، وله كتاب في أنساب حمير وملوكها، وكتاب في شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب فيما ذكر لي. وتوفي بمصر في سنة ثلاث عشرة ومائتين، رحمه الله تعالى. وفايات الأعيان ج ٣ ص ١٧٧.

² سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٨.

وفي رواية: المسلمون شركاء في ثلاثة الماء والكأ والنار¹. ورغم أهمية الماء لهذه الحياة، وأهمية بذله للحجيج؛ فقد ذكر القرآن أن الإنسان مهما قدم من معروف فذلك لا يوازي قضية الإيمان، قال الله تعالى: **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَجَاهَدْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ*** الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (التوبة: ١٩ - ٢٠).

بناء القليس وأصحاب الفيل

أولاً - بناء القليس²: قال ابن هشام: **ثُمَّ إِنَّ أَبْرَهَةَ بَنَى الْقُلَيْسَ بِصَنْعَاءَ؛ فَبَنَى كَنِيسَةً لَمْ يَرِ مِثْلُهَا لِيَصْرِفَ الْعَرَبُ فِي حَجِّهِمْ إِلَيْهَا، وَنَقَلَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَنَّ أَبْرَهَةَ اسْتَذَلَ أَهْلَ الْيَمَنِ فِي بِنَاءِ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ، وَسَخَّرَهُمْ فِي الْعَمَلِ فِيهَا وَكَانَ مِنْ تَأْخُرِ عَنِ الْعَمَلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ يَقْطَعُ يَدَهُ لَا مُحَالَةَ، وَجَعَلَ يَنْقُلُ إِلَيْهَا مِنْ قَصْرِ بَلْقَيْسٍ رِخَامًا وَأَحْجَارًا وَأَمْتَعَةً عَظِيمَةً، وَرَكِبَ فِيهَا صَلْبَانًا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، وَجَعَلَ فِيهَا مَنَابِرَ مِنْ عَاجٍ وَأَبْنُوسٍ، وَجَعَلَ ارْتِفَاعَهَا عَظِيمًا جَدًّا وَاتَّسَاعَهَا بَاهِرًا؛ فَلَمَّا هَلَكَ بَعْدَ ذَلِكَ أَبْرَهَةُ وَتَفَرَّقَتِ الْحَبِشَةُ كَانَ مِنْ يَتَعَرَّضُ لِأَخْذِ شَيْءٍ مِنْ بِنَائِهَا**

¹ سنن أبي داود كتاب الإجارة باب في منع الماء ج ٣ ص ٢٧٨، سنن ابن ماجه باب المسلمون شركاء في ثلاثة ج ٢ ص ٨٢٦ بإسناد صحيح، الإمام أحمد في المسند ج ٥ ص ٣٦٤.
² سُميت بالقليس لارتفاع بنائها وعلوها.

وأمتعتها أصابته الجن بسوء؛ فتركها أهل اليمن على حالها. فلم تزل كذلك إلى زمن السفاح - أول خلفاء بني العباس -، حيث بعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم فنقضوها حجراً حجراً.

ثانياً - حادثة الفيل ووقوف عبد المطلب لأجل أمواله: روى ابن كثير أن رجلاً من كنانة خرج حتى أتى القلّيس فقعد فيها، أي أحدث حيث لا يراه أحد، ثم خرج فلحق بأرضه؛ فأخبر أبرهة بذلك؛ فقال من صنع هذا؟ فقيل له: صنعه رجل من أهل هذا البيت الذي تحجه العرب بمكة، لما سمع بقولك أنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا؛ فغضب وقعد فيها، غضب أبرهة عند ذلك، وحلف بالسير إلى البيت حتى يهدمه، وأمر الحبشة لتتهياً وتتجهز.

قال ابن إسحاق¹: لما نزل أبرهة بالمغمس، بعث رجلاً من الحبشة حتى انتهى إلى مكة؛ فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها؛ فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أن لا طاقة لهم به فتركوا ذلك.

خرج عبد المطلب إلى أبرهة واستأذن بالدخول عليه؛ فأذن له وكان عبد المطلب رجلاً عظيماً جسيماً وسيماً؛ فلما رآه أبرهة أعظمه وأكرمه، وكره أن يشاركه

¹ محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار، وقيل: ابن كوثران العلامة الحافظ أبو بكر، وقيل: أبو عبد الله القرشي المطليبي مولاهم المدني، صاحب السيرة النبوية، ولد ابن إسحاق سنة ثمانين، ورأى أنس بن مالك بالمدينة، وسعيد بن المسيب. وهو أول من دون العلم بالمدينة، وذلك قبل مالك وذويه، وكان في العلم حجراً عجاجاً، ولكنه ليس بالمجود كما ينبغي. وروى حرمله عن الشافعي قال: من أراد أن يتبحر في المغازي؛ فهو عيال على محمد بن إسحاق. مات سنة إحدى وخمسين ومئة. وقال علي بن المدني، ويحيى بن معين، وزيكريا الساجي، وغيرهم: سنة اثنتين وخمسين ومئة، سير أعلام النبلاء ج ٧ ص ٣٣.

الجلوس على سريره كما كره أن يجلس عبد المطلب تحته؛ فهبط إلى البساط فجلس عليه معه؛ فقال له عبد المطلب: أيها الملك إنك قد أصبت لي مالاً عظيماً فاردده علي؛ فقال له: لقد أعجبتني حين رأيتك ولقد زهدت فيك، قال: ولم؟ قال: جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك وعصمتكم ومنعتكم فأهدمه فلم تكلمني فيه، وتكلمني في مائتي بعير لك؟ قال: أنا رب هذه الإبل، ولهذا البيت رب سيمنعه، قال: ما كان ليمنعه مني، قال: فأنت وذاك، قال: فأمر - أي أبرهة - بإبله فردت عليه، ثم خرج عبد المطلب وأخبر قريش الخبر وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب، وأصبح أبرهة بالمغمس قد تهيأ للدخول وعباً جيشه، وقرب فيله وحمل عليه ما أراد أن يحمل وهو قائم؛ فلما حركه وقف وكاد أن يرمزم إلى الأرض فيبرك؛ فضربوه بالمعول في رأسه فأبى وأرسل الله الطير الأبايل فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك¹.

الدروس والعبر:

١- أثبت القرآن الكريم حادثة الفيل: قال تعالى: **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ**

الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ

مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (الفيل: ١ - ٥) وبعث الله على أبرهة داء في

جسده، ورجعوا سراعاً يتساقطون في كل بلد، وجعل أبرهة تتساقط أنامله.

¹ السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٣٤.

٢- لا يعتبر فعل عبد المطلب تشريعاً لكنه كان على البقية الباقية من دين إبراهيم عليه السلام: وكان يعرف ككثير من العرب قدسية الكعبة وأنها بيت الله الحرام وكان يعتقد أن الله قادر على حمايتها وهذا ما حدث في تحد عجيب لأبرهة عندما قال له: فأنت وذاك بمعنى جرب إن استطعت، لكنه قام بطلب أمواله التي كانت له، وهذا أمر جاءت به الشريعة وأمرت المسلم أن يحفظ ماله من السرقة وغيرها مع التوكل على الله، والقاعدة الشرعية في ذلك هو وجوب الدفاع عن الحق والمقدسات.

٣- دخل لبيت مال المسلمين زمن العباسيين أموالاً كثيرة من نقض القلّيس، وينطبق على تلك الأموال مسمى الركاز لأنها بمثابة المال المدفون حكماً بتعثر الوصول إليها: وقد يقول قائل لماذا امتد الزمان بالقلّيس حتى حزم المسلمون أمر نقضه؟ أو بمعنى آخر لم يتم نقض القلّيس قبل زمن العباسيين؟ والإجابة على ذلك يحتمل وجوهاً عديدة:

- لقد كانت الأولوية لدى المسلمين زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضي الله عنه هو الدعوة إلى الله والقضاء بين الناس وفق كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم الاجتهاد فيما لم يرد فيهما كما في حديث معاذ رضي الله عنه حينما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن.
- انشغل المسلمون فيما بعد ذلك بالفتوحات الإسلامية الخارجية وبتأمين الحياة الآمنة لكل الناس في الداخل كما في قصة قتل الجماعة للواحد زمن أمير

المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يكن هناك من تفرغ لمثل أمر القليس .

- تتلمذ الصحابة الكرام على يد النبي صلى الله عليه وسلم بضرورة الاعتبار عند رؤية الآثار بدليل عمل النبي صلى الله عليه وسلم عندما مرَّ بديار ثمود، وبما رواه ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم . وقد أمر القرآن الكريم بالسير في الأرض لأجل النظر والاعتبار، قال الله تعالى:

– قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (الأنعام: ١١) ،

– قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (النمل: ٦٩) ،

– قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ

مُشْرِكِينَ (الروم: ٤٢) .

الفصل الثاني أبرز الملامح المالية والاقتصادية من الميلاد إلى قبل البعثة

يقصد بالملامح الاقتصادية، ما كان مرتبطاً بشيء من المعاش والاقتصاد امتداداً من طفولته صلى الله عليه وسلم حتى زواجه من السيدة خديجة رضي الله عنها.

ميلاده ورضاعته صلى الله عليه وسلم

إن النسب الشريف للنبي صلى الله عليه وسلم موصل إلى إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن. وكان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه، ولما نجا من الذبح وفداه عبد المطلب بمائة من الإبل¹، زوجه من أشرف نساء مكة نسباً، وهي آمنة بنت وهب.

توفي أبوه بعد أن حملت به آمنة، ودُفن بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار؛ في رحلة ذهب بها بتجارة إلى الشام؛ فأدركته منيته بالمدينة عند عودته، تاركاً هذه النسمة المباركة.

ميلاده ورضاعته صلى الله عليه وسلم:

ولد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين - بلا خلاف -، والغالب أنه لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول. والمجمع عليه أنه ولد في عام الفيل، وأن أول من أرضعته من المرضع بعد أمه صلى الله عليه وسلم بأسبوع ثويبة مولاة أبي لهب ثم حليلة السعدية التي لم تجد بمكة غيره بعد أن زهدت به المرضعات ليتمه.

تقول حليلة السعدية: قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلاخذه؛ فقال: لا عليك أن تفعلني؛ فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة؛ فذهبت فأخذته؛ فوالله ما

1 السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٨٤

أخذته إلا أنني لم أجد غيره . فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلي فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن؛ فشرب حتى روي وشرب أخوه حتى روي، وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل؛ فحلب ما شرب وشربت حتى روينا؛ فبتنا بخير ليلة . فقال صاحبي حين أصبحنا: يا حليلة والله إنني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه؟ فلم يزل الله عز وجل يزيدنا خيراً .

ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا فوالله لقطعت أتانني بالركب حتى ما يتعلق بها حمار، حتى أن صواحبني ليقلن: ويلك يا بنت أبي ذؤيب! هذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟ فأقول: نعم والله إنها لهي؛ فيقلن: والله إن لها لشأناً؛ حتى قدمنا أرض بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها؛ فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً فنحلب ما شئنا، وما حوالينا أو حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياً، حتى إنهم ليقولون لرعاتهم أو لرعيانهم: وَيَحْكُمُ انظُرُوا حَيْثُ تَسْرَحُ غَنَمُ بِنْتِ أَبِي ذَوْيْبٍ فَاسْرَحُوا مَعَهُمْ . فيسرحون مع غنمي حيث تسرح؛ فتروح أغنامهم جياً ما فيها قطرة لبن، وتروح أغنامي شباعاً لبناً نحلب ما شئنا؛ فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها¹ .

1 السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٢٧ .

الدروس والعبر :

١- تظهر الروايات التاريخية غنى جد النبي صلى الله عليه وسلم عبد المطلب فقصة الفداء لعبد الله بمئة من الإبل دليل على ذلك وقد رواها ابن هشام وغيره¹.

٢- لرسول الله صلى الله عليه وسلم إرث من أبيه؛ فجميع ما خلفه عبد الله خمسة أجمال، وقطعة غنم، وجارية حبشية اسمها بركة كنيته أم أيمن، هي حاضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم²، ولم يرد أمر في السيرة النبوية حول شيء من عمل رسول الله صلى الله عليه بهذا الميراث إلا من أمر الجارية أم أيمن حيث: تولت أم أيمن رعاية وحضانة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة.

أخرج الإمام مسلم عن أنس بن مالك قال لما قدم المهاجرون من مكة المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء وكان الأنصار أهل الأرض والعقار فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام ويكفونهم العمل والمؤونة وكانت أم أنس بن مالك وتدعى أم سليم؛ فأم عبد الله بن أبي طلحة كان أخاً لأنس لأمه، وكانت أعطت أم أنس رسول الله صلى الله عليه وسلم عذاقاً لها؛ فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أيمن مولاته أم أسامة بن زيد. قال ابن شهاب: فأخبرني أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى

1 سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٤.

2 الرحيق المختوم ص ٣٤.

المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم¹ التي كانوا منحوهم من ثمارهم، قال: فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمي عذاقها وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أيمن مكانهن من حائطه. قال ابن شهاب وكان من شأن أم أيمن أم أسامة بن زيد أنها كانت وصيفة لعبد الله بن عبد المطلب وكانت من الحبشة فلما ولدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما توفي أبوه فكانت أم أيمن تحضنه حتى كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأعتقها ثم أنكحها زيد بن حارثة؛ ثم توفيت بعدما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهر².

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليترك أم أيمن دون رد للجميل والمعروف من خلال العتق والتزويج لها بزيد بن حارثة؛ فقد كان كثير العطاء والجود عليها. روى مسلم عن أنس أن رجلاً، وقال حامد وابن عبد الأعلى أن الرجل كان يجعل للنبي صلى الله عليه وسلم النخلات من أرضه، حتى فُتحت عليه قريظة والنضير فجعل بعد ذلك يرد عليه ما كان أعطاه.

قال أنس وإن أهلي أمروني أن آتي النبي صلى الله عليه وسلم فأسأله ما كان أهله أعطوه أو بعضه وكان نبي الله صلى الله عليه وسلم قد أعطاه أم أيمن فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأعطانيهن فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي وقالت:

1 قال الإمام النووي: قال أهل اللغة: المنحة بكسر الميم والمنيحة بفتحها مع زيادة الياء هي العطية، وتكون في الحيوان وفي الثمار وغيرهما، وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم منح أم أيمن عذاقاً أي نخيلاً. ثم قد تكون المنيحة عطية للرقبة بمنافعها وهي الهبة، وقد تكون عطية اللبن أو الثمرة مدة، وتكون الرقبة باقية على ملك صاحبها ويردها إليه إذا انقضى اللبن أو الثمر المأذون فيه. شرح صحيح مسلم ج ٧ ص ١٠٦.

2 صحيح مسلم ج ٥ ص ١٦٢، كتاب الجهاد والسير، باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم من الشجر والثمر حين استغنوا عنها بالفتوح.

والله لا نعطيكاهن وقد أعطانيهن. فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: يا أم أيمن اتركيه ولك كذا وكذا. وتقول كلا والذي لا إله إلا هو. فجعل يقول كذا حتى أعطاهما عشرة أمثاله أو قريباً من عشرة أمثاله¹. قال الإمام النووي: إنما فعلت هذا لأنها ظنت أنها كانت هبة مؤبدة وتملياً لأصل الرقبة، وأراد النبي صلى الله عليه وسلم استطابة قلبها في استرداد ذلك؛ فما زال يزيدها في العوض حتى رضيت، وكل هذا تبرع منه صلى الله عليه وسلم إكراماً لها، لما لها من حق الحضانة والتربية².

٣- إحسان النبي صلى الله عليه وسلم إلى ثويبة:

قال ابن حجر عن الواقدي عن غير واحد من أهل العلم: قالوا: كانت ثويبة مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلها وهو بمكة وكانت خديجة تكرمها وهي على ملك أبي لهب وسألته أن يبيعه لها فامتنع؛ فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعتقها أبو لهب³.

قال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر عن إبراهيم بن عباس عن القاسم بن عباس اللهبي قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن هاجر يسأل عن ثويبة يبعث إليها بالصلة والكسوة حتى جاءه خبرها أنها قد ماتت؛ فسأل: من بقي من قرابتها؟ قالوا: لا أحد⁴.

¹ صحيح مسلم ج ٥ ص ١٦٣، باب رد المهاجرين إلى الأنصار من الشجر والتمر حين استغنوا عنها بالفتوح.

² شرح صحيح مسلم ج ١٢ ص ١٠١ دار إحياء التراث العربي بيروت، ط ٢، ١٣٩٢هـ.

³ الإصابة في تمييز الصحابة ج ٧ ص ٥٤٨.

⁴ الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٠٩.

٤ - بركة النبي صلى الله عليه وسلم على السيدة حليلة :

إن للبركة معان عديدة؛ فهي بمعنى السعادة¹ والثبات والدوام ولزوم الشيء، وهي البركة الكثرة والزيادة واتساع الخير².

والبركة على أنواع: فهناك بركة تقع وتنزل بسبب الأشخاص، وأخرى تنزل بالأماكن، وثالثة بالأزمان، ورابعة بالأطعمة والأشربة، وخامسة بالمعاملات، وسادسة بالأعمار. وقد ظهرت بركة النبي صلى الله عليه وسلم على حليلة السعدية في كل شيء:

- ظهرت في إدرار ثدييها وغزارة حليبها، وقد كان لا يكفي ولدها. فالرضاعة الطبيعية توفر المال الكثير فيما لو كان حليياً مشترى أو صناعياً.
- ظهرت بركته في سكون الطفل ولدها؛ فقد كان كثير البكاء مزعجاً لأمه يؤرقها ويمنعها من النوم؛ فشبعه أسكنه وجعل أمه تنام وتستريح.
- ظهرت بركته في شياهم العجفاوات التي لا تدر شيئاً، وإذ بها تفيض من اللبن الكثير الذي لم يُعهد.

إن العلاقة بين البركة والاقتصاد هي علاقة غير مباشرة فهي لا تأتي بالمال مباشرة لكنها أشبه بمحرك خفي يمدّه. وإن المسلمين اليوم - كما كل يوم - مدعوون للأخذ بالوسائل المادية والمعنوية للتغلب على مشكلاتهم الاقتصادية. وكما أن عدم الاهتمام بالتعرف على الأسباب المعنوية للأزمات قد أدى إلى التخلف واستمراره فإن عدم الأخذ بالوسائل المعنوية تسبب أيضاً في عدم إنجاح أية محاولة

1 لسان العرب ج ١ ص ٣٩٥، المعجم الوسيط ص ٥٢، ومختار الصحاح ص ٤٣.

2 حاشية رد المحتار ج ١ ص ٣٥.

للهيوس كما ترتب عليه عدم التوفيق للأخذ بالوسائل المادية¹. والمشكلة الاقتصادية موجودة عند الخلق أما الخالق جل جلاله فلا مشكلة اقتصادية لديه لأنه يخلق من العدم وله خزائن السموات والأرض، قال الله تعالى: **مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنْ نَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (النحل: ٩٦). واصطلاح البركة موجود في حياتنا ومعاشنا، وإن كان لا يُعرف ولا يُدرّس في الأنظمة المالية الحديثة لكنه جوهر أصيل في روح الاقتصاد الإسلامي منذ نشأته مع الإسلام.

٥- اقتصاد الإرضاع:

هو اقتصاد لأن فيه استغلال لمورد طبيعي هو حليب الأم، وفيه تشغيل لليد العاملة، وفيه رعاية للأطفال صحياً وفكرياً لبناء جيل من الموارد البشرية صحيح الجسم والعقل يُستفاد منه في بناء الحضارة. قال تعالى: **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِقَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوهُمَا أُولَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (البقرة: ٢٣٣)، وقال

¹الدكتور جريية الحارثي في كتابه: الفقه الاقتصادي لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ص ٣٤٤.

تعالى: **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا بِإِبْنِكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتَرْضِعُهُنَّ أُخْرَى * لِيُنْفِقُوا ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا** (الطلاق: ٦).

وعلى ذلك نص فقهاء المسلمين بمالية الإرضاع وفق الآتي:

- قال مالك: لا بأس بإجارة الظئر - أي المرضعة - على رضاع الصبي حولاً أو حولين بكذا، وكذلك إن شرطت عليهم طعامها وكسوتها فهو جائز¹.
- قال الشافعي: وقال الله تبارك وتعالى: **"إِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ؛** فأجاز الإجارة على الرضاع، والرضاع يختلف لكثرة رضاع المولود وقتله وكثرة اللبن وقتله ولكن لما لم يوجد فيها إلا هذه، جازت الإجارة عليه².
- قال عبد الرحمن بن قدامة: أجمع أهل العلم على استئجار الظئر، وهي المرضعة لقول الله تعالى: **فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**، واسترضع النبي صلى الله عليه وسلم لولده إبراهيم³.

1 التاج والإكليل لمختصر خليل ج ٧ ص ٥٢٧ محمد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدري الغرناطي، أبو عبد الله المواق المالكي المتوفى: ٨٩٧ هـ دار الكتب العلمية طبعة ١، ١٤١٦ هـ ١٩٩٤.

2 الأم ج ٤ ص ٢٦ دار الفكر والطبعة الثانية: ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ بيروت.

3 الشرح الكبير على متن المقنع ج ٦ ص ١٣ تأليف شمس الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن بن قدامة المقدسي المتوفى سنة ٦٨٢ دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع.

• قال السرخسي: بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يتعاملونه؛ فأقرهم عليه، وكانوا عليه في الجاهلية، وقد استؤجرت حليلة لإرضاع رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما أن الناس في حاجة للإرضاع؛ لأن الصغار لا يتربون إلا بلبن الأدمية، والأم قد تعجز عن الإرضاع لمرض، أو موت، أو تأبى الإرضاع فلا طريق إلى تحصيل المقصود سوى استئجار الظئر¹. لذلك جُوزَ الإرضاع للحاجة، وزعم بعض المتأخرين رحمهم الله أن المعقود عليه المنفعة، وهو القيام بخدمة الصبي وما يحتاج إليه، وأما اللبن فتَبَعَ فيه؛ لأن اللبن عين والعين لا تُستحق بعقد الإجارة كلبن الأنعام، والأصح أن العقد يرد على اللبن؛ لأنه هو المقصود وما سوى ذلك من القيام بمصالحه تبع والمعقود عليه هو منفعة الثدي فمنفعة كل عضو على حسب ما يليق به².

ولو أردنا أن نعرف القيمة الاقتصادية للمرضعة سواء أكانت الأم أم غيرها؛ فيكفي أن نعرف بأن مجموعة كبيرة من المصانع تقوم على تجهيز الحليب الصناعي من البقر أو غيره لأجل إعداده للأطفال الصغار ومع كل ذلك فلا يصل إلى الجودة الرائعة لحليب الأمهات. ولو أردنا أن نعرف القيمة المالية لحليب الأمهات فيكفي أن نسأل من لديه أطفالاً صغاراً الذين يعتمدون في غذائهم على المنتجات الصناعية، عن مقدار تكاليف الرعاية الطبية التي يسببها خلل تعقيم هذه المنتجات.

1 الظئر: المرضعة.

2 المبسوط ج ١٥ ص ١١٨.

كفالة الجد والعم

توفيت أم النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة¹، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تزيهه إياهم؛ فماتت وهي راجعة به إلى مكة، ودفنت بالأبواء.

وبعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب؛ فعاش في كفالته، وكان يؤثره على أبنائه، أي أعمام النبي صلى الله عليه وسلم، ثم توفي عبد المطلب والنبي صلى الله عليه وسلم في الثامنة من عمره؛ فأوصى جده به عمه أبا طالب فكفله عمه وحنَّ عليه ورعاه.

الدروس والعبر:

صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تيمم؛ لكنه لم يحتج في طفولته إلى من يُمنَّ عليه بأي نفقة مالية؛ فجده الذي كان يُعرف بالغنى هو من كفله، وهو من أمر بتحصيل الأموال المنهوبة من قبل جيش أبرهة، وهو من أمر الفداء لولده عبد الله بمئة ناقة. وقد قام هذا الجدُّ بكفالاته ورعايته مالياً واجتماعياً وعاطفياً بل وكان يزيد في إكرامه أكثر من أبنائه.

1 السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٣٥، كذا عيون الأثر لابن سيّد الناس ج ١ ص ٥٥، كذا سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٨.

الاستسقاء

أصاب قريشاً قحط حينما كان سيّدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم صغيراً، وكان ذلك وفق الروايات لمرتين: الأولى كانت عندما طلبت قريش الاستسقاء من عبد المطلب، والثانية عندما طلبت قريش الاستسقاء من أبي طالب. * وجدت رواية في تاريخ ابن عساكر منسوبة إلى جد النبي صلى الله عليه وسلم ذكرها ابن حجر العسقلاني¹ والطبراني² وابن الأثير³ عن معرمة بن نوفل عن أمه رقيقة⁴ قالت: تتابعت على قريش سنون أقحلت الضرع، وأدقت العظم؛ فبينما أنا راقدة و- اللهم - أو مهومة إذا أنا بهاتفٍ يصرخ بصوت صَحْلٍ بحوحة، يقول: يا معشر قريش، إن هذا النبيّ مبعوث، قد أظلتكم أيامه، وهذا إبانُ نجومه⁵؛ فحيي هلاً بالحيا - المطر - والخصب، ألا فانظروا رجلاً منكم وسيطاً - أي أفضل القوم، - عظاماً جساماً، أبيض بضاً، أوطف الأهداب⁶، سهل الخدين، أشمّ العرنين، له فخر يكظّم عليه، وسنة تهدي إليه؛ فليخلص هو وولده، وليهبط إليه من كل بطن رجل فليشئوا من الماء، وليمسوا من الطيب، وليستلموا الركن، ثم ليرقوا أبا قبيس، ثم ليدعوا الرجل، وليؤمن القوم فغثتم ما شئتم. فأصبحت علم الله

1 الإصابة بمعرفة الصحابة ج ٦ ص ٥٠.

2 الطبراني ج ٢٤ ص ٢٩٥. المعجم الكبير سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني مكتبة العلوم والحكم - الموصل الطبعة الثانية، ١٤٠٤ - ١٩٨٣

3 أسد الغابة لابن الأثير ج ٧ ص ١١٢.

4 رقيقة بنت صبيح بن هاشم بن عبد مناف. أوردها الطبراني وجعفر المستقفي في الصحابييات، وقال أبو نعيم: لا أراها أدركت البعثة والدعوة. عن أسد الغابة لابن الأثير ج ٧ ص ١١٢، دار الكتب العلمية بيروت ط ١، ١٤١٥هـ.

5 وقت ظهوره.

6 أي طولها.

مذعورة، اقشعرّ جلدي، وذلك عقلي، واقتصت رؤيائي، ونمت في شعاب مَكَّة؛
 فو الحرم والحرم ما بقي بها ابطحيّ إلا قال: هذا شيبة الحمد. وتناهت إليه رجالات
 قريش، وهبط إليه من كل بطن رجل؛ فشنّوا ومسّوا واستلموا، ثم ارتقوا أبا قَيْسَ،
 واصطفوا حوله ما يبلغ سعيهم مهله، حتى إذا استنوا بذروة الجبل، قام عَبْدُ الْمُطَّلِبِ
 ومعه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غلام قد أَيْفَع¹، أو كَرِب²؛ فرفع يده؛ فقال:
 اللهم سادّ الخِلَّةَ، وكاشف الكربة، أنت معلّم غير معلّم، ومسؤول غير مُبْخَل،
 وهذه عَبْدُكَ وإماؤك بعذرَاتِ حرمك، يشكون إليك سَنَتَهُم التي أذهبت الخُفَّ
 والظِّلْفَ - عموم الأنعام -، اللهم فامطر علينا مُغَدِّقًا مرتعًا.

فورب الكعبة ما راموا - تحركوا - حتى تفجرت السماء بما فيها، واكتظ الوادي
 بشجيجة - صوت صبه الغزير؛ فسمعتُ شَيْخَانَ قريش وجِلَّتْهَا: عَبْدُ اللهِ بن
 جدعان، وحرب بن أمية، وهشام بن المغيرة يقولون لعَبْدِ الْمُطَّلِبِ: هنيئًا لك أبا
 البطحاء، أي: عاش بك أهل البطحاء. وفي ذلك تقول رقيقة:

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا وقد فقدنا الحيا وأجلوذ³ المطر
 فجاء بالماء جوني له سبل⁴ سحّا فعاشت به الأنعام والشجر

* قالت قريش⁵: يا أبا طالب أقحط الوادي وأجدب العباد فهلم فاستسق فقال:
 رويدكم زوال الشمس وهبوب الريح فلما زاغت الشمس أو كادت خرج أبو طالب

1 قال الأصمعي يقال أَيْفَعُ الغلام إيفاعا إذا ارتفع ولم يبلغ.

2 وقوله كَرِبَ أي قارب الإدراك

3 الأصل عند ابن سعد وأجلوذ

4 أي مطر جود هاطل.

5 الخصائص الكبرى الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي ص ١٤٥ دار الكتب
 العلمية - بيروت - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

ومعه غلام كأنه شمس دجى تجلت عنه سحابة قتماء وحوله أغيلمة فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ بأضبعة الغلام - الضباع: رفع اليدين في الدعاء - وبصبت الأغيلمة حوله وما في السماء قرعة فأقبل السحاب من ها هنا وها هنا وأغدق واغدودق وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي ففي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل

والتوفيق بين الروائتين هو ربما تكرار الأمر وأبيات وقصيدة أبي طالب ربما كانت في الثانية .

الدروس والعبر:

١ - إدراك قريش أهمية الاستسقاء:

والذي كان نابعاً مما كانوا يعرفونه من بقية نهج الأنبياء عليهم السلام؛ فقد جاء في رواية استسقاء أبي طالب: وقد ارتفعت لهم ضوضاء يستسقون فقائل منهم يقول: اعمدوا للات والعزى، وقائل منهم يقول: اعمدوا لمناة الثالثة الأخرى. فقال شيخ وسيم قسيم حسن الوجه: حبذا الرأي أنى تؤفكون وفيكم باقية إبراهيم وسلالة إسماعيل! قالوا له: كأنك عنيت أبا طالب قال: إنها.

٢ - كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بركة خاصة منذ طفولته:

فمن بركته صلى الله عليه وسلم العامة ما مر من شأن الاستسقاء، ومن بركته الخاصة ما مر من قصة حليلة من قبل وبركته على عمه أبي طالب. وأخرج ابن

عساكر عن ابن عباس بسنده كان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا وإذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا فكان إذا أراد أن يغذيهم قال كما أنتم حتى يحضر ابني فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فيأكل معهم؛ فكانوا يفضّلون من طعامهم وإن لم يكن معهم لم يشبعوا فيقول أبو طالب إنك المبارك¹.

٣ - تكرر الاستسقاء من قبل النبي صلى الله عليه وسلم أثناء بعثته :

أخرج البخاري عن أنس بن مالك قال : أصابت الناس سنة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فبينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب في يوم الجمعة قام أعرابي فقال : يا رسول هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا . فرفع يديه وما نرى في السماء قزعة فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلى الله عليه وسلم فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى . وقام ذلك الأعرابي أو قال غيره فقال يا رسول الله تهدم البناء وغرق المال فادع الله لنا . فرفع يديه فقال اللهم حوالينا ولا علينا ؛ فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت وصارت المدينة مثل الجوبة وسال الوادي قناة شهراً ولم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجود .

¹ تاريخ دمشق ج ٣ ص ٨٦.

٤ - أما الاستسقاء بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فحدث في أزمة عام

الرمادة¹:

حيث بكى عمر رضي الله عنه وجثا على ركبتيه خاشعاً داعياً الله إلى أن مطر الناس².

أخرج ابن خزيمة³ وغيره عن أنس بن مالك قال: كان عمر بن الخطاب إذا قحطوا خرج يستسقي بالعباس فيقول: اللهم إنا كنا إذا قحطنا استسقيناً بنبيك فتسقيننا وإنا نستسقيك اليوم بعم نبيك - أو نبينا - فاسقنا فيسقون.

٥ - إن العلاقة بين الاقتصاد والاستسقاء علاقة ملموسة:

وذلك لأهمية سقيا النبات والناس والحيوان على حد سواء، وبهم تقوم الصناعة والتجارة. والاستسقاء فيه دلالة على العقيدة الإيمانية في الله وتقواه، وفيه لجوء إلى الخالق، وهي ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة؛ فالإيمان بالله وتقواه، يؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض، وعداً من الله، قال تعالى: **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى**

أَمْنُوا وَأَتَّقُوا الْفِتْنَةَ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ

بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (الأعراف: ٩٦).

1 كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٩، برقم ٣٧٢٩٨. كذا تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج ٢٦ ص ٣٢٨، ط ١، ١٤١٩هـ دار الفكر بيروت.

2 المستدرک على الصحيحين ج ٣ ص ٣٧٧ للحاكم النيسابوري دار الكتب العلمة بيروت ١٤١١هـ؛ فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج ٢ ص ٤٩٧ دار المعرفة، تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١١٤ دار احياء التراث العربي بيروت.

3 صحيح ابن خزيمة ج ٢ ص ٣٣٧. صحيح ابن خزيمة محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمى النيسابوري المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٠ - ١٩٧٠.

العمل بالرعي والتجارة والرحلة التجارية الأولى إلى الشام

تعد الجزيرة العربية من مواطن الرعي في الماضي والحاضر، ونظراً لهذه البيعة المهيبة لرعاية الثروة الاقتصادية الحيوانية؛ فإن العرب كانوا على دراية وعناية بالرعي وقد مرّ في حادثة الفيل كيف قال عبد المطلب لأبرهة: أنا رب هذه الإبل، ولهذا البيت رب سيمنعه.

ومن ضمن أصناف العمل في رعاية الأنعام كان رعي الأغنام، وقد اشتغل النبي صلى الله عليه وسلم في أول شبابه بهذا الأمر، روى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم.

فقال أصحابه وأنت؟ فقال: نعم كنت أرهاها على قراريط¹ لأهل مكة، وروى الطبري عن علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك؛ ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله عز وجل برسالته؛ فإني قد قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب؛ فقال أفعل:

فخرجت أريد ذلك حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالدفوف والمزامير؛ فقلت ما هذا: قالوا فلان بن فلان تزوج بفلانة بنت فلان فجلست

¹ القيراط: جزء من أجزاء الدينار وهو نصف عُشره في أكثر البلاد. وأهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين. والياء فيه بدل من الراء فلن أصله: قرّاط. عن النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ج ٤ ص ٦٤. المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

أنظر إليهم؛ فضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس، قال :
 فجئت صاحبي؛ فقال : ما فعلت، قلت : ما صنعت شيئاً ثم أخبرته الخبر، قال :
 ثم، قلت له : ليلة أخرى مثل ذلك؛ فقال : أفعل؛ فخرجت فسمعت حين جئت
 مكة مثل ما سمعت حين دخلت مكة تلك الليلة؛ فجلست أنظر؛ فضرب الله
 على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس؛ فرجعت إلى صاحبي فأخبرته
 الخبر؛ ثم ما هممت بعدها بسوء حتى أكرمني الله عز وجل برسالته¹.

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة سنة ارتحل به أبو طالب تاجراً
 إلى الشام، حتى وصل إلى بُصْرَى وكان في هذا البلد راهب عرف بَبْحِيرَى؛ فلما
 نزل الراكب خرج إليهم، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك؛ فجعل يتخللهم حتى جاء
 فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال : هذا سيد العالمين، هذا رسول رب
 العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أبو طالب وأشياخ قريش : وما علمك
 بذلك؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجداً،
 ولا يسجدان إلا لنبِي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل
 التفاحة، وأنا نجدّه في كتبنا، ثم أكرمهم بالضيافة، وسأل أبا طالب أن يرده، ولا
 يقدم به إلى الشام؛ خوفاً عليه من الروم واليهود؛ فبعثه عمه مع بعض غلمانهِ إلى
 مكة².

1 تاريخ الطبري ج ١ ص ٥٢٠ محمد بن جرير الطبري أبو جعفر دار الكتب العلمية - بيروت
 الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ.
 2 الرحيق المختوم ص ٥٩.

الدروس والعبر :

١ - فضل العمل :

ذكر الحديث أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا قد عملوا برعي الغنم، وهذا إشارة واضحة إلى مكانة وأهمية العمل؛ فعن المقدم رضي الله عنه: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده¹.

لقد حث الإسلام على العمل وأمر به، وقرن ذكره بالجهاد إشعاراً بأهميته في قوله سبحانه: **وَآخِرُونَ يَصْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي**

سَبِيلِ اللَّهِ (المزمل: ٢٠)؛ بل اعتبر العمل جهاداً؛ فقد روي أن بعض الصحابة رأوا شاباً قوياً يُسرِع إلى عمله؛ فقالوا: لو كان هذا في سبيل الله؛ فرد عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: لا تقولوا هذا؛ فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياءً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان.

٢ - فوائد رعي الغنم :

ذكر ابن حجر في الفتح عن فوائد رعي الغنم أنه:

- يحقق لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم.

¹ أخرجه البخاري كتاب البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده ج ٢ ص ٧٣٠.

- في مخالطتها ما يُحقق لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقتها في المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفَع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقتها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبوا كسرهما ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدرج على ذلك برعي الغنم.
- خصت الغنم لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقتها أكثر من تفرق الإبل والبقر، ورغم أكثرية تفرقتها فهي أسرع انقياداً من غيرها، كما أن الإبل والبقر يمكن ضبطها بالربط.
- في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لذلك - وهو أكرم الخلق على الله - فيه تواضع لربه وتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

٣ - مساعدة الطفل لأبويه أو من يقوم برعايته ضمن طاقته واستطاعته :

يؤكد هذا الأمر ما جاء في سيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واطلاعه صلى الله عليه وسلم على ذلك، مما يوضح حسه الرفيع منذ طفولته :

فقد أعان عمه أبي طالب إحساساً بحالة عمه وقره . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه العباس - وكان من أيسر بني هاشم - يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة؛ فانطلق بنا إليه؛ فلنخفف عنه من

عِيَاله آخذ من بنيهِ رجلاً، وتأخذ أنت رجلاً؛ فنكلهما عنه؛ فقال العباس: نعم. فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه فقال لهما أبو طالب إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما. قال ابن هشام: ويقال: عقيلاً وطالباً. فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً؛ فضمه إليه وأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه فلم يزل عليّ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبياً؛ فاتبعه عليّ رضي الله عنه وآمن به وصدقه ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.

٤ - التجارة:

لقد كانت قريش تهتم بالتجارة اهتماماً كبيراً، وكان والد النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله تاجراً روى ابن كثير¹: خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام إلى غزة في غير من غيران قريش يحملونه تجارات؛ ففرغوا من تجارتهم، ثم انصرفوا فمروا بالمدينة، وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض؛ فقال أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار؛ فأقام عندهم مريضاً شهراً ومضى أصحابه فقدموا مكة؛ فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله؛ فقالوا: خلفناه عند أخواله بني عدي بن النجار وهو مريض؛ فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث؛ فوجده قد توفي ودفن في دار النابغة فرجع إلى أبيه فأخبره.

1 السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٠٥.

وكان عم النبي صلى الله عليه وسلم أبا طالب الذي تكفل رعاية ابن أخيه بعد وفاة أمه وجدته وسلك بالنبي صلى الله عليه وسلم درب التجارة معرفة وعلماً وتطبيقاً لما كانت عليه قريش من عمل التجارة فخرج مع عمه إلى الشام رغم حداثة سنّه . قال ابن إسحاق : ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام؛ فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير صبّاً - أي تعلق - به رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما يزعمون - فرقّ له أبو طالب وقال والله لأخرجن به معي ، ولا يفارقني ، ولا أفارقه أبداً ، أو كما قال فخرج به¹ .

الشريك التجاري للنبي صلى الله عليه وسلم

كان للنبي صلى الله عليه وسلم شريك في تجارته وهو السائب بن أبي السائب الخزومي ، وكان ذلك قبل المبعث بمكة وهو من المؤلفة قلوبهم وممن حسن إسلامه منهم ، قال ابن شهاب : السائب بن أبي السائب هو الذي جاء فيه الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم الشريك كان لا يشاري ولا يماري² . وفي رواية عن مجاهد عن السائب بن أبي السائب : أنه كان شريك النبي صلى الله عليه

1 سيرة ابن هشام. ج ١ ص ١٨٢ .

2 أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري ج ٢ ص ٣٩٣ . دار الكتب العلمية بيروت ط ١ - ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .

وسلم في أول الإسلام في التجارة فلما كان يوم الفتح قال: مرحباً بأخي وشريكي
لا يداري ولا يماري¹.

ولقد كانت التجارة مورداً مادياً على مستوى الأفراد والأمم، يقول تعالى: **يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ
مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** (النساء: ٢٩).

الدروس والعبر:

١- كانت قريش تعمل بالتجارة حتى أن ابن هشام وغيره قال:
إنما سميت قريش قريشاً من التقرش والتقرش التجارة². وهذا ما حكاه القرآن عنهم
في قوله تعالى: **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا
الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** (قريش: ١ - ٤).

ولقد بلغت الحجم المالي لتجارة قريش مع الشام قدر ربع مليون دينار ٢٥٠.٠٠٠
ذهب سنوياً، سوى ما كان لأهل الطائف وغيرها، ومعلوم أن مدار هذه التجارة كان
على استقرار الأمن في تلك الطريق³.

٢- في خروج النبي صلى الله عليه وسلم مع عمه إلى الشام رغم حداثة سنّه:

1 المستدرک علی الصحیحین ج ٢ ص ٦٩ وعلق عليه الذهبي في التلخيص أنه صحيح، محمد بن
عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ -
١٩٩٠.

2 سيرة ابن هشام ج ١ ص ٩٣.

3 الرحيق المختوم صفى الرحمن المباركفوري ص ١٥٨.

إشارة تعليمية عند العرب وهي تلقين الشباب لما يحتاجونه من أمور معاشهم كالحرفة أو التجارة في سن مبكرة.

٣- ذكر ابن الأثير في أسد الغابة اختلافاً في إسلام السائب بن أبي السائب :

لكن الراجح الواضح أنه كان قد أسلم¹، وقد جاء ثناء الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاث صفات عند الجمع بين الروايات :

• الأولى : لا يشاري : من المشاركة وهي الملاجة، وقد شرى واستشرى إذا لج في الأمر. وقيل لا يشاري من الشر: أي لا يشارره². بمعنى أنه كان لا يلح عليه في أمر.

• الثانية: لا يداري: أي لا يشاغب ولا يخالف³.

• الثالثة: لا يماري: من المماراة، والمماراة الجدال.

حلف الفضول

كان حلف الفضول بعد رجوع قريش من حرب الفجار، أما سببه فرجل من زُبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، ومنعه حقه فاستعدى عليه الزبيدي أشرف قريش؛ فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم؛ فوقف عند الكعبة واستغاث بآل فھر وأهل المروءة ونادى بأعلى صوته:

1 أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري ج ٢ ص ٣٩٣.
2 النهاية في غريب الحديث والأثر ج ٢ ص ١١٤٦، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
3 النهاية في غريب الحديث والأثر ج ٢ ص ٢٤٤.

فقام الزبير بن عبد المطلب فقال: ما لهذا مترك. فاجتمعت بنو هاشم، وزهرة، وبنو تميم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً، وتحالفوا في شهر حرام، وهو ذو القعدة؛ فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونَ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يُرد إليه حقه "ما بلّ بحر صوفه"، و"ما بقي جبلاً ثبير وحرأ مكانهما". ثم مشوا إلى العاص بن وائل؛ فانزعوا منه سلعة الزبيدي؛ فدفعوها إليه. وسمت قريش هذا الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر.

وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحلف الذي هدموا به صرح الظلم، ورفعوا به منار الحق، وهو يعتبر من مفاخر العرب وعرفانهم لحقوق الإنسان. وقد قال صلى الله عليه وسلم: شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام؛ فما أحب أن لي حمر النعم، وأني أنكته.

وقال صلى الله عليه وسلم: لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت.

الدروس والعبر:

١ - السبب المباشر لتشكيل حلف الفضول هو الظلم المالي:

ما حدث في تجارة ذلك الرجل الزبيدي الذي اشتكى لأشراف قريش فلم يعينوه لمكانة العاص بن وائل، وهذا على نهج ما جاء في ظلال التشريع، قال صلى الله عليه وسلم: أما بعد فإنما هلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف

تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها¹.

٢- جواز التحالف والتعاهد على فعل الخير:

هو من قبيل التعاون المأمور به في القرآن الكريم قال تعالى: **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ**

وَالْتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ (المائدة: ٢)، ويجوز للمسلمين أن

يتعاقدوا في مثل هذا الحال لأنه تأكيد لشيء مطلوب شرعاً، على ألا يكون ذلك

شبيهاً بمسجد الضرار، وفي هذا الحديث دليل. والدليل فيه قوله صلى الله عليه

وسلم: ما أحب أن لي به حمر النعم لما يحقق من عدل، ويمنع من ظلم، أو

النكت به مقابل حمر النعم.

وقوله صلى الله عليه وسلم: ولو دعيت به في الإسلام لأجبت طالما أن يردع

الظالم عن ظلمه، وقد بين صلى الله عليه وسلم استعداده للإجابة بعد الإسلام لمن

ناداه بهذا الحلف.

بناء الكعبة

تعد الكعبة المشرفة أول صرح عمراني للعبادة وذلك بدلالة صريح القرآن وصحيح

السنة النبوية:

¹ السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٦٠١.

• قال الله تعالى: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ***
فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنْ
اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (آل عمران: ٩٦ -
 ٩٧).

• ثبت في الصحيحين عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟
 قال: "المسجد الحرام"، قلت: ثم أي؟ قال: "المسجد الأقصى"، قلت: كم
 بينهما؟ قال: أربعون سنة".

ولخمس وثلاثين سنة من مولده صلى الله عليه وسلم قامت قريش ببناء الكعبة؛
 وذلك لأن الكعبة كانت رَضْمًا¹ فوق القامة، ارتفاعها تسعة أذرع من عهد
 إسماعيل عليه السلام، ولم يكن لها سقف؛ فسرق نفر من اللصوص كنزها الذي
 كان في جوفها، وكانت مع ذلك قد تعرضت وباعتبارها أثرًا قديمًا وللعوادي التي
 أدهت بنيانها، وصدعت جدرانها، وقبل بعثته صلى الله عليه وسلم بخمس سنين
 جرف مكة سيل عرم انحدر إلى البيت الحرام؛ فأوشكت الكعبة منه على الانهيار؛
 فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصاً على مكانتها، واتفقوا على ألا يدخلوا في
 بنائها إلا طيباً؛ فلا يدخلون فيها مهر بغي ولا بيع رباً ولا مظلمة أحد من الناس.

روى ابن حجر في الفتح قال: ذكر ابن إسحاق² في "السيرة" عن عبد الله بن أبي
 نجيح أنه أخبر عن عبد الله بن صفوان بن أمية "أن أبا وهب بن عابد بن عمران

1 الرضيم والرضام: صخور عظام يرضم بعضها فوق بعض في الأبنية، الواحدة رضمة.
 2 مرت ترجمته.

مخزوم وهو جد جعدة بن هبيرة بن أبي وهب المخزومي قال لقريش: لا تدخلوا فيه من كسبكم إلا الطيب، ولا تدخلوا فيه مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس".

وروى سفيان بن عيينة في جامعه "عن عبيد الله بن أبي يزيد عن أبيه أنه شهد عمر بن الخطاب أرسل إلى شيخ من بني زهرة أدرك ذلك فسأله عمر عن بناء الكعبة؛ فقال: إن قريشاً تقربت لبناء الكعبة - أي بالنفقة الطيبة - فعجزت؛ فتركوا بعض البيت في الحجر؛ فقال عمر صدقت."

وكانوا يهابون هدمها؛ فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومي؛ فأخذ المعول وقال: اللهم لا نريد إلا الخير، ثم هدم ناحية الركنين، ولما لم يصبه شيء تبعه الناس في الهدم في اليوم الثاني، ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم، ثم أرادوا الأخذ في البناء فجزأوا الكعبة، وخصصوا لكل قبيلة جزءاً منها. فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة، وأخذوا يبنونها، وتولى البناء بناء رومي اسمه: باقوم. ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمساً، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد؛ فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداء فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل

المتنازعين أن يمسكوا جميعاً بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه في مكانه، وهذا حل حصيف رضي به القوم. وقصرت بقريش النفقة الطيبة فأخرجوا من الجهة الشمالية نحواً من ستة أذرع، وهي التي تسمى بالحجر والحطيم، ورفعوا بابها من الأرض؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعاً سقفوه على ستة أعمدة¹.

الدروس والعبر:

- ١- إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً: فهمها العرب حتى في الجاهلية: **أَفَمَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شِقَاجِرٍ فَهَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (التوبة: ١٠٩). وإذا كان أهل الجاهلية على ذاك النحو فالأولى بكل مسلم أن يحرص على طيب مطعمه ومشربه وطيب العطاء في سبيل الله.
- ٢- إعادة الإعمار بعد النكبات: النكبات التي تصيب الحضارات، والنكبة في اللغة ما يُصيب الإنسان من الحوادث²، والمقصود في الاصطلاح ما ينزل بالدول من حصار اقتصادي وحوادث ومصائب كبيرة كآثار الحروب والمجاعات والزلازل والفيضانات، والقحط، والنقص الحاد في الأمور الطبية والتعليمية وغيرها.

1 الرحيق المختوم ص ٤٧.

2 النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ج ٥ ص ١١٢.

- ٣- تحكيم أهل الخبرة والأمانة: كثيراً ما تحدث نزاعات تجارية بين الناس أو الشركاء؛ فلا بد من الخضوع لشرع الله تعالى والرضى بذلك مع المشورة العلمية الفنية لأهل الاختصاص والأمانة في المهن
- ٤- شناعة وقبح الربا حتى في الجاهلية حتى أنهم رفضوا إدخال مال من ربا أو ظلم أو قبح في بناء الكعبة المشرفة.
- ٥- سياسة التقشف عند الحاجة، هذا الاختصار عائد للقلة المالية وقد كان هذا منهج المسلمين عند حدوث الأزمات المالية كما في أزمة الرمادة.

خديجة رضي الله عنها ودورها الاقتصادي

كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها سيدة أعمال من سيدات مكة، نسيها خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشيّ الأسديّة أم المؤمنين، وأول خلق الله إسلاماً؛ بإجماع المسلمين كما يقول ابن الأثير¹. عُرف عنها العفة والاستقامة وغنى ذات اليد والتجارة الخارجية، كانت لها قوافل تحمل بضائعها ولها من يعمل لها فتحسن إليهم ويحسنون إليها، وكل ذلك في عصر الجاهلية. ولما تزوجت رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبخسها حقها ولم تبخسه حقه؛ فكانت خير زوج لخير البشر. ساندت زوجها بمالها وبنفسها وما بخلت؛ فأعزت الإسلام بمالها وهي امرأة، وكانت أول مثال يقدمه هذا الدين الحنيف من الناس، رغم ما يحاوله البعض من تشويهه لصورة المرأة في الإسلام؛ فإن هذه المرأة العظيمة

¹ عن أسد الغابة النساء ص ٨٥.

كانت أول من أسلم من الرجال والنساء وأول من بذل المال والنفس في سبيل نصرته هذا الدين ونصرة رسوله الله صلى الله عليه وسلم وأولى أمهات المؤمنين .

التجارة بمال خديجة رضي الله عنها

قال ابن سيد الناس¹ في عيون الأثر: عن نفيسة بنت منية قالت: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة وليس له بمكة اسم إلا (الأمين) لما فيه من خصال الخير.

قال له أبو طالب: يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكرة وليس لنا مادة ولا تجارة وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلى الشام وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيرانها فيتجرون لها في مالها ويصييون منافع فلو جئتها فوضعت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك؛ وإن كنت لأكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهود، ولكن لا نجد من ذلك بدأً.

كانت خديجة بنت خويلد تاجرة ذات شرف ومال كثير، تبعث بتجاراتها إلى الشام فتكون غيرها كعامه غير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع إليهم المال مضاربة؛ فقريش كانوا تجاراً؛ بل من لم يكن منهم تاجراً فليس عندهم بشيء. قال

1 ابن سيد الناس اليعمري ولد بالقاهرة سنة ٦٧١ محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمري الربيعي، أبو الفتح؛ فتح الدين: مؤرخ، عالم بالأدب. من حفاظ الحديث، له شعر رقيق، أصله من إشبيلية، مولده وكانت وفاته سنة ٧٣٤ هـ في القاهرة. من تصانيفه عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير وبشرى اللبيب في ذكرى الحبيب قصيدة، وتحصيل الإصابة في تفصيل الصحابة عن الأعلام للزركلي ج ٧ ص ٣٤، دار العلم للملايين.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: **فلعلها ترسل إليّ في ذلك**. فقال أبو طالب: إني أخاف أن تولي غيرك فتطلب أمراً مديراً ففترقا.

بلغ خديجة ما كان من محاوره عمه له، وقبل ذلك بلغها صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه؛ فقالت: ما علمت أنه يريد هذا، ثم أرسلت إليه؛ فقالت: إنه دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك.

ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقي أبا طالب فذكر له ذلك؛ فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك؛ فخرج مع غلامها ميسرة حتى قدم الشام وجعل عمومته يوصون به أهل العير حتى قدم الشام فنزلا في سوق بصرى في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يقال له نسطوراً؛ فاطلع الراهب إلى ميسرة، وكان يعرفه فقال: يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم.

فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي، ثم قال له: في عينيه حمرة. قال ميسرة: نعم لا تفارقه، قال الراهب: هو هو وهو آخر الأنبياء ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج؛ فوعى ذلك ميسرة ثم حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم سوق بصرى؛ فباع سلعته التي خرج بها واشترى؛ فكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة؛ فقال: الرجل أحلف باللالات والعزى؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما حلفت بهما قط؛ فقال الرجل: القول قولك.

ثم قال لميسرة وقد خلا به: يا ميسرة هذا نبي والذي نفسي بيده، وإنه لهو تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم؛ فوعى ذلك ميسرة ثم انصرف أهل العير جميعاً، وكان ميسرة يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانت الهاجرة واشتد الحرّ، يرى ملكين يظلاله من الشمس وهو على بعيره، قال: وكان الله عز وجل قد ألقى على رسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة من ميسرة؛ فكان كأنه عبد لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما رجعوا وكانوا بمرّ الظهران، تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل مكة في ساعة الظهرية وخديجة في علية لها معها نساء فيهن نفيسة بنت منية؛ فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل وهو راكب على بعيره وملكان يظلان عليه؛ فأرته نساءها فعجبين لذلك، ودخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخبّرها بما ربحوا فسُرت بذلك؛ فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت؛ فقال لها ميسرة قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام، وأخبرها بقول الراهب نسطورا، وقول الآخر الذي خالفه في البيع، قالوا: وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجارتها فربحت ضعف ما كانت تربح وأضعفت له ما سمّت له¹.

الدروس والعبر:

١ - استعانة عم النبي صلى الله عليه وسلم بابن أخيه - رسول الله صلى الله عليه عليه: استعان به على تكاليف العيش في ذاك العمل وقبوله صلى الله عليه وسلم له

1 السيرة النبوية المسمى عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير ج ١ ص ٧٠. تأليف محمد بن عبد الله بن يحيى ابن سيد الناس ٦٧١ هـ - ٧٣٤ هـ مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر جميع الحقوق محفوظة للطباعة والنشر ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م بيروت - لبنان.

إشارة للناس لئلا يكونوا عالة على أهاليهم خاصة إذا شبّوا وصار بإمكانهم القيام بالعمل .

٢- هناك مكانة شريفة لبعض النساء في الجاهلية : سواء لما تتمعن به من أدب وشعر، أو لمال وحكمة، وهذه خديجة قد عرفت بمكانة شريفة بين قومها؛ فكانت ذات مال وتجارة معروفة، وكانت تدير تجاراتها بنفسها وتبعث فيها من يمثلها كوكيل عنها وقد كان ميسرة وكيلاً حصيفاً ينقل الأخبار المهمة لولية أمره ومديرة عمله . كما شاركت خديجة رجال قومها ممن عُرفوا بالأمانة والقدرة على ذلك، وفي هذا صورة من الجوانب المشرقة عن نساء العرب قبل الإسلام .

٣- لقب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمين لأمانته ولما اجتمع فيه من خصال الخير : صفتا الأمانة والصدق هما صفتا كل تاجر خلوق ناجح . وهاتان الصفتان رغبنا خديجة رضي الله عنها في تفضيله بإعطائها مالها ليتاجر به بأجر مضاعف عن غيره؛ فبارك الله لهما في تجارتهما، وفتح الله لهما من أبواب الخير ما يليق بكرم الكريم . وهذا فيه إرشاد إلى أن يتخير الإنسان شريك تجارته على أساس الصدق والأمانة .

٤- إن التجارة مورد من موارد الرزق التي سخرها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة : تدرّب النبي صلى الله عليه وسلم على فنونها، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم مكانة التاجر الصدوق الأمين، وتعد التجارة عمل مهم لا توقع صاحبها تحت إرادة الآخرين واستعبادهم وقهرهم وإذلالهم؛ فهو ليس في حاجة إليهم، بل هم في حاجة إليه وبحاجة إلى خبرته وأمانته وعفته . عن أبي سعيد عن

النبي صلى الله عليه وسلم قال: التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء¹.

٥- إن طريقة العمل التي كانت معروفة بين الناس هي شركة المضاربة: وقد أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد البعثة، لما فيها من بركة وربط للأجر بالإنتاج؛ مما يحفز المضارب على الحرص وبذل المستطاع ليزداد كسبه. عن أبي هريرة مرفوعاً قال: إن الله تعالى يقول أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه فإذا خانته خرجت من بينهما².

٦- استبطاء النبي صلى الله عليه وسلم في الذهاب إلى خديجة: وذلك وفق ما ذكر له عمه؛ دليل على عزة النفس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أن في طلب خديجة له دليل على أن صاحب العمل يتخير الأفضل لعمله.

٧- الحلف على البيع والشراء: رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلف بالأصنام وهو قبل البعثة؛ وذلك لطهارة فطرته، وبعد البعثة حث الناس على ألا يحلفوا عند بيعهم وشرائهم ليكون أداء التجارة قائم على المهارة والمساومة وبذل العمل الطيب. روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الحلف منفقة للسلعة ممحقة

1 سنن الترمذي كتاب البيوع، باب ما جاء في التجار وتسمية النبي صلى الله عليه وسلم إياهم ج ٣ ص ٥١٥.

2 أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٢٧٦ كتاب البيوع باب في الشركة سنن أبي داود سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي دار الفكر، وأخرجه الحاكم بإسناده وقال صحيح على شرط الشيخين.

للبركة¹، وعن أبي قتادة الأنصاري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إياكم وكثرة الحلف في البيع فإنه ينفق ثم يمحق²، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله، وكانت قريش تحلف بآبائها فقال: لا تحلفوا بآبائكم³.

٨- عدم تأخر الشريك والمضارب عن أداء حق شريكه حتى لو تحمل المضارب عناء ذلك: أسوة بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بتسليم مال خديجة رضي الله عنها فور عودته وانتهاء عمله دون تأخير أو مماطلة.

٩- بذل المكافأة لمن أتقن عمله وأجاده، أسوة بفعل خديجة رضي الله عنها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما انتهى من إنجاز مهمته.

زواجه صلى الله عليه وسلم من خديجة رضي الله عنها

كانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة مع ما أراد الله بها من كرامة؛ فلما أخبرها ميسرة ما أخبرها؛ بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقالت له: فيما يزعمون، يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقربتك ووسطتك في قومك، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك؛ ثم عرضت نفسها عليه.

1 أخرجه البخاري كتاب البيوع باب يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم ج ٢ ص ٧٣٥، مسلم المساقاة باب النهى عن الحلف في البيع. ج ٥ ص ٥٦.
2 مسلم المساقاة باب النهى عن الحلف في البيع. ج ٥ ص ٥٦.
3 مسلم كتاب الإيمان باب النهى عن الحلف بغير الله تعالى، ج ٥، ص ٨١.

وكانت أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً، كل قومها حريصون على ذلك منها لو قدر عليه؛ فلما قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ذلك لأعمامه؛ فخرج معه عمه حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه؛ فتزوجها عليه الصلاة والسلام.

قال ابن هشام: فأصدقها عشرين بكرة¹، وكانت أول امرأة تزوجها، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت. وقد كان عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تزوج خديجة رضي الله عنها خمساً وعشرين سنة، وعمرها أربعين².

الدروس والعبر:

١ - كان زواج المصطفى من السيدة خديجة بتقدير الله تعالى: اختار الله سبحانه وتعالى لنبيه زوجة تناسبه وتؤازره، وتخفف عنه ما يصيبه، وتعينه على حمل تكاليف الرسالة وتعيش همومه³.

قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: وخديجة مثل طيب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم، إن أصحاب الرسالات يحملون قلوباً شديدة الحساسية، ويلقون غبناً بالغاً من الواقع الذي يريدون تغييره، ويقاسون جهاداً كبيراً في سبيل الخير الذي يريدون فرضه، وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإيناس والترفيه، وكانت خديجة سبابة إلى هذه الخصال، وكان لها في حياة محمد صلى الله عليه وسلم أثر كريم⁴.

1 الأنتى الصغيرة من الإبل أو الناقة الصغيرة.

2 السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٨٩.

3 فقه السيرة النبوية للصلابي ج ١ ص ٧٢.

4 فقه السيرة النبوية للصلابي ج ١ ص ٧١.

- ٢ - كان لصفات رسول الله صلى الله عليه وسلم وخصاله أثراً في اختيار خديجة رضي الله عنها، وهي التي يتمنى قربها أفضل الرجال في قومها.
- ٣ - كان زواجه صلى الله عليه وسلم بعد جهد وعمل؛ حيث اكتسب المال من رحلته التجارية واستطاع من خلاله أن يقدم مهراً يليق بخديجة ومكانتها.
- ٤ - كان صداق النبي صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها قبل بعثته: أقر الإسلام ذلك التشريع بشكل عام - أي عدم تقييد المهر - وحث النبي صلى الله عليه وسلم على الاقتصاد فيه، وخاطب تعالى عموم المؤمنين فقال: **وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا** (النساء: ٢٠). وكان عمر رضي الله عنه ينهى عن المغالاة، ويقول: (ما تزوج صلى الله عليه وسلم، ولا زوج بناته بأكثر من أربع مائة درهم)¹.

أثر الخلوّة بغار حراء

روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبب إليه الخلاء²، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - أي يتعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة

¹ أخرجه أصحاب السنن الأربعة وصححه الترمذي.

² الخلاء الانفراد.

فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء؛ فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ؛ فقلت: ما أنا بقارئ؛ فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني؛ فقال: **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**

الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (العلق: ١ - ٣)؛ فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده؛ فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها؛ فقال: زملوني زملوني؛ فزملوه حتى ذهب عنه الروع؛ فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك¹ الله أبداً إنك لتصل الرحم²، وتحمل الكل³، وتكسب المعدوم⁴، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني؛ فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب؛ وكان شيخاً كبيراً قد عمي؛ فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى؛ فقال له ورقة هذا الناموس⁵ الذي نزله الله به على موسى، يا ليتني فيها جذع⁶، ليتني

1 ما يخزيك لا يذلّك ولا يضيعك.

2 لتصل الرحم تكرم القرابة وتواسيهم.

3 تحمّل الكل تقو بشأن من لا يستقل بأمره ليتم وغيره وتتوسع بمن فيه ثقل وغلاظة.

4 تكسب المعدوم تتبرع بالمال لمن عدمه وتعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك.

5 الناموس هو صاحب السر والمراد جبريل عليه السلام سمي بذلك لاختصاصه بالوحي.

6 جذع شاب والجذع في الأصل الصغير من البهائم ثم استعير للشباب من الإنسان.

أكون حياً إذ يخرجك قومك؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مخرجي هم. قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً¹، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي²،³.

الدروس والعبر:

- ١ - أهمية الخلوة الصحيحة لكل إنسان: الخلوة لو لم تكن ذات أثر كبير في تربية النفوس وتهذيبها وتهيئة رجال الدعوة للقيام بمهامها على خير وجه لما ربي الله رسوله عليها، ولما جعلها تمهيداً بين يدي الرسالة التي سيحملها الله إياها ليبلغها للناس، ويدعوهم إلى الإيمان به، والسير على صراطه. ويتلخص الأمر بأثرين اثنين:
- الأول: تزكية النفس وتحريرها من كثير من آفات كالكبر والعجب والحسد والرياء وحب الدنيا من خلال التفكير الطويل في مظاهر عظمة الله والأحداث الجسيمة التي سيُقبل عليها الإنسان.
 - الثاني: تربية محبة الله عز وجل في القلب من خلال التفكير في نعمائه وآلائه على الإنسان في كل لحظة.

٢ - إن أثر العزلة في تحقيق دينك الأثرين في حياة الإنسان: أشبه ما يكون بأثر عزلة التاجر، إذ يسهر مع دفاتره وحساباته، بعيداً عن الناس وضوضائهم؛ في تحقيق أسباب الربح والاستقامة في تجارته؛ فلولا هذه الساعات التي يخلو فيها التاجر مع

¹ مؤزراً قوياً من الأزْر وهو القوة.

² فتر الوحي تأخر عن النزول مدة من الزمن.

³ أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم ج ١ ص ٤.

حساباته ودفاتره لعاش التاجر صخب السوق وضوضاء متجره ولحصد عواقب الندامة والخسران¹.

٣ - إن كلمة اقرأ هي أول ما نزل من كتاب الله تعالى: ففيها العلم والتعلم والتدبر الذي فيه مكن علوم الاقتصاد والتجارة، التي هي علم وممارسة، والجاهل يفوته الكثير إن لم يتعلم ويتقن فنون عمله.

٤ - إن المدقق في كلام خديجة رضي الله عنها وهي تواسي رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، تُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق. وهذه عبارات يظهر للمدقق فيها أن الضمان الاجتماعي كان متوفراً بشكل أو بآخر؛ فصفات رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثلت في تحقيق الأمن الاجتماعي بين الناس لأنه يصل الرحم يزورهم ويواسيهم، ويحمل الكل ويعطي من لا يملك وليس لديه شيء، ويستقبل الضيف ويكرمه، ويساعد الملهوف وصاحب الحاجة، لذلك حُقَّ له محبة الناس. وبانتشار هكذا صفات يكون المجتمع مجتمع مؤاخاة وتكافل.

1 فقه السيرة النبوية للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ٦٥ إلى ٦٧. منشورات جامعة دمشق ط ١٤١٨ - ١٩٩٨.

الدور المالي لخديجة رضي الله عنها

بذلت السيدة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها مالاً كثيراً، شهد بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث روت¹ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة رضي الله عنها فيحسن الثناء عليها؛ فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيرة؛ فقلت هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها؟ فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب، ثم قال: لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت إذ كفر الناس، وصدقتني وكذبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد إذ حرمني أولاد النساء؛ فقالت عائشة رضي الله عنها: فقلت في نفسي لا أذكرها بسيئة أبداً.

زيد بن حارثة

قال ابن هشام: كان حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة؛ فقال لها: اختاري يا عمة أي هؤلاء الغلمان شئت فهو لك؛ فاختارت زيداً فأخذته فراه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها؛ فاستوهبه منها؛ فوهبته له فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبناه، وذلك قبل أن يوحى إليه². وكانت

1 أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن لأثير الجزري النساء ص ٨٦. والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسند السيدة عائشة رضي الله عنها ج ٦ ص ١١٧.
2 سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٧.

خديجة قد اشترت زيداً؛ والذي يُقال له زيد الحب وأم زيد سعدى بنت ثعلبة ابن عبد عامر زارت قومها وزيد معها فأغارت خيل لبني القين في الجاهلية فمروا على أبيات بني معن فاحتملوا زيداً وهو يومئذ غلام يفعة فوافوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمئة درهم؛ فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له¹.

الجزء من جنس العمل: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب؛ فإذا هي أتتك؛ فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب² لا صخب فيه ولا نصب³.

ونقل ابن حجر: مناسبة نفي هاتين الصفتين – أي المنازعة والتعب – أنه صلى الله عليه وسلم لما دعا إلى الإسلام؛ أجابت خديجة طوعاً فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة ولا تعب في ذلك، بل أزالته عنه كل نصب، وأنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل عسير؛ فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعالها⁴.

1 صفة الصفوة ج ١ ص ٣٧٨ عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرجدار المعرفة – بيروت الطبعة الثانية، ١٣٩٩ – ١٩٧٩.

2 عن فاطمة، أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: أين أمنا خديجة؟ قال: (في بيت من قصب، لا لغوفيه ولا نصب، بين مريم وآسية امرأة فرعون)، قالت: أمن هذا القصب؟ قال: (لا، بل من القصب المنظوم بالدر، واللؤلؤ، والياقوت) الطبراني ج ١ ص المعجم الأوسط أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥.

3 البخاري كتاب فضائل الصحابة باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها ج ٣ ص ١٣٨٩.

4 فتح الباري ج ٧ ص ١٣٨.

العون المالي لحليمة السعدية

ذكر ابن سعد في الطبقات قال: أخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا أسامة بن زيد الليثي عن شيخ من بني سعد قال: قدمت حليلة بنت عبد الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وقد تزوج خديجة؛ فتشكت جذب البلاد وهلاك الماشية؛ فكلم رسول الله، صلى الله عليه وسلم خديجة فيها فأعطتها أربعين شاة¹.

أقوال بعض المفسرين في قوله تعالى: **ووجدك عائلاً فأغنى:**

قال القرطبي: أي فقيراً لا مال لك؛ فأغنى - أي فأغناك - بخديجة رضي الله عنها².

وقال الخازن³: فأغناك بمال خديجة ثم بالغنائم، وقيل أرضاك بما أعطاك من الرزق، وهذه حقيقة الغنى. عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس.**

وقال الرزاي في كيفية الإغناء وجوه⁴:

1 الطبقات الكبرى ج ١ ص ١١٣. محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري دار صادر - بيروت كذا صفة الصفوة ج ١ ص ٦٢.

2 الجامع لأحكام القرآن ج ٢٠ ص ٩٩ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأتصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي المتوفى: ٦٧١ هـ دار الكتب المصرية، القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.

3 لباب التأويل في معاني التنزيل ج ٤ ص ٤٣٩ علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيشي أبو الحسن، المعروف بالخازن المتوفى: ٧٤١ هـ دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

4 مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ج ٣١ ص ١٩٩ أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري المتوفى: ٦٠٦ هـ دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ

الأول: أن الله تعالى أغناه بتربية أبي طالب، ولما اختلت أحوال أبي طالب أغناه الله بمال خديجة، ولما اختل ذلك أغناه الله بمال أبي بكر، ولما اختل ذلك أمره بالهجرة وأغناه بإعانة الأنصار، ثم أمره بالجهاد، وأغناه بالغنائم، وإن كان إنما حصل بعد نزول هذه السورة، لكن لما كان ذلك معلوم الوقوع كان كالواقع.

الثاني: أغناه بأصحابه كانوا يعبدون الله سرّاً حتى قال عمر حين أسلم: أتُعبد اللات جهراً ونعبد الله سرّاً؟ فقال عليه السلام: حتى تكثر الأصحاب؛ فقال حسبك الله وأنا؛ فقال تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** (الأنفال: ٦٤) فأغناه الله بمال أبي بكر، وبهيبة عمر.

الثالث: أغناك بالقناعة فصرت بحال يستوي عندك الحجر والذهب، لا تجد في قلبك سوى ربك.

الرابع: كنت عائلاً عن البراهين والحجج؛ فأنزل الله عليك القرآن، وعلمك ما لم تكن تعلم فأغناك.

الدروس والعبر:

١ - تساند الزوجة زوجها طوعاً إن كان في حاجة لذلك، والزوج يذكر لها ذلك المعروف ولا يبخسها حقها حتى بعد موتها؛ فهذا من الوفاء والإحسان.

٢ - طاعة الزوجة لزوجها في الأعمال الصالحة: وقوفها معه أمر مرغوب فيه؛ فقد استوهبها صلى الله عليه وسلم زيدا فوهبته له ليعينه على قضاء حاجاته، ولم تعترض عن عتقه له لثقتها به وبقدراته. فزيد هو مورد بشري يُستفاد منه عبداً

كان أم حراً، وفطنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثته إنما يحقق الولاء من زيد له، وقد أثبتت الأيام مدى الرفعة التي حظي بها زيد رضي الله عنه .

٣ - **الجزء من جنس العمل** : كانت خديجة رضي الله عنها نعم الزوجة الصالحة فقد وثقت بزوجها وأيقنت بصدقه؛ فبرته وصدقته؛ فكان لها الأجر الوافر من الله تعالى . وكذلك ينبغي على كل عامل ورب عمل، زوجة وزوج، وكل متعامل مع غيره أن يكون وفيّاً برّاً، وعلى الآخر أن يكون كذلك . أخرج مسلم عن عائشة قالت : ما غرت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم إلا على خديجة وإنني لم أدركها . قالت : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذبح الشاة فيقول : أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة . قالت : فأغضبته يوماً فقلت : خديجة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنني قد رزقت حبها¹ .

وكذلك أغنى الله تعالى عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم بأشكال عديدة، لإخلاصه في تبليغ الرسالة، والحرص على ذلك؛ فكان عبداً شكوراً . وقد هياً الله له في كل مرحلة من يعينه ويساعده؛ فلم يتركه وحيداً، وكذلك على كل رب عمل أن يهيئ لعماله الظروف المناسبة لتأدية أعمالهم وأن يعطيهم أجورهم حقاً، ليكونوا مخلصين حريصين، ويكون الجزء من جنس العمل .

٤ - **سارعت خديجة رضي الله عنها ببذل العطاء لمساعدة الفقراء** : كما فعلت مع حليلة بناء على توصية من زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهكذا

¹ صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها .
٥٨ ج ٧ ص ١٣٤

يجب على كل مؤسر أن يعين المعسر عند الضرورة دون تردد، حتى لو لم يكن ذلك من الزكاة .

الفصل الثالث الأحداث المالية من البعثة إلى الهجرة

سيدكر هذا الفصل مجموعة من الأمور، حيث سينطلق من الحديث عن تنوع البذل المالي في سبيل الله في بداية الإسلام، وعن مشكلة الحصار الاقتصادي التي جاءت بعد عروض مالية سخية من قريش للرسول صلى الله عليه وسلم لترك الدعوة، ثم سيدكر مسألة الهجرة والسياسة في الأرض بداية من الحبشة ومروراً بالطائف إلى نقطة التحول الفاصلة في تاريخ الإسلام وهي الهجرة للمدينة المنورة.

الدعوة السرية وتنوع البذل المالي فيها

سيتعرض المبحث إلى نماذج تعتبر فريدة، والإسلام ما فتى في باكورته يُنشر سراً لا جهراً؛ فكيف حدث ذلك؟ وكيف أثر فيهم هذا الإيمان؟

هي أحداث مهمة من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، والنماذج هي:

- طليعة أقمار المؤمنين ودار الأرقم.
 - التكافل الاجتماعي وتحرير المستضعفين.
 - مصعب بن عمير كأ نموذج للبذل الفريد.
- لقد نزل الوحي على سيد الخلق صلى الله عليه وسلم وعُمره أربعين عاماً، كان يخلو في غار حراء بنفسه متفكراً في هذا الكون وفي خالقه، كان تعبده في الغار يستغرق الليالي العديدة؛ فإذا نفذ الزاد، عاد إلى بيته ليتزود لليلٍ أُخر. واستمر

ذلك حتى جاء الأمر الرباني بتبليغ الرسالة: **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**

*** وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** (المدثر: ١ - ٤).

وبدأت مرحلة الدعوة السرية.

أنموذج التبوع للصالح العام؛ دار الأرقم

بدأ النبي صلى الله عليه وسلم دعوته التي أمره الله تبليغها؛ فبدأ بأهل بيته وعائلته وأصدقائه وأقرب الناس إليه؛ فكانت زوجته خديجة أول النساء، وصاحبه أبو بكر الصديق أول الرجال.

واستمر النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته السرية يستقطب عدداً من الأتباع والأنصار من أقاربه وأصدقائه، وأصبحت دار الأرقم مركزاً جديداً للدعوة يتجمع فيها المسلمون، وفيها أسلم أفذاذ الرجال الذين حملوا راية التوحيد والدعوة؛ كعمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فدانت لهم الجزيرة العربية، وشكلت الفتوحات العظيمة التي قاموا بها في نصف قرن؛ منارات لن تغيب على مر الزمان.

الدروس والعبر:

١ - أول الناس إسلاماً من الرجال والنساء كانا من طبقة التجار: أبو بكر الصديق وخديجة بنت خويلد، وفي هذا مثال لوعي هذه الفئة وصحتها؛ فالتاجر المسلم هو منارة تضيء ذاتها ثم تشع بأنوارها على محيطها وبيعتها بالدعوة إلى الله تعالى، لذلك لا عجب في أن انتشار الإسلام في بقاع الأرض كان عبر التجار

أنفسهم؛ فكانوا يطبقون إيمانهم بالممارسة فيرون الناس فيهم وفي أفعالهم آيات الصدق والإخلاص والنصح والإرشاد .

لذلك تتالت آيات الذكر الحكيم بالتشبيه بآيات فيها الإيمان كتجارة مع الله، ويكأن الإيمان صفقة ثمنها عند أصحاب الفكر النير يربو ويزيد على كنوز الدنيا

كلها، قال المولى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ**

الْأَلِيمِ* تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ*

وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصَرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ (الصف: ١٠ - ١٣).

كيف لا يكون ذلك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم خيبر: لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه. قال: فبات

الناس يدوكون¹ ليلتهم أيهم يعطاها؛ فلما أصبح الناس غدواً على رسول الله

صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها؛ فقال: أين علي بن أبي طالب؟

فقالوا: يشتكي من عينيه يا رسول الله، قال: فأرسلوا إليه؛ فأتوني به؛ فلما

جاء بصق في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع؛ فأعطاها الراية؛

فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: انفذ على رسلك²؛

¹ أي يخوضون ويموجون ويختلفون فيه.

² مهلك.

حتى تنزل بساحتهم ثم أدعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه؛ فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم¹.

٢ - الإيمان سبب إسلام طليعة أقطار المؤمنين: لم يكن يدفعهم دافع دنيوي وإنما هو إيمانهم بالحق الذي شرح الله صدورهم له ونصرة نبيه صلى الله عليه وسلم، اشترك في ذلك الشريف والرقيق والغني والفقير؛ فتساوى في هذا أبو بكر وبلال، وعثمان وصهيب رضي الله عنه. ولم يكن أحدهم يُسلم ليحني المال والجاه، ولم يكن أحد يدعو للإسلام بناء على وظيفة أو عطاء مادي؛ لكن الإيمان وحده هو ما تآقت له قلوب المؤمنين.

٣ - قدم الأرقم بن أبي الأرقم منفعة داره في سبيل الله تعالى: هي ذات موقع مميز مطلّ على الصفا وبذلك يرقب المؤمنون تحركات المشركين ويأخذوا حذرهم، وقد تصدق بها مرتين:

- الأولى بأن جعل منفعة داره للصالح العام خدمة للدعوة الإسلامية.
- الثانية بأن تصدق بها على ولده؛ وقرئت نسخة صدقته بداره: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قضى الأرقم في ربه ما حاز الصفا إنها محرمة بمكانها من الحرم لا تباع ولا تورث. فكانت مثلاً للوقف المؤبد الذي لا يباع بعد موت صاحبه ولا يورث لغيره؛ بل يبقى وقفاً لمصلحة المسلمين حتى قيام الساعة.

¹ صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير باب فضل من أسلم على يديه رجل ج ٣ ص ١٠٩٦.

وشهد على ذلك هشام بن العاص ومولاه، ولم تزل هذه الدار صدقة قائمة فيها يسكن أولاده ويؤاجرونها حتى زمن أبي جعفر المنصور¹.

قال محمد بن عمران: فأخبرني أبي عن يحيى بن عمران بن عثمان بن الأرقم قال: إنني لأعلم اليوم الذي وقعت في نفس أبي جعفر، إنه ليسعى بين الصفا والمروة في حجة حجها ونحن على ظهر الدار في فسطاط فيمر تحتنا لو أشاء أن آخذ قلنسوة عليه لأخذتها وإنه لينظر إلينا من حين يهبط الوادي حتى يصعد إلى الصفا؛ فلما خرج محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة كان عبد الله بن عثمان بن الأرقم ممن تابعه ولم يخرج معه؛ فتعلق عليه أبو جعفر بذلك فكتب إلى عامله بالمدينة أن يحبسه ويطره في حديد، ثم بعث رجلاً من أهل الكوفة يُقال له شهاب بن عبد رب وكتب معه إلى عامل المدينة أن يفعل ما يأمره به؛ فدخل شهاب على عبد الله بن عثمان الحبس وهو شيخ كبير ابن بضع وثمانين سنة وقد ضجر بالحديد والحبس فقال له: هل لك أن أخلصك مما أنت فيه وتبيعي دار الأرقم؟ فإن أمير المؤمنين يريد لها وعسى إن بعته إياها أن أكلمه فيك فيعفو عنك. قال: إنها صدقة ولكن حقي منها له ومعني فيها شركاء إخوتي وغيرهم؛ فقال: إنما عليك نفسك، أعطنا حقا وبرئت؛ فأشهد له بحقه وكتب عليه كتاب شري على حساب سبعة عشر ألف دينار ثم تتبع إخوته ففتنتهم كثرة المال فباعوه فصارت لأبي جعفر ولمن أقطعها². ويدل ذلك على قيمة دار الأرقم؛ حيث بلغت حصة أحدهم سبعة عشر

1 واسمه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس. عن البداية والنهاية ج ١٠ ص ٦١.

2 الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٢٤٣. دار صادر - بيروت الطبعة: ١ - ١٩٦٨ م

ألف دينار. وقد بدا كيف تدخل السلطان لينهي وقفاً مؤبداً، وهذا خلل يتكرر حتى أيامنا هذه.

أنموذج التكافل الاجتماعي المكي؛ أبو بكر التاجر الغني

كان لمال أبي بكر الصديق رضي الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم دور كبير، خلال مرحلة العهد المكي فقد جاد به في سبيل الله؛ فأعتق سبعة من المسلمين كلهم يُعذبون في الله ومنهم بلال¹ بن رباح رضي الله عنه²، الذي صار – فيما بعد – أول وزير إعلام في الإسلام.

لقد أسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولديه ٤٠٠٠٠ دينار – وفي رواية ٤٠٠٠٠ درهم – أنفقها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما خرج مهاجراً إلى المدينة لم يكن لديه سوى ٥٠٠٠ دينار منها.

استخدم أبو بكر رضي الله عنه ماله في نصرة المستضعفين والوقوف معهم:

– فاشترى بلال بن رباح الحبشي من المشركين لما كانوا يعذبونه على التوحيد وأعتقه، ثم لزم بلال رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم وأذن له³.

¹ بلال بن رباح رضي الله عنه مولى أبي بكر الصديق، اشتراه وأعتقه الله عز وجل وكان مؤدناً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وخازناً، شهد بدرًا والمشاهد كلها، وكان من السابقين إلى الإسلام، وممن يعذب في الله عز وجل فيصبر على العذاب، وأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح، وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إلى الشام؛ فكان به حتى مات. ودفن بباب الصغير سنة عشرين، وهو ابن بضع وستين سنة. سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٣٤٧.

² السيرة النبوية لابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ج ١ ص ٣١٨ منشورات دار الخلود بيروت. تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي.

³ الإصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ٣٢٦ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي دار الجيل – بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٢.

— واشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون في الحجارة بخمس أواق ذهباً؛ فقالوا: لو أبيت إلا أوقية لبعناكه؛ فقال: لو أبيتم إلا مئة أوقية لأخذته¹.

— وذكر ابن هشام أن من أعتقهم أبا بكر مع بلال قبل أن يهاجر إلى المدينة ستة كان بلال سابعهم. وهم:

* عامر بن فهيرة التيمي مولى أبي بكر الصديق، يُقال أن أصله من الأزد، أُسرق في الجاهلية فاشتراه أبو بكر الصديق، واعتقه وكان من السابقين إلى الإسلام بعد أن عُذب من أجل إسلامه².

* أم عبيس وزنيرة، وقد أصيب بصرها حين أعتقها؛ فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى؛ فقالت: كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان؛ فردَّ الله بصرها.

* وأعتق النهديّة وبنّتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار فمّرّ بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها، وهي تقول والله لا أعتقكما أبداً؛ فقال أبو بكر رضي الله عنه حلّ يا أم فلان؛ فقالت حلّ أنت أفسدتهما فأعتقتهما، قال فبكم هما؟ قالت بكذا وكذا، قال قد أخذتهما وهما حرتان أرجعا إليها طحينها، قالتا: أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليهما؟ قال وذلك إن شئتما.

* ومّرّ بجارية بني مؤمل حيّ من بني عدي بن كعب، وكانت مسلمة وعمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام — وهو يومئذ مشرك وهو يضربها —، حتى إذا

¹ سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٣٥٣.

² كتاب تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٦٩ للإمام الحافظ شيخ الاسلام شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٥٢٨ هـ الطبعة الاولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

ملّ، قال إني أعتذر إليك، إني لم أترك إلا ملالة؛ فتقول كذلك فعل الله بك .
فابتاعها أبو بكر؛ فأعتقها .

الدروس والعبر :

١ - اتفق جمهور الفقهاء على أن للمنفعة قيمة: إلا أن فقهاء الحنفية قالوا: إن المنفعة ملك لا مال¹، وذكر الشرييني الخطيب بأن المنافع ليست أموالاً على الحقيقة بل على ضرب من التوسع والمجاز بدليل أنها معدومة لا قدرة عليها². لذلك يعتبر الأرقم قد تبرع بمنفعة داره لتكون داراً لاجتماع المسلمين .

٢ - أعطى الإسلام للمال بُعداً اجتماعياً: لم يألفه غيره؛ فاستثنى الحنفية ما يُدفع للاسترقاق من كونه مالاً؛ فعرفوا المال بأنه: اسم لغير الآدمي، خلق لمصالح الآدمي، وأمكن إحرازه، والتصرف فيه على وجه الاختيار³، وقال الشيخ أبو زهرة⁴ عن هذا التعريف: هذا التعريف كامل صحيح، وإن كان فيه نقص فهو أنه لم يشمل الإنسان المسترق، وهو نقص فيه كمال، لأن الإنسان لا يعتبر مالاً في أصله، والمالية أمر عارض للعبيد، ويحسن رفعها ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلاً، وهذا أمر مرر في الإسلام⁵. فكما أمر الإسلام بتحرير العبيد عدّ بيع الأحرار من الكبائر

1 رد المحتار ج ٥ ص ٥.

2 مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج ج ٢ ص ٣٢٢، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشرييني الشافعي دار الكتب العلمية ط ١، ١٤١٥هـ.

3 مرجع سابق، مغني المحتاج.

4 محمد أبو زهرة، ولد في المحلة الكبرى في المحافظة الغربية بمصر عام ١٣١٦هـ، حفظ القرآن الكريم ثم دخل مدرسة القضاء الشرعي تنقل بمرات عدة في الجامعات وكان عضواً في مجمع البحوث العلمية بالأزهر، وترك ثروة من العلوم الشرعية الإسلامية رحمه الله. عن ناشر كتاب التكافل الاجتماعي محمد محمود الخضري.

5 الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية ص ٥٢.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر ورجل باع حراً فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره¹.

٣ - التكافل بين طليعة الأمة الإسلامية: أدى ذلك إلى تحقيق خير عميم؛ فقد أصبح أولئك المعتقين أصحاب عقيدة وفكر وشغلوا مناصب رفيعة في الأمة وكان ولاؤهم لها رغم أن فيهم مما هو ليس بعربي الأصل.

لذلك يعتبر إقدام أبي بكر رضي الله عنه على شرائهم ثم إعتاقهم مثلاً على عظمة هذا الدين، ومدى تغلغله في نفسية الصديق رضي الله عنه، وما أحوج المسلمين اليوم لأن يحيوا هذا المثل الرفيع، وأن يحيوا مشاعره السامية ليتم التلاحم والتعايش والتعاقد بين أبناء الأمة التي يتعرض أبنائها للإبادة الشاملة من قبل أعدائها.

والتكافل في اللغة: من كفل، والكفل الحظُّ والضعف من الأجر والكافل العائل كَفَلَهُ يَكْفُلُهُ وَكَفَّلَهُ إِبَاهُ، وفي التنزيل العزيز قال الله تعالى: **وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا** (آل عمران: ٣٧). وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم: أنا وكافل اليتيم كهاتين^٢ في الجنة.

وفي الاصطلاح يُعرّف التكافل الاجتماعي: أن يحس كل واحد في المجتمع بأن عليه واجبات لهذا المجتمع يجب عليه أدائها، وأنه إن تقاصر في أدائها فقد يؤدي

1 البخاري كتاب البيوع باب إثم من باع حراً ج ٢ ص ٧٧٦

2 أخرجه أبو داود وابن ماجه والإمام أحمد عن سهل بن سعد رضي الله عنه بإسناد صحيح.

ذلك إلى انهيار البنيان عليه وعلى غيره¹. وفي تعريف آخر هو: أن يعيش الناس مع بعضهم في حالة تعاضد وترابط بين الفرد والجماعة وبين كل إنسان وأخيه الإنسان؛ بحيث يرق غنيهم لفقيرهم، ويرحم كبيرهم صغيرهم، ويحترم صغيرهم كبيرهم، ويعول صحيحهم مريضهم، ويسد شبعانهم حاجة جائعهم، وأن يهدي الرشيد الضال، ويوقر الجاهل العالم، ويعلم العالم الجاهل، وأن تنظم أمور حياتهم وأموالهم فتوجه إلى ما فيه خيرهم، وبعبارة أخرى أن يصير الفرد في كفالة مجتمعه فيقوم له المجتمع بما يلزم عن اقتضاء ذلك الحال².

لقد وصف الله علاقة المؤمنين ببعضهم أنها علاقة الولاء والعون، وأي عون يكون إذا رأى المؤمن إخوته في ضيق يهدد حياتهم ولم يقم بتفريج كربهم؛ فالعون المادي والمعنوي كلاهما يدخل في باب الولاية بين المؤمنين تلك الولاية التي إن تحققت بشروطها آتت أكلها في إنزال رحمت المنعم عز وجل القائل: **وَالْمُؤْمِنُونَ**

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ (التوبة: ٧١). وإيتاء الزكاة مظهر من مظاهر التآخي المادي لما لها من دور في تفريج كرب الحياة وصعابها.

1 التكافل الاجتماعي في الإسلام ص ٧ للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي ١٩٩١.
2 التكافل الاجتماعي في الإسلام ص ١٣ للدكتور عبد العال أحمد عبد العال، الشركة العربية للنشر والتوزيع ١٤١٨.

لقد عرف العالم الحديث مصطلح التكافل الاجتماعي لأول مرة¹ عام ١٩٣٥ عندما أصدر المشرع الأميركي قانون الضمان الاجتماعي، بينما سبق الإسلام أولئك بأربعة عشر قرناً في سلوك أفرادهِ وبتعاليمه وأحكامه، بل في أحد أركانه الخمسة وهو ركن الزكاة؛ فكان نظاماً كاملاً شاملاً ظهرت ملامحه منذ فجر الإسلام في مكة المكرمة وما بعدها .

لقد كانت غاية الصديق رضي الله عنه مرضاة الله تعالى؛ فقد قال له أبوه - أبو قحافة² - : يا بني إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً؛ فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جلدأً يمنعونك ويقومون دونك؟ قال : فقال أبو بكر رضي الله عنه يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله عز وجل، قال فيتحدث أنه ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيه وفيما

قال له أبوه: **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى**، إلى قوله تعالى: **وَسَيُجَنَّبُهَا**

الْإِتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِإِحْدِ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ

رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى (الأعلى: ١٧ - ٢١) وهكذا ينبغي أن تكون نفقة

كل إنسان مؤمن بالله تعالى: **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**

وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (البينة: ٥) .

1 التكافل والضمان الاجتماعي في الإسلام سعد عبد السلام حبيب، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة، العدد الثاني والثلاثون ١٩٦٣ .

2 سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٩

أ نموذج البذل والتضحية: مصعب بن عمير

كان مصعب رضي الله عنه ممن أسلم في دار الأرقم من بني عبد الدار بن قصي؛ فمصعب الخير ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، يُكنى بأبي محمد، وقد ضرب هذا الصحابي مثلاً مختلفاً في البذل والعطاء حيث كان فتى مكة شاباً وجمالاً وسناً، وكان أبواه يحبانها، وكانت أمه مليئة كثيرة المال تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال؛ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يذكره ويقول: ما رأيت بمكة أحداً أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير؛ فبلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم فدخل عليه وأسلم وصدق به، وخرج كاتماً إسلامه خوفاً من أمه وقومه؛ فكان يختلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سراً؛ فراه عثمان بن طلحة يصلي؛ فأخبر أمه وقومه فأخذوه فحبسوه فلم يزل محبوباً حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى ورجع مع المسلمين حين رجعوا.

لقد أقبل مصعب بن عمير ذات يوم والنبى صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه عليه قطعة نمر¹ قد وصلها بإهاب قد رده ثم وصله إليها؛ فلما رآه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: نكسوا رؤوسهم رحمة له ليس عندهم ما يغيرون عنه؛ فسلم فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأحسن عليه الثناء، وقال: الحمد لله ليقلب

¹ النمر: بردة من صوف تلبس.

الدنيا بأهلها، لقد رأيت هذا، يعني مصعباً، وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبيه نعيماً منه، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير في حب الله ورسوله¹.

الدروس والعبر:

١ - تنوع البذل المادي عند أصحاب: رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنهم من قدم منفعة داره كالأرقم ومنهم من تبرع بماله كخديجة وأبي بكر ومنهم من ضحى بعاداته من ثياب وطيب وحرية ووطن؛ فهان عليه ذلك في سبيل الله كمصعب بن عمير. عن ابن عمر قال: نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلاً عليه إهاب كبش قد تنطق به؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: انظروا إلى هذا الذي نور الله قلبه لقد رأيتته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراؤها بمائتي درهم فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون².

وجاء عن علي بن أبي طالب قوله: إنا لجلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد إذ طلع علينا مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة له مرقوعة بفرو فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى للذي كان فيه من النعمة والذي هو اليوم فيه؛ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في حلة ووضعت بين يديه صحيفة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر

1 الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ١١٧.

2 تاريخ ابن عساکر ج ٣٦ ص ٣٣٣.

الكعبة؟ قالوا يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم نتفرغ للعبادة ونكفي

المؤنة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأنتم اليوم خير منكم يومئذ¹.

٢ - يجب أن يهون كل خير ومال أمام محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: **قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ**

وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا

أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا

يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (التوبة: ٢٤).

٣ - حزن المؤمن على المؤمن إن لم يستطع مساعدته: المؤمنون نكسوا رؤوسهم

عندما لم يجدوا ما يقدموه لمصعب بن عمير؛ فما حال أغنياء الأمة في زماننا نحو

كثير من الناس ممن لا يجدون كساء يقيهم برد الشتاء أو حر الصيف؟.

٤ - لم يترك مصعب بن عمير سنة الأخذ بالأسباب: هاجر رضي الله عنه إلى

الحبشة مع من هاجر وعمل كأول داعية وأول سفير في المدينة المنورة تطوعاً دون

راتب أو أجر، بل كان في ضيافة وكرم أسعد بن زرارة رضي الله عنه²، وذلك بعد

أن رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فرزقه الله عقلاً راجحاً ولساناً طيباً ويكفيه

إسلام سيدي الأنصار على يديه: سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسواهم كثير

وكثير؛ فنجح رضي الله عنه في أخطر مهمة تاريخية وقتئذ، حيث كان منهلاً

¹ أخرجه الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ج ٤ ص

٦٤٧ وقال حديث حسن سنن الترمذي دار إحياء التراث العربي - بيروت

² الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٢٢٠، تاريخ الطبري ج ٢ ص ٨٨.

صافياً للموارد البشرية المؤمنة التي جاءت في بيعة العقبة الثانية التي أسست نواة دولة الإسلام في المدينة المنورة؛ فقد توج مصعب رحلة حياته بأعظم بيع عظيم عندما باع نفسه لله له يوم أحد .

الجهر بالدعوة والحصار الاقتصادي؛ مفاوضات وعروض مالية لترك الدعوة

بعد ثلاث سنوات من نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه جاء الأمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بالجهر بالدعوة، ونزل قول الحق جلّ جلاله: **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** (الحجر: ٩٤)، وقال تعالى: **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** (الشعراء: ٢١٤).

فبدأت بذلك مرحلة جديدة تمثلت بإعراض المشركين، ثم بعرضهم للمال، ثم بمختلف أنواع المفاوضات، ثم بإعلان الأذى والعدوان بكافة أشكاله .

اغراءات قريش وثبات الرسول صلى الله عليه وسلم

أكثرت قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها، وطلبت من أبي طالب أن يكف عنهم ابن أخيه؛ فذكر أبو طالب ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قائلاً: فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلي من الأمر ما لا أطيق؛ فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداءً أنه خاذله ومُسَلِّمُهُ وأنه قد ضَعُفَ عن نصرته والقيام معه، وكان ذُرُوة الثبات الرائع البديع من قبل الحبيب صلى الله عليه

وسلم بكلماته العطرة الشهيرة: يَا عَمَّ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي،
وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا
تَرَكَتُهُ¹.

لقد اجتمع الملاء² من قريش³ بعد ذلك كي يكلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم
فأتاهم حريصاً عليهم يحب رشدهم ويعز عليه عنّتهم حتى جلس إليهم فقالوا له:
يا محمد إنا قد بُعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على
قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة
وسفّهت الأحلام وفرقت الجماعة فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك أو
كما قالوا له: فَإِنْ كُنْتَ إِذَا جِئْتَ بِهَذَا الْحَدِيثِ تَطْلُبُ بِهِ مَا لَمْ جَمْعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا
حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرْنَا مَالاً، وَإِنْ كُنْتَ إِذَا تَطْلُبُ بِهِ الشَّرْفَ فِينَا؛ فَنَحْنُ نَسُودُكَ عَلَيْنَا،
وَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلِكُنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رِئْيًا تَرَاهُ قَدْ غَلَبَ
عَلَيْكَ – وَكَانُوا يَسْمُونَ التَّابِعَ مِنَ الْجِنِّ رِئْيًا – فَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ بَدَلْنَا لَكَ أَمْوَالِنَا فِي
طَلْبِ الطَّبْ لَكَ حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ أَوْ نُعْذِرَ فِيكَ.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتمكم به
أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم

¹ سيرة ابن هشام بتصرف ج ١ ص ٢٦٦.

² اجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث بن كعدة، أخو
بني عبد الدار وأبو البخترى بن هشام والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن
المغيرة، وأبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل ونيبه ومنبه ابنا الحجاج
السهميان وأمّية بن خلف.

³ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٦ وما بعدها.

رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً؛ فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

ثم بدأت قريش مستهزئة بالطلبات والخوارق والمعجزات من أنهار وكنوز وأن يسأل الله الأموال: فكان من جملة ما قالوه: وسله فليجعل لك جناحاً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم وتلتمس المعاش كما نلتمسه؛ حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعث إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً أو كما قال فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم¹.

الدروس والعبر:

١ - الاغراء المالي أول الوسائل التي استعملها قريش في المفاوضات: استعملتها قريش ضد سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تفلح في ذلك، ولقد استطاع الرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل قريشاً تفشل وتخسر في غوايتها، وكان المشركون يومئذ جادون في بذل أموالهم، وكيف ولا يفعلون ذلك وهذا طريق مختصر في حل مشكلتهم التي زينها الشيطان لهم.

¹ السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٤٨٠.

واستعمال الاغراء المالي من الوسائل الأولى لتحقيق الغايات وفق ما سيمر معنا لاحقاً، كهدايا قريش للنجاشي، وهذا أمر طبيعي بين الناس عموماً؛ فالمال تميل إليه القلوب، قال الله تعالى: **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ * قُلْ أَوْنَبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** (آل عمران: ١٤ - ١٥).

لقد استعملت قريش هذا الطريق يوم استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج من بينهم يوم الهجرة وجعلوا مئة ناقة لمن يأتي لهم بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كما سيمر لاحقاً.

وإنَّ في موقف الثبات والرفض القاطع وعدم المساومة من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم درس لكل مسلم في ألا يبيع دينه وذمته بأي عرض من عروض الحياة الدنيا الفانية عبر كل زمان ومكان. ويتأكد هذا الثبات في حق الدعوة؛ فكم من داعية سقط في طريقه تحت بريق المال! وكم عُرضت الآلاف من الأموال على الدعوة ليكفُّوا دعوتهم¹، والذين ثبتوا أمام الاغراء هم المقتدون بالنبي صلى الله عليه وسلم.

¹ فقه السيرة النبوية للصلابي ج ١ ص ٢٤٢.

٢ - رفض النبي صلى الله عليه وسلم للعروض المالية المغرية: إن في ذلك دليل على صدق نبوته ورسالته وأنه ما أراد للناس إلا أن يبلغهم دعوة الحق. وكذلك كان قد رفض الملك عليهم تسجيل تاريخي كي ينطق بتكذيب كل من سيأتي من محترفي الغزو الفكري ودعاة التشكيك مع الزمن الذين سيزعمون بأن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما كان يضم من وراء دعوته رغبة في السيادة والملك وما فيهما من جاه ومال؛ فكانت تلك المفاوضات وذاك الثبات أكبر رد على هؤلاء أمثال (كريم وفان فلوتن) وأمثالهما.

٣ - لو أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون ملكاً لأعطاه الله الملك وما يحتاجه الملك من أموال وكنوز: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ فنظر إلى السماء؛ فإذا ملك ينزل؛ فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة؛ فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك أملكاً أجعلك لهم أم عبداً رسولاً؟ فقال له جبريل: تواضع لربك يا محمد؛ فقال صلى الله عليه وسلم: لا بل عبداً رسولاً¹.

٤ - خلد القرآن تعجب قريش واستغرابها وشهادتها حول الحركة المعاشية التي يقوم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم: كالمشي في الأسواق وطلبه للمعاش كما يطلبه الناس ويمكن أن يُنظر إلى ذلك من خلال الأمور التالية:

¹ أخرجه أحمد في المسند بإسناد صحيح ج ٢ ص ٢٣١، مؤسسة قرطبة - القاهرة.

الأمر الأول: بشرية رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** (الكهف: ١١٠)

الأمر الثاني: التأكيد على أن الحركة المعاشية للرسول صلى الله عليه وسلم قد سبقه على نهجها كل المرسلين قبله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مثلهم على نفس الطريق قال تعالى: **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَبِئَآءُ كَلُوبٍ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا** (الفرقان: ٢٠).

الأمر الثالث: القدرة الربانية على أن يهب لنبيه ما أراد: من كنوز وأموال وبل وأعظم من ذلك إن أراد، قال تعالى: **وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا* أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا* انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا* تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا** (الفرقان: ٧

(١٠ -

٥ - الحكمة بالألا يستجيب النبي صلى الله عليه وسلم لطلب قومه من الآيات:

أنهم لم يسألوا ذلك مسترشدين وجادين، وإنما سألوا متعنتين مستهزئين

متكبرين¹، وقد علم الحق سبحانه أنهم لو عاينوا وشاهدوا ما طلبوا لما آمنوا، وللجأوا في طغيانهم يعمهون، ولظلّوا في غيهم وضلالهم يترددون²، قال سبحانه:

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ* وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ* وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِلْيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (الأنعام: ١٠٩ - ١١١).

لهذا اقتضت الحكمة الإلهية والرحمة الربانية ألا يجابوا على ما سألوا؛ لأن سنة الله إذا طلب قوم آيات فأجيبوا، ثم لم يؤمنوا، عذبهم عذاب الاستئصال كما فعل بعاد وشمود وقوم فرعون.

الحصار الاقتصادي

أجمع كفار قريش أمرهم واتفق رأيهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن قومه من بني هاشم قاموا بحمايته وظاهرهم وأعانهم بنو المطلب بن عبد مناف؛ فأجمع المشركون من قريش على منابذتهم وإخراجهم من مكة إلى الشعب. ودخل بنو هاشم وبنو المطلب شعبهم؛ مؤمنهم وكافرهم؛ فالمؤمن ديناً والكافر حمية فلما عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد منعه قومه أجمعوا:

1 فقه السيرة النبوية للبطي ص ١٠٢.

2 السيرة النبوية للصّلابي ج ١ ص ٢٥٠.

أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ثم تعاهدوا وتوثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم¹.

وفي رواية أخرى: على أن لا يبيعوهم ولا يدخلوا إليهم شيئاً من الرفق، وقطعوا عنهم الأسواق ولم يتركوا طعاماً ولا إداماً ولا بيعاً إلا بادروا إليه واشتروه دونهم ولا يناكحوهم ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل².

فاشتد البلاء واشتد الحصار على الصحابة، وبني هاشم، وبني المطلب، حتى اضطروا إلى أكل ورق الشجر، وحتى أصيبوا بظلف العيش وشدته، إلى حد أن أحدهم يخرج ليبول فيسمع بقعقة شيء تحته؛ فإذا هي قطعة من جلد بعير فيأخذها فيغسلها، ثم يحرقها ثم يسحقها، ثم يستفها، ويشرب عليها الماء فيتقوى بها ثلاثة أيام، وحتى لتسمع قريش صوت الصبية ينضاغون - يتباكون - من وراء الشعب من الجوع³.

1 السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٧٠.

2 عيون الأثر ج ١ ص ١٦٥.

3 السيرة النبوية للصّلابي ج ١ ص ٢٥٨.

فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم قوم من قصي ممن ولدتهم بنو هاشم ومن سواهم فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة وبعث الله على صحيفتهم الأرضة¹ فأكلت ولحست ما في الصحيفة من ميثاق وعهد .

وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي طالب : يا عم إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش ؛ فلم تدع فيها اسما هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان . فأطلع أبو طالب قريشاً على ذلك ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم قد أخبر بخبرها قبل أن تفتح فلما رأت قريش صدق ما جاء به أبو طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم قالوا هذا سحر ابن اخيك وزادهم ذلك بغياً وعدواناً .

وقال ابن اسحق : وندم منهم قوم فقالوا هذا بغى منا على إخواننا وظلم لهم فكان أول من مشى في نقض الصحيفة هشام بن عمرو بن الحارث العامري وهو كان كاتب الصحيفة وأبو البختری العاص بن هشام ابن الحارث بن أسد بن عبد العزى والمطعم بن عدي .

¹ والأرضة بالتحريك دودة بيضاء شبه النملة تظهر في أيام الربيع قال أبو حنيفة الأرضة ضربان ضرب صغار مثل كبار الذر وهي آفة الخشب صخاسة وضرب مثل كبار النمل ذوات أجنحة وهي آفة كل شيء من خشب ونبات غير أنها لا تعرض للرطب وهي ذات قوائم لسان العرب ج ٧ ص

وقد لقي أبو جهل حكيم ابن حزام¹ ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة وهي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب فتعلق به، وقال أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ فقال له أبو البختري: طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خلّ سبيل الرجل؛ فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه.

وذكر أبو عبد الله محمد بن سعد هشام بن عمرو العامري، وكان أوصل قريش لبني هاشم حين حصروا في الشعب، أدخل عليهم في ليلة ثلاثة أحمال طعاماً فعلمت بذلك قريش فمشوا إليه حين أصبح فكلموه في ذلك فقال إني غير عائد لشيء خالفكم؛ فانصرفوا عنه، ثم عاد الثانية فأدخل عليهم ليلاً حملاً أو حملين فغالظته قريش وهمت به؛ فقال أبو سفيان بن حرب دعوه رجل وصل أهل رحمه، أما إني أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن بنا.

وقد حوصر بنو هاشم في الشعب ليلة هلال المحرم سنة سبع، وخروجها منه في السنة العاشرة، وقيل مكثوا في الشعب سنتين².

الدروس والعبر:

١ - النبي صلى الله عليه وسلم والرعيّل الأول من الصحابة أول الناس ذوقاً لمشكلة الحصار الاقتصادي أو العقوبات الاقتصادية: كي يكون أنساً لكل مؤمن

¹ حكيم بن حزام: حكيم بن حزام بن خويلد القرشي الأسدي، أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه. وغزا حنيناً والطائف. وكان من أشرف قريش، وعقلائها، ونبلائها. وكانت خديجة عمته، وكان الزبير ابن عمه عاش مئة وعشرين سنة. وولد قبل عام الفيل بثلاث عشرة سنة. سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٤٤.

² عيون الأثر ج ١ ص ١٧١.

عبر العصور والأماكن يمر بمثل هذا المفهوم العدواني المتكرر من قبل المصابين بعمى البصيرة أو الحاقدين على المؤمنين.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يطلب من الله تعالى فيضاً من البركات كما حدث يوم الخندق من تكثير للطعام، ولكن ذلك لم يحدث لأجل أن تتحقق الحكمة والأنس للمؤمنين الذين يضيق عليهم في اقتصادهم، ولو كان قد حدث ذلك لقليل إن الصحابة الكرام والرعييل الأول لم يملوا بمثل الصعوبات التي تمر علينا في ظلال ما يسمّى بالعقوبات الاقتصادية. كما لم يكن جوع النبي صلى الله عليه وسلم مقتصرًا على فترة الشدة في الحصار؛ بل كان منهجاً في عموم الأحوال ولقد أخذ بهذا المنهج كثير من الصحابة؛ كعبد الله بن عمر بن الخطاب، وكثير من الصالحين. روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه مرّ بقوم بين أيديهم شاة مصلية¹ فدعوه فأبى أن يأكل، وقال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير.

٢ - إن في النهي عن البيع والشراء مظهر اقتصادي بالغ الأهمية: البيع والشراء عصب الحياة الاقتصادية؛ فإذا انعدم انهار البناء الاقتصادي، وباتت الحياة الاقتصادية مهددة بالخطر؛ فيصبح الإنسان مفتقداً لضرورات الحياة، مما يعرضه إلى الرضوخ والانصياع لأوامر من يملك تلك الضروريات²، ولكن لم يفلح ذلك مع الرعييل الأول بقيادة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

¹ أي مشوية.

² السيرة النبوية للصّلابي ج ١ ص ٢٦٠.

٣ - لم تقتنع قريش بحصار التجارة الداخلية في مكة؛ بل توسعت لتشمل التجارة الخارجية حيث جاء في الصحيفة: ولم يتركوا طعاماً ولا إداماً ولا بيعاً إلا بادروا إليه واشتروه دونهم؛ فكانوا¹ يُغنون على المسلمين في السّعر حتى لا يدرك الصحابة شيئاً فيشترونه .

٤ - كانت حادثة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية سبباً في خدمة الدعوة والدعاية لها بين قبائل العرب؛ فقد ذاع الخبر في كل القبائل العربية من خلال موسم الحج، ولفت أنظار جميع الجزيرة العربية إلى هذه الدعوة التي يتحمل صاحبها وأصحابه الجوع والعطش والعزلة لكل هذا الوقت، أثار ذلك في نفوسهم أن هذه الدعوة حق، ولولا ذلك لما تحمل صاحب الرسالة وأصحابه كل هذا الأذى والعذاب².

٥ - أثار الحصار سخط العرب: على كفار مكة لقسوتهم على بني هاشم وبني المطلب، كما أثار عطفهم على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ فما إن انفك الحصار حتى أقبل الناس على الإسلام، وذاع أمر هذه الدعوة وتردد صداها في كل بلاد العرب؛ فارتد سلاح الحصار على أصحابه، ليشكل عاملاً قوياً من عوامل انتشار الدعوة الإسلامية عكس ما أراد زعماء الشرك تماماً³.

٦ - إن ما جرى مع الصحابة وأمثالهم عبر الأزمنة والأمكنة: يفيد معرفة النعيم والشبع الذي يعيشه المسلم في الرخاء: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي

¹ مرجع سابق، ج ١ ص ٢٦٠.

² مرجع سابق، ج ١ ص ٢٦٤.

³ مرجع سابق، ج ١ ص ٢٦٤.

هريرة رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة؛ فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنه ما؛ فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالوا: الجوع يا رسول الله. قال: وأنا، والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما، قوماً فقاما معه؛ فأتى رجلاً من الأنصار؛ فإذا هو ليس في بيته؛ فلما رآته المرأة، قالت: مرحباً وأهلاً. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين فلان؟ قالت: ذهب يستعذب لنا الماء. إذ جاء الأنصاري؛ فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني؛ فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب؛ فقال: كلوا، وأخذ المدينة؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إياك والحلوب فذبح لهم؛ فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق¹ وشربوا. فلما أن شبعا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر رضي الله عنه ما: والذي نفسي بيده،

¹ قال الإمام النووي: العذق هنا بكسر العين، وهي الغصن من النخل، وإنما أتى بهذا العذق الملون ليكون أطرف، وليجمعوا بين أكل الأنواع فقد يطيب لبعضهم هذا ولبعضهم هذا. وفيه: دليل على استحباب تقديم الفاكهة على الخبز واللحم وغيرهما، وفيه استحباب المبادرة إلى الضيف بما تيسر، وإكرامه بعده بطعام يصنعه له لا سيما إن غلب على ظنه حاجته في الحال إلى الطعام، وقد يكون شديد الحاجة إلى التعجيل وقد يشق عليه انتظار ما يصنع له لاستعجاله للانصراف. وقد كره جماعة من السلف التكلف للضيف، وهو محمول على ما يشق على صاحب البيت مشقة ظاهرة؛ لأن ذلك يمنعه من الإخلاص وكمال السرور بالضيف، وربما ظهر عليه شيء من ذلك فيتأذى به الضيف، وقد يحضر شيئاً يعرف الضيف من حاله أنه يشق عليه، وأنه يتكلفه له فيتأذى لشقفته عليه، وكل هذا مخالف لقوله صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه" لأن أكمل إكرامه، إراحة خاطره، وإظهار السرور به، وأما فعل الأنصاري، وذبحه الشاة ليس مما يشق عليه، بل لو ذبح أغناماً بل جمالاً وأنفق أموالاً في ضيافة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه رضي الله عنهما كان مسروراً بذلك، مغبوطاً فيه. والله أعلم. شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٣ ص ٢١٣.

لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم. ويلاحظ كيف وجه النبي صلى الله عليه وسلم الصحابي بتجنب ذبح الحلوب بوصفها أصل منتج وفي ذبحها خسارة كبيرة وإنقاص للأصول المنتجة التي تقوي شوكة مالكها.

٧ - الحصار الاقتصادي هو من الأزمات الكبرى التي تصيب الناس: هذا ما يقتضي التحوط له؛ بوضع الخطط الاقتصادية التي تضع في حساباتها وقوع مثل هذه الأزمة، وكذلك الخطط التي تكون في ظلها وهذا من قواعد إدارة المخاطر، ولنا في نبي الله يوسف عليه السلام منهجاً اقتصادياً لمواجهة الأزمات الاقتصادية التي كانت سبب الجفاف والقحط، ومن حيث النتيجة لا بد من التحوط للأزمات للحفاظ على الناس وأمنهم.

٨ - وقف الإسلام موقفاً حازماً في مواجهة ظلم الناس: كعمل العقلاء من المشركين يومئذٍ (حالة حكيم بن حزام)¹ وتحمله للأذى في سبيل ذلك؛ فكيف بواجب المؤمنين؟ لذا فيجب على المؤمنين ومن كان في قلبهم نبضات إنسانية أن يقوموا بمواجهة الحصار على الناس كل الناس، وقد تعدى الحس في الإسلام ليشمل حتى الحيوان فلا يجوز حصاره ومنعه من طعامه وشرابه فكيف ببني البشر. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه ما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عذبت

¹ حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، أبو خالد القرشي الاسدي. أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه. وغزا حنيناً والطائف. وكان من أشرف قريش، وعقلائها، ونبلائها. وكانت خديجة عمته، وكان الزبير ابن عمه. وقدم دمشق تاجراً. قيل: إنه كان إذا اجتهد في يمينه، قال: لا والذي نجاني يوم بدر من القتل عاش مئة وعشرين سنة. وولد قبل عام الفيل بثلاث عشرة سنة. عن سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٤٤.

امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار. قال: فقال والله أعلم لا أنت أطعمتها ولا سقيتها حين حبستها ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض¹.

لذلك يجب على المسلمين عبر كل زمان ومكان في ظلال الحصار أن يعينوا بعضهم بعضاً: روى النعمان بن بشير² رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى³. قال الإمام النووي⁴: هذه الأحاديث صريحة⁵ في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاقد في غير إثم ولا مكروه. وقال صلى الله عليه وسلم: ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به⁶، فالحديث

1 صحيح البخاري كتاب المساقاة - الشرب باب فضل سقي الماء ج ٢ ص ٨٣٤، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.

2 النعمان بن بشير الأمير العالم، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن صاحبه، أبو عبد الله. ابن أخت عبد الله بن رواحة. ولد النعمان سنة اثنتين، وقال البخاري: ولد عام الهجرة، وسمع من النبي صلى الله عليه وسلم. وكان من أمراء معاوية؛ فولاه الكوفة مدة، ثم ولي قضاء دمشق ثم ولي إمرة حمص. ومات مقتولاً فيها عام ٦٤ للهجرة. عن سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٤١٢.

3 أخرج مسلم في صحيحه كتاب الصلة والبر والآداب، باب تراحم المسلمين ص ١٩٩٩.

4 شرح صحيح مسلم، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاقدهم ج ١٦ ص ١٣٩.

5 هذه الأحاديث صريحة - هذا كلام النووي رحمه الله - أي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه وما هو مذكور قبله في نفس الباب.

6 الطبراني في المعجم الكبير عن سيدنا أنس بن مالك ج ١ ص رقم ٢٥٩، برقم ٧٥١. قال نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي في مجمع الزوائد بأن إسناده حسن. ج ٨ ص ٣٠٥.

ينفي الإيمان الكامل عن هكذا جوار لأنه يدل على قسوة قلبه، وكثرة شحه، وسقوط مروءته¹.

٩ - يجوز عند الضرورات ما لا يجوز في غيرها: على ذلك أقرّ الفقه الإسلامي بتغيير الفتوى حسب الأشخاص والأماكن والأزمنة؛ فقد اشتد الجوع على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أحدهم لياًكل ورق الشجر أو يأكل قطعة من جلد البعير بعد أن يحرقها.

١٠ - صبر الزوجة على عسر زوجها: هذا فضل عظيم لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وقدوة حسنة لنساء المسلمين الذين يعانون من ضيق حال أزواجهن خاصة في الأزمات فخديجة التي كانت تاجرة موسرة ونزل بزوجها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما نزل، صبرت مع زوجها أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم، وكانت معه على السراء والضراء، قال الله تعالى: **وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** (البقرة: ٢٨٠).

وانقسم الفقهاء إلى فريقين في موضوع التفريق بين الزوجين للإعسار أو عدم الإنفاق في الفقه الإسلامي²:

الفريق الأول: عدم التفريق وهو للحنفية فللمرأة أن تستدين أو تنفق على نفسها إن كان لها مال على أن يكون هذا في ذمة الزوج بدليل قوله تعالى: **لِيُبْفِقَ ذُو سَعَةٍ**

¹ فيض القدير ج ٥ ص ٤٠٧.

² شرح قانون الأحوال الشخصية السوري للدكتور عبد الرحمن الصابوني ج ٢ ص ٨١ - ٨٢ بتصرف، منشورات جامعة دمشق ١٤١٨ - ١٩٩٧م.

مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا

سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (الطلاق : ٧) . وإلى عدم التفريق ذهب الظاهرية وزادوا

بأن الزوجة ملزمة بالإنفاق على زوجها إن كانت غنية فضلاً عن الإنفاق على نفسها .

الفريق الثاني : التفريق للإعسار في جميع الحالات التي يمتنع فيها الزوج عن

الإنفاق بدليل : **فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**، وإلى ذلك ذهب ابن القيم

الجوزية بضابطين : الأول في حال قدرة الزوج على الإنفاق وامتناعه عن ذلك .

والثاني في حالة تغرير وخذاع الزوج أثناء عقد الزواج على أنه غني والحال أنه فقير .

١١ - إدارك العرب في الجاهلية لأهمية صلة الرحم : عندما جاء الإسلام فرض

صلة الرحم وعدّد قطعها من الكبائر، وجعل صلتها حسب حاجة الرّحم؛ فإن كانت

محتاجة للبر أبرّها، وإن كانت محتاجة للمواساة واساها، وإن كانت محتاجة للعون

أعانها، وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم صلة الرّحم سبباً في البركة بالعمر

والرزق فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : من سره أن يُيسط له في رزقه وأن يُنسأ له في أثره فليصل رحمه¹ .

1 البخاري كتاب الأدب، باب من يسط له في الرزق بصلة الرحم ج ٢ ص ٨٧٢ دار ابن كثير، ط

السياحة والهجرة

توالى الأحداث على النبي صلى الله عليه وسلم منذ أن جهر بدعوته، وازدادت الشدة بوفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة ووصلت ذروتها حين خرج إلى الطائف، ثم عودته إلى مكة المكرمة، وكل ما سبق أمر طبيعي في قضية البلاء، ولكن في المحنة منحة، وفي سلسلة تلك المحن جاءت رحلة التكريم في الإسراء والمعراج.

الهجرة الأولى إلى الحبشة

لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحداً، وهي أرض صدق؛ حتى يجعل الله لكم فرجاً فخرج عند ذلك المسلمون إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة في الإسلام وكان من بين المهاجرين عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، ومعه امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان على رأس المهاجرين عثمان بن مظعون¹، خرجوا متسللين سراً حتى انتهوا إلى الشعبية - مرفأ للسفن قبل جدة - منهم الراكب ومنهم المشي؛ فوفى الله لهم سفينتين للتجار حملوهم فيهما بنصف دينار، وكان مخرجهم في رجب من السنة

¹ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٢١ وما بعدها.

الخامسة من النبوة؛ فخرجت قريش في آثارهم حتى جاءوا البحر من حيث ركبوا فلم يجدوا أحداً منهم¹.

ولما بلغ مهاجرو الحبشة، أن قريشاً أسلمت، رجعوا إلى مكة في شوال من نفس العام؛ فلما اقتربوا من مكة وعرفوا جلية الأمر، رجع منهم من رجع إلى الحبشة، ولم يدخل مكة من أحد إلا متخفياً، أو بجوار رجل من قريش.

الدروس والعبر:

١ - انطلق الرعيّل الأول من الصحابة في أول رحلة هجرة رغبة في الاستقرار

والابتعاد عن التوتر والشعور بالأمان:

كانوا طليعة المسافرين في رحلة عبر البحر باتجاه أرض الحبشة، وقد تكرر الأمر من بعدهم، وعليه يمكن القول أن حكم الهجرة والسياحة تنطبق عليه الأحكام الشرعية من فرض وواجب وندب ومباح ومكروه وحرام². وقد تكون السياحة:

— فرضاً؛ كالسياحة الدينية؛ كرحلة الحج على المستطيع.

— واجبة؛ كالسياحة العلاجية والاستشفائية،

— مندوبة؛ كما في شأن مهاجري الحبشة حيث أشار عليهم رسول الله صلى

الله عليه وسلم أن يخرجوا؛ فخرج البعض منهم ولو كانت فرضاً لخرج

الكل.

¹ عيون الأثر ج ١، ص ١٥٢.

² وعليه فالأحكام التكليفية الخمسة تدور عليها بحسب تنوع أغراضها ومقاصدها وأحوال السائح وبحسب الموازنة بين المصالح والمفاسد المترتبة عليها وما قد يترتب على ذلك من أخطار وفتن ومنكرات.

- مباحة؛ كالسياحة الاجتماعية ضمن الضوابط الشرعية .
- مكروهة؛ إذا كانت في السياحة التاريخية لزيارة آثار الأمم الذين حق عليهم العذاب أو قبورهم إلا للاعتبار¹؛ حيث يُكره للمسلم أن يدخل ديار الأمم الخالية ممن أهلكهم الله بكفرهم أو أن يمر على شيء من آثارهم إلا وهو معتبر بحالهم يتأمل في مآلهم يسأل الله تعالى العافية والرحمة للمسلمين²، بدليل عمل النبي صلى الله عليه وسلم عندما مرَّ بديار ثمود كما سيمر في غزوة تبوك إن شاء الله تعالى، وبما رواه ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم³، وكذلك قد تكون مكروهة عندما تكون في حد إضاعة المال وتبذيره .
- حراماً؛ حسب آثارها وما يكون فيها .
- ٢ - إنفاق المهاجرين من مالهم على أنفسهم عند خروجهم بسفينتي التجار دليل عزة نفسهم فلم يكونوا عالة على غيرهم .
- ٣ - الركوب في البحر وما فيه من منافع كالتجارة والصيد والمواصلات .

1 الإنيصاف للمرداوي ج ٢ ص ٥٦٢، الفروع باب زيارة القبور ج ٢ ص ٢٢٣ .

2 فقه السيرة النبوية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ٣٦٥ .

3 متفق عليه: البخاري باب قوله تعالى وإلى ثمود أخاهم صالحاً كذب أصحاب الحجر ج ٣ ص ١٢٣٧، مسلم باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين ج ٤ ص ٢٢٨٥ .

الهجرة الثانية إلى الحبشة

اشتد البلاء مجدداً على المسلمين من قريش، ولم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأً من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى؛ فاستعدوا لذلك على نطاق أوسع، وكانت الهجرة الثانية أشق من سابقتها؛ فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها، لكن الله يسر لهم السفر.

اختارت قريش عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، قبل أن يُسلما، وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة - الجديدة - للنجاشي وبطارقته، وقدما له الهدايا ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء؛ فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم؛ لتردهم إليهم.

قالت البطارقة: صدقا أيها الملك؛ فأسلمهم إليهما؛ فليردوهم إلى قومهم وبلادهم. فأرسل النجاشي للمسلمين ليعرف الحقيقة فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟

قال جعفر بن أبي طالب: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل منا القوي الضعيف؛ فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه؛ فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل

مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فعدد عليه أمور الإسلام. فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله؛ فعبدنا الله وحده؛ فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا؛ فعدا علينا قومنا؛ فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث؛ فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخرناك على من سواك، وورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك. فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقروه علي؛ فقرأ عليه صدرًا من: (كهيعص) أي سورة مريم؛ فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا؛ فلا والله لا أسلمهم إليكما. فلما كان الغد قال للنجاشي: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً؛ فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح ففرعوا، ولكن أجمعوا على الصدق، كائناً ما كان؛ فلما دخلوا عليه وسألهم، قال له جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

قال فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، قال: فتناخرت بطارقتة حوله حين قال ما قال فقال: وإن

نخرتم والله اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي أي آمنون؛ ثم قال: من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم. ما أحب أن لي دبراً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم.

قال ابن هشام: ويقال دبرا من ذهب ويقال فأنتم شيوم والدبر بلسان الحبشة: الجبل ردوا عليهما هداياهما؛ فلا حاجة لي بها؛ فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي؛ فأخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه. قال: فخرجنا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاء به وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار¹.

الدروس والعبر:

١ - عودة قريش للاغراء المالي للنيل من المسلمين: لكن هذه المرة خارج مكة حيث جهزوا الهدايا للنجاشي ولمن حوله حتى يضمنوا وقوفهم معهم في كل ما يطلبونه وإن كان ظاهره الفساد، لكن ذلك لم ينفع مع النجاشي الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بالعدل؛ فنجد في شخصية النجاشي:

- الحلم والمصارعة إلى التحقق من الأمر والتثبت وهذا منهج شرعي لتثبيت الأخبار.

- زهده: ما أحب أن لي دبراً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم.

- إدراكه لمفهوم الإحسان من الله ومع الله: فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي؛ فأخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه.

¹ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٧.

٢ - إن من أسباب اختيار الحبشة أنها كانت تشكل عمقاً تجارياً لقريش،
وصلاح ملكها وعدله، كذلك كونها بلداً آمناً لهم.

٣ - تحدّث جعفر عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالصلاة والزكاة
والصيام ومعروف أن تلك الأركان لم تكن مفروضة: كان المسلمون يتطوعون
في ذلك، لأن الزكاة فرضت في العام الثاني للهجرة، وقد جاء ذكر إيتاء الزكاة في
كثير من السور المكية وعليه فيحمل إيتاء الزكاة على التطوع.

يدل على هذا ما رواه الأئمة أحمد وابن خزيمة والنسائي وغيرهم¹ من حديث
قيس بن سعد بن عبادة قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر
قبل أن تنزل الزكاة، ثم نزلت فريضة الزكاة؛ فلم يأمرنا ولم ينهنا ونحن
نفعله، قال الحافظ ابن حجر: اختلف في أول وقت فرض الزكاة؛ فذهب الأكثر إلى
أنه وقع بعد الهجرة، وقيل أنه كان في السنة الثانية قبل فرض رمضان، أشار إليه
النووي في باب السير من الروضة، وجزم ابن الأثير في التاريخ بأن ذلك كان في
التاسعة، وهذا قول فيه نظر فقد تقدم في حديث ضمام بن ثعلبة وفي حديث وفد
عبد القيس وفي عدة أحاديث ذكر الزكاة، وكذا مخاطبة أبي سفيان مع هرقل
وكانت في أول السابعة وقال فيهما "يأمرنا بالزكاة" لكن يمكن تأويل كل ذلك

1 سنن النسائي باب فرض صدقة الفطر قبل نزول الزكاة ج ٥ ص ٥٢ أبو عبد الرحمن أحمد بن
شعيب النسائي دار المعرفة ببيروت الطبعة: الخامسة ١٤٢٠هـ. صحيح ابن خزيمة باب ذكر
الدليل على أن الأمر بصدقة الفطر كان قبل فرض لزكاة الأموال ج ٤ ص ٨١ محمد بن إسحاق بن
خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٠ - ١٩٧٠. أحمد في المسند
ج ٦ ص ٦.

كما سيأتي في آخر الكلام. وقوى بعضهم ما ذهب إليه ابن الأثير بما وقع في قصة ثعلبة بن حاطب المطولة ففيها: "لما أنزلت آية الصدقة بعث النبي صلى الله عليه وسلم عاملاً فقال: ما هذه إلا جزية أو أخت الجزية"، والجزية إنما وجبت في التاسعة فتكون الزكاة في التاسعة، لكنه حديث ضعيف لا يُحتج به.

وادعى ابن خزيمة في صحيحه أن فرضها كان قبل الهجرة، واحتج بما أخرجه من حديث أم سلمة في قصة هجرتهم إلى الحبشة وفيها أن جعفر بن أبي طالب قال للنجاشي في جملة ما أخبره به عن النبي صلى الله عليه وسلم: "ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام"، وفي استدلاله بذلك نظر، لأن الصلوات الخمس لم تكن فرضت بعد، ولا صيام رمضان؛ فيحتمل أن تكون مراجعة جعفر لم تكن في أول ما قدم على النجاشي، وإنما أخبره بذلك بعد مدة، وقد وقع فيها ما ذكر من قصة الصلاة والصيام، وبلغ ذلك جعفرًا فقال: "يأمرنا" بمعنى يأمر به أمته، وهو بعيد جدا، وأولى ما حمل عليه حديث أم سلمة هذا إن سلم من قدح في إسناده أن المراد بقوله: "يأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام" أي في الجملة، ولا يلزم من ذلك أن يكون المراد بالصلاة الصلوات الخمس ولا بالصيام صيام رمضان ولا بالزكاة هذه الزكاة المخصوصة ذات النصاب والحول، والله أعلم¹.

٤ - لم يرد أن النجاشي قد أخذ من المسلمين مالاً مقابل عقد الأمان وإقامة

المسلمين في دياره: أما في زماننا فإن المسلم أو حتى غيره يحتاج إن أراد التوجه

¹ فتح الباري ج ٣ ص ٣٦٧.

إلى كثير من البلدان - بما فيها الإسلامية والعربية - أن يدفع أموالاً عن نفسه وأبنائه .

٥ - قوة الحوار والعلم قد تغلب قوة المال فقد عاد وفد قريش خائباً .

الخروج إلى الطائف

قال ابن إسحاق : إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بهلاك خديجة وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها؛ وبهلاك عمه أبي طالب وكان له عضداً وحرزاً ومنعة وناصر على قومه وذلك قبل مهجره إلى المدينة بثلاث سنين .

فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، يلتمس النصر من ثقيف، والمنعة بهم من قومه ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل فخرج إليهم يلتمس النصر من ثقيف، والمنعة بهم من قومه ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل فخرج إليهم وحده .

قال ابن إسحاق : فحدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال : لما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم وهم إخوة ثلاثة عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبیب بن عمرو بن عمير بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح فجلس إليهم

رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فرفضوا الدعوة باستكبار فقال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكنتموا عني؛ فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه فعمد إلى ظل حبله من عنب فجلس فيه. وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف؛ فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك¹.

فلما رآه ابنا ربيعة، عتبه وشيبة، وما لقي تحركت له رحمهما؛ فدعوا غلاما لهما نصرانيا، يقال له عدّاس فقالا له: خذ قطفا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه؛ ففعل عدّاس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ثم قال له: كُـلْ؛ فلما وضع رسول الله

¹ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٢١.

صلى الله عليه وسلم فيه يده قال : باسم الله ؛ ثم أكل فنظر عدّاس في وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه : وعليه : وسلم ومن أهل أي البلاد أنت يا عدّاس وما دينك ؟ قال نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؛ فقال له عدّاس وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أخي ، كان نبيا وأنا نبي ؛ فأكب عدّاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه : قال : يقول : ابنا ربعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك . فلما جاءهما عدّاس قالاً له : ويلك يا عدّاس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا ، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي ، قالاً له : ويحك يا عدّاس لا يصرفنك عن دينك ؛ فإن دينك خير من دينه¹ . ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة بجوار المطعم بن عدي .

الدروس والعبر :

١- تنوعت أساليب الدعوة : سرّاً وجهراً ، وسلماً وحرّباً ، وجمعاً ، وفرداً ، وسفراً وحضراً ؛ فهذا هو عليه الصلاة والسلام ينتقل إلى الطائف ، ثم يتردد على القبائل ، ثم يهاجر ويستمر في دعوة الخلق إلى الله تعالى .

¹ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٢١

٢- لماذا اختار الرسول صلى الله عليه وسلم الطائف؟ كانت الطائف تمثل العمق الاستراتيجي لمأقريش، بل كانت لقريش أطماع في الطائف؛ فقد حاولت في الماضي أن تضم الطائف إليها، ووثبت على وادي وَّجَّ لما فيه من شجر وزرع، حتى خافتهم ثقيف وحالفتهم، وأدخلت معهم بني دوس. وقد كان كثير من أغنياء مكة يملكون الأملاك في الطائف، ويقضون فيها فصل الصيف، وكانت قبيلة بني هاشم وعبد شمس على اتصال مستمر مع الطائف، كما كانت تربط مخزوم مصالح مالية مشتركة بثقيف؛ فإذا اتجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف فذلك توجه مدروس، وإذا استطاع أن يجد له فيها موضع قدم، وعصبة تناصره؛ فإن ذلك سيفزع قريشاً، ويهدد أمنها ومصالحها الاقتصادية تهديداً مباشراً، بل قد يؤدي لتطويقها وعزلها عن الخارج، وهذا التحرك الدعوي السياسي الاستراتيجي، الذي يقوم به الرسول صلى الله عليه وسلم يدل على حرصه في الأخذ بالأسباب لإيجاد دولة مسلمة أو قوة جديدة، تطرح نفسها داخل حلبة الصراع؛ لأن إيجاد القوة من الوسائل المهمة في تبليغ دعوة الله إلى الناس.

٣- كان خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة على الأقدام: حتى لا تظن قريش أنه ينوي الخروج من مكة؛ لأنه لو خرج ركباً فذلك مما يثير الشبهة والشكوك، وأنه ينوي الخروج والسفر إلى جهة ما، مما قد يعرضه للمنع من الخروج من مكة دون اعتراض من أحد.

٤- بركة التسمية على الطعام وما آل إليه من أحداث.

٥- رزق الله لعباده مكتوب حتى في أشد الظروف . وذلك حينما قدم عدّاس

بقطف من العنب رغم شدته وفيه دليل على أن كل محنة فيها منحة .

٦ - حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم صنيع مطعم بن عدي، ومدى

الخطورة التي عرض نفسه وولده وقومه لها من أجله : لذلك قال عن أسارى بدر

السبعين يوم أسرهم : لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى

لتركتهم له¹ .

الاسراء والمعراج

جاء عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أتيت بالبراق، وهو

دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه، قال :

فركبته حتى أتيت بيت المقدس . قال : فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء . قال :

ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام

بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن؛ فقال جبريل صلى الله عليه وسلم :

اخترت الفطرة ثم عرج بنا إلى السماء...² .

والمعروف من الروايات جميعها أنه التقى ببعض الأنبياء في معراجه وأنه فرضت

الصلوات الخمس من فوق سبع سماوات .

رأى صلى الله عليه وسلم مجموعة من المشاهد منها :

1 صحيح البخاري، ج ٣ ص ١١٤٣، كتاب الخمس.

2 عيون الأثر لابن سيّد الناس ج ١ ص ١٩١ .

● قال: ثم رأيت رجالاً لهم مشافر كمشافر¹ الإبل في أيديهم قطع من نار كالأفهار² يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً.

● قال: ثم رأيت رجالاً لهم بطون لم أر مثلها قط بسبيل آل فرعون يمرون عليهم كالإبل المهيومة³ حين يعرضون على النار يطئونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك. قال: قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء أكلة الربا⁴.

ثم عاد صلى الله عليه وسلم إلى مكة وحدث الناس؛ فكذبه قومه حتى بعد أن أتاهم بالبراهين والأدلة من وصف بيت المقدس، لكن أبا بكر رضي الله عنه صدقه؛ فللقب بالصديق رضي الله عنه، وكفاه الله شأن المستهزئين.

الدروس والعبر:

١ - تُعد رحلة الإسراء رحلة إلى أحد البقاع المباركة: والتي يُشد إليها الرحال وهو المسجد الأقصى، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم

1 المشفر شفة البعير الغليظة. المعجم الوسيط ج ١ ص ١٠١٠.
 2 الفهرُّ الحجر قَدْرٌ ما يُدَقُّ به الجَوْزُ. لسان العرب ج ٥ ص ٦٦.
 3 هَامَتْ الناقَةُ نَهَيْمَ نَهَيْتَ عَلَى وَجْههَا لِرَعْيِ كَهَمَّتِ الْهَيْامُ نَحْوَ الدَّوَارِ جَنُونَ يَأْخُذُ الْبَعِيرَ حَتَّى يَهْلِكَ يَقَالُ بَعِيرٌ مَهْيُومٌ وَالْهَيْمُ دَاءٌ يَأْخُذُ الْإِبِلَ فِي رُؤُوسِهَا، وَالْهَيْامُ دَاءٌ يَأْخُذُ الْإِبِلَ فَتَهْيِمُ فِي الْأَرْضِ لَا تَرَعَى يَقَالُ نَاقَةٌ هَيْمَاءٌ، وَالْهَيْامُ بِالضَّمِّ أَشَدُّ الْعَطَشِ، وَالْهَيْامُ بِالْكَسْرِ الْإِبِلُ الْعَطَاشُ الْوَاحِدُ هَيْمَانُ الْأَزْهَرِيُّ الْهَيْمَانُ الْعَطْشَانُ قَالَ وَهُوَ مِنَ الدَّاءِ مَهْيُومٌ وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ الْوَاقِعَةُ: ٥٥ هِيَ الْإِبِلُ الْعَطَاشُ وَقَالَ الْفَرَاءُ شُرْبَ الْهَيْمِ قَالَ الْهَيْمُ الْإِبِلُ الَّتِي يُصِيبُهَا دَاءٌ فَلَا تَرَوِي مِنَ الْمَاءِ وَاحِدُهَا هَيْمٌ وَالْأُنْثَى هَيْمَاءٌ. لسان العرب ج ١٢ ص ٦٢٦.
 4 السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٤٠٦.

قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم والمسجد الأقصى¹، وفي هذا إشارة إلى السياحة الدينية – وليس المراد حرمة شد الرحال إلى غيرها وإنما الفضيلة التامة² – وسفره صلى الله عليه وسلم إلى الشام تعد الرحلة الثالثة إليها؛ فقد سبقها رحلتان الأولى لتعلم التجارة، والثانية كانت للتجارة، أما رحلة الإسراء فهي:

- رحلة تخفف عن النبي صلى الله عليه وسلم ما نزل به من أذى قومه .
- رحلة تكريم وعناية وبيان؛ فإذا لم يعرف أهل الأرض قدر هذا النبي صلى الله عليه وسلم فإن أهل السماء يعرفونها .

٢ - بركة الشام: قال الله تعالى: **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**

إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

(الإسراء: ١)، وقال تعالى: **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ**

(الأنبياء: ٧١) وقال تعالى: **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي**

بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (الأنبياء: ٨١).

وقال تعالى: **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا**

السَّرِيرَ سِرًّا وَافِيهَا لَيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ (سبأ: ١٨).

1 البخاري أبواب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ج ١ ص ٣٩٨ دار ابن كثير ١٤٠٧هـ. مسلم كتاب الحج باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ج ٤ ص ١٢٦ دار الجليل بيروت.

2 شرح صحيح مسلم للنووي ج ٥ ص ٢ بتصرف.

قال الإمام الطبري: يذكر تعالى نعمته التي كان أنعمها على هؤلاء القوم الذين ظلموا أنفسهم: وجعلنا بين بلدهم وبين القرى التي باركنا فيها وهي الشام، قرى ظاهرة¹.

ومن بركة الشام دعاء النبي صلى الله عليه وسلم للشام، عن ابن عمر قال: اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا. قال: قالوا: وفي نجدنا قال: قال: اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا. قال: قالوا: وفي نجدنا، قال: هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان².

وجاء في كتاب إتحاف الأخصا بفصائل المسجد الأقصى: اتفق العلماء على أن الشام أفضل البقاع بعد مكة والمدينة³.

والشام: قيل أن تسميتها نسبة إلى سام ابن نوح، ولم يدخلها سام بن نوح قط، وقال بعض الناس: إنه أول من اختطها فسميت به، واسمه سام بالسين؛ فعربت ف قيل: شام، بالشين، وقيل: إن الناس لما تفرقت لغاتهم ببابل، تيامن بعضهم يمين الشمس وتشاءم بعضهم شمالها؛ فسميت بهذا الاسم، ويقال إنما سميت الشام لأنها شامة الكعبة.

والشام بلاد كثيرة وحدودها من الغرب بحر الروم الأبيض المتوسط حالياً، ومن الشرق البادية من أيلة إلى الفرات، ثم من الفرات إلى حد الروم، ومن الشمال بلاد

1 جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري ج ٢٠ ص ٣٨٦.

2 أخرجه البخاري باب ما قيل في الزلازل والآيات ج ١ ص ٣٥١.

3 إتحاف الأخصا بفصائل المسجد الأقصى ص ١٣٦ شمس الدين محمد بن أحمد بن علي بن عبد الخالق، المنهاجي الأسيوطي ثم القاهري الشافعي المتوفى: ٨٨٠ هـ الهيئة المصرية العامة للكتب ١٩ - ١٩٨٤م.

الروم تركيا حالياً، ومن الجنوب حد مصر وتيه بني إسرائيل، وآخر حدودها مما يليه مصر رفح، وهي البلاد المباركة والأرض المقدسة التي جعلها الله منزل الأنبياء ومهبط الوحي ومحل الأولياء وموضع الحشر والمسرى¹. وذكر الواقدي في المغازي تحديد النبي صلى الله عليه وسلم للشام فروى: قالوا: ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك وضع حجراً قبلةً لمسجد تبوك بيده وما يلي الحجر، ثم صلى الظهر بالناس ثم أقبل عليهم فقال: ما هنا شام وما هنا يمن².

٣- ربط النبي صلى الله عليه وسلم للدابة: وفيه بيان لكيفية التوكل على الله وحماية المال من وسيلة نقل أو غيرها، ويطباق ذلك ضرورة الأخذ بالأسباب لحفظ وسائل النقل الخاصة أو حتى العامة. جاء عن أنس بن مالك يقول: قال رجل يا رسول الله: أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: اعقلها وتوكل³.

٤- اختيار النبي صلى الله عليه وسلم اللبن وتركه الخمر: وقد أشاد جبريل عليه السلام باختيار نبي الله صلى الله عليه وسلم ويمكن أن نلاحظ أمرين:

الأول: ما أشار إليه القرآن الكريم لنعمة لبن الأنعام: قال الله تعالى: **وَإِنَّ لَكُمْ فِي**

الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدِمِّ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ

1 الروض المعطار بتصرف ص ٣٥٥.

2 أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هاشم المتوفى سنة ٥٢٠٧ هـ ص ١٠٢١.

3 أخرجه الترمذي وقال هذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ج ٤ ص ٦٦٨.

(النحل: ٦٦)، وقال تعالى: **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي**

بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (المؤمنون: ٢١).

الثاني: قال الإمام النووي: اخترت علامة الإسلام والاستقامة وجعل اللبن علامة؛ لكونه سهلاً طيباً طاهراً سائغاً للشاربين سليم العاقبة، أما الخمر فإنها أم الخبائث وجالبة لأنواع من الشرف في الحال والمآل.

الثالث: يضاف لما سبق؛ أخذ النبي صلى الله عليه وسلم الشراب الذي له قيمة مالية شرعاً، وهو اللبن والذي يُعدّ مصدر كثير من الصناعات الغذائية، حيث شكّل ذلك الاختيار النبوي مادة اقتصادية كبيرة يومية لأمته عبر العصور، وكم من تجارة ينتفع بها العباد في كل يوم من سلع الألبان ومشتقاتها.

وبمقابل ذلك نبذ صلى الله عليه وسلم الخمر وتركه لأنه لا يُضمن ثمنه عند إتلافه، وهناك خلاف بين الفقهاء في ضمان ما كان له قيمة عند غير المسلمين كالخمر والخنزير كالاتي:

- أوجب بعضهم الضمان إذا أتلف المسلم ما كان مقوماً لدى غير المسلمين من أهل العهد كالحنفية¹ والمالكية².

- وبعضهم لم يضمنوا، كالشافعية والحنابلة³، قال الإمام الغزالي: أما الخمر فلا يضمن عندنا لا للذمي ولا للمسلم⁴.

1 البحر الرائق الشيخ زين الدين بن ابراهيم بن محمد المعروف بابن نجيم المصري الحنفي ج ١٦ ص ٤٣٧، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان الطبعة الاولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

2 المدونة الكبرى ج ١٦ ص ٢٧٨.

3 المغني لابن قدامة ج ٥ ص ١٧٣.

4 الوسيط في المذهب لحجة الإسلام الغزالي ج ٣ ص ١٥٤، دار النشر / دار السلام.

٥- خطورة أكل أموال اليتامى ظلماً: رأى صلى الله عليه وسلم عاقبة فاعل ذلك،

وجاءت آيات كثيرة تبين كيفية التعامل مع أموال اليتامى، منها:

- إصلاح أحوالهم، قال تعالى: **فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ**

إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَاعْتَنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (البقرة: ٢٢٠)

- حفظ أموالهم حتى يعرف صلاحهم وأهليتهم في استعمالها مع الأكل

بالمعروف عند الحاجة، قال تعالى: **وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ**

فَإِنْ أَنْسَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ

يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا

دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (النساء: ٦)، أخرج

البخاري عن عائشة رضي الله عنها: **وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ**

فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ، قالت: أنزلت في والي اليتيم أن يصيب من ماله

إذا كان محتاجاً بقدر ماله بالمعروف.

- استحباب تطيب نفوسهم إذا حضروا قسمة ميراث، قال تعالى: **وَإِذَا حَضَرَ**

القِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا

مَعْرُوفًا (النساء: ٨)

- بيان التأمين المستقبلي للذرية، قال تعالى: **وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَ كُوا مِنْ خَلْفِهِمْ**

ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (النساء: ٩).

- وضوح التهديد والوعيد في العدوان على مالهم، قال تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ**

يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا

(النساء: ١٠).

- عدم الاقتراب من مالهم إلا بأحسن وجه، قال تعالى: **وَلَا تَقْرَبُوا أَمْوَالَ الْيَتِيمِ**

إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا

(الإسراء: ٣٤).

٦- خطورة أكل الربا: أتت آيات كثيرة تبين خطورة ذلك، قال تعالى: **الَّذِينَ**

يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ

فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ*

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (البقرة: ٢٧٥ -

٢٧٦) وعن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اجتنبوا

السبع الموبقات، قالوا يا رسول الله: وما هن؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل

النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات¹.

بيعتا العقبة

لما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم وإنجاز مواعده له، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار؛ فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم². فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً؛ فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن؛ فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

وكانت البيعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وفق بنود عديدة فعن عبادة بن الصامت حدث³ أنه قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الأولى على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا ننزي ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف فإن وفيتم فلکم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا؛ فهو كفارة له وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر.

¹ صحيح البخاري باب قول الله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً) النساء ١٠ / ج ٣ ص ١٠١٧ صحيح مسلم باب بيان الكبائر وأكبرها ج ١ ص ٦٤.

² سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٢٨.

³ السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ١٨٠، سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٣٣.

وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير وعمل بالدعوة وأقام بضيافة أسعد بن زرارة .

قال ابن إسحاق : ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة، وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة؛ فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة، من أوسط أيام التشريق حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته والنصر لنبيه وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله¹ .

ثم كانت بيعة العقبة الثانية قال فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم² .

وفي رواية: فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم؛ فواعدناه شعب العقبة؛ فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله علام نبايعك؟ قال: تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة؛ فقمنا إليه فبايعناه³ .

الدروس والعبر:

¹ سيرة ابن هشام ص ٤٣٩ .

² سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٢٢ .

³ السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ١٩٥ .

١- تضمن عقد بيعة العقبة بنوداً عديدة شملت على الضروريات الخمس :
والتي أقرها الفقهاء وهي : حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، ويلاحظ أنه
قد جاء فيها :

- التوحيد .

- عدم العدوان على الأموال والأعراض والذرية .

- الطاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعروف .

- صيانة الكلام من البهتان .

وكان العوض لهذا العقد هو الجنة، أخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه
يقول : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل
ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة .

٢- نهى الإسلام عن السرقة : وهذا من قبيل حفظ الأمن الاجتماعي من جهة
المال، وهذا النهي جاء بداية العهد المكي ثم فصل في العهد المكي، ليشمل المال
الخاص والعام .

٣- حث الإسلام على إكرام الضيف : كان ذلك من أخلاق العرب، وقد نزل
مصعب رضي الله عنه بضيافة أسعد بن زرارة .

٤- كان من ضمن بنود البيعة الثانية الإنفاق في اليسر والعسر : هذا من صفات
المؤمنين الصادقين المتقين أنهم ينفقون في كل أحوالهم قال الله تعالى : **وَمَثَلُ الَّذِينَ**

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا

وَابِلٌ فَاتَتْ أَكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (البقرة: ٢٦٥)، وقال تعالى: وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤).

والإنفاق يمثل ٧٠-٧٥٪ من بنية أي اقتصاد، وبه تدور عجلته، وخاصة في أيام الشدة والعسر.

الهجرة إلى المدينة

قال ابن إسحاق: لما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم في الحرب، وبإياعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه. وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، والحق بإخوانهم من الأنصار. فتتابع المهاجرون وبذلوا في سبيل ذلك الغالي والنفيس من مفارقة للوطن وبذل للمال في قصص عجيبة تثبت صدق الإيمان، وحين أراد صهيب رضي الله عنه الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً؛ فكثير مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك.

فقال لهم صهيب أرايتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال فإني جعلت لكم مالي. قال فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ربح

صهيب: ربح صهيب¹.

ولم يكن لهؤلاء المهاجرين من مكان ينزلون فيه إلا أن أهل المدينة من الأنصار قدّموا دروساً فائقة الحس والجمال حيث كان المهاجرون ينزلون على الأنصار في بيوتهم ودورهم.

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة² بعدما هاجر أصحابه، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق رضي الله عنه ما.

وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً؛ فيطمع أبو بكر أن يكونه.

فشل مؤامرة قريش

اجتمعت قريش للمؤامرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلدًا نسيباً وسيطاً فينا: ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه.

¹ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٧٨.

² سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٨٠.

فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً؛ فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً.

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه؛ فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم، قال لعلي بن أبي طالب: **نم على فراشي وتسج ببردي هذا الأخضر¹؛ فم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم،** وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام في برده ذلك إذا نام. وخرج صلى الله عليه وسلم من بينهم بمعجزة من الله حيث أخذ حفنة من تراب في يده، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات: **يس* وَالْقُرْآنِ**

الْحَكِيمِ* إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ* عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ* تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (يس):

(٥-١) إلى قوله تعالى: **وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ**

لَا يُبْصِرُونَ (يس: ٩) حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمداً، قال: خبيكم الله قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته أفما ترون ما بكم؟.

¹ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٨٣.

قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً¹ ببرد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فيقولون والله إن هذا لمحمد نائماً، عليه برده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي رضي الله عنه عن الفراش؛ فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا.

إلى بيت أبي بكر ثم إلى الغار

قال ابن إسحاق: وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً ذا مال؛ فكان حين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تعجل لعل الله يجد لك صاحباً، قد طمع بأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما يعني نفسه حين قال له ذلك؛ فابتاع راحلتين فاحتبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك.

وعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار إما بكرة وإما عشية حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها. قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلا لأمر حدث. قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره؛ فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر؛ فقال

¹ متغطياً.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخرج عني من عندك؛ فقال يا رسول الله: إنما هما ابنتاي وما ذاك؟ فذاك أبي وأمي؛ فقال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة. قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، قال: الصحبة. قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يا نبي الله إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتكما لهذا. فاستأجرا عبد الله بن أرقط - رجلاً من بني الدئل بن بكر وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو، - وكان مشركاً - يدلهما على الطريق فدفعاً إليه راحلتيهما؛ فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

قال ابن إسحاق: ولم يعلم فيما بلغني، بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد، حين خرج إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر. أما علي فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما بلغني - أخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته صلى الله عليه وسلم.

فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج أتى أبا بكر بن أبي قحافة فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ثم عمد إلى غار بثور - جبل بأسفل مكة - فدخلاه وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر؛ وأمر عامر بن فهيرة

مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما. قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر وجعلت قريش فيه حين فقدوه مئة ناقة لمن يرده عليهم.

الرحلة من الغار نحو يثرب وقصة سراقه بن مالك

بدأت رحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم باتجاه المدينة قال ابن إسحاق: فلما قرب أبو بكر رضي الله عنه الراحلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم له أفضلهما، ثم قال اركب فذاك أبي وأمي؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني لا أركب بغيراً ليس لي؛ قال: فهي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي، قال: لا، ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به؟ قال كذا وكذا، قال قد أخذتها به قال هي لك يا رسول الله. فركبا وانطلقا وأردف أبو بكر الصديق رضي الله عنه عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما في الطريق.

وروى ابن إسحاق عن سراقه بن مالك بن جُعشم¹، قال: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى المدينة، جعلت قريش فيه مئة ناقة لمن رده عليهم. قال: فبينما أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا، حتى وقف علينا؛ فقال والله لقد رأيت ركبته ثلاثة مروا علي أنفاً، إني لأراهم محمداً وأصحابه، قال:

¹ سراقه بن مالك بن جعشم بن مالك بن عمرو بن تيم بن مدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة الكناني المدلجي، يكنى أبا سفيان. كان ينزل قديداً، يعد في أهل المدينة، ويقال: سكن مكة، مات سراقه بن مالك سنة أربع وعشرين، أول خلافة عثمان، رضي الله عنه، وقيل: إنه مات بعد عثمان، والله أعلم. أسد الغابة لابن الأثير ج ٢ ص ٤١٢.

فأومأت إليه بعيني: أن اسكت؛ ثم قلت: إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم، قال: لعله ثم سكت.

ثم لحق سراقه برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فركبت في أثره؛ فبينما فرسي يشتد بي، عثرت بي؛ فسقطت عنه. قال فقلت: ما هذا؟، قال ثم أخرجت فداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره "لا يضره"، قال: فأبيت إلا أن أتبعه فركبت في أثره. فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثرت بي فرسي؛ فذهبت يداه في الأرض وسقطت عنه ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالإعصار. قال: فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع مني، وأنه ظاهر. قال: فناديت القوم فقلت: أنا سراقه بن جعشم انظروني أكلمكم فوالله لا أريكم ولا يأتيكم مني شيء¹.

قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: قل له وما تبتغي منا؟ قال: فقال ذلك أبو بكر، قال: قلت: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك. قال اكتب له يا أبا بكر. قال: فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة أو في خزفة ثم ألقاه إلي فأخذته فجعلته في كنانتي، ثم رجعت؛ فسكت؛ فلم أذكر شيئاً مما كان حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرغ من حنين والطائف، خرجت ومعى الكتاب لألقاه فلقيته بالجعرانة. قال: فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار. قال: فجعلوا يقرعونني بالرمح ويقولون إليك إليك، ماذا تريد؟ قال: فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته والله لكأنني أنظر إلى ساقه في غرزه كأنها جمارة. قال: فرفعت يدي بالكتاب ثم قلت: يا رسول الله هذا

¹ سيرة ابن هشام ص ٤٩٠.

كتابك لي، أنا سراقه بن جعشم، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يوم وفاء وبرّ أذنه. قال: فدنوت منه فأسلمت.

ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فما أذكره إلا أنني قلت: يا رسول الله الضالة من الإبل تغشى حياضي، وقد ملأتها لإبلي، هل لي من أجر في أن أسقيها؟ قال: نعم في كل ذات كبد حرّى¹ أجر، قال: ثم رجعت إلى قومي؛ فسقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقتي².

قال ابن إسحاق: فلما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرقط، سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل ثم قدم - الدليل - بهما قباء، على بني عمرو بن عوف لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين.

تكافل الأنصار في المدينة المنورة مع المهاجرين

لقد كان من نتائج إيمان الأنصار ومبايعتهم وتعهدهم بالنصرة أن دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى الهجرة إلى المدينة، كما كان من نتائج ذلك أن ظهرت ظاهرة عظيمة من التكافل بين المسلمين؛ ففتحت بيوت الأنصار أبوابها وقلوب أصحابها لوفود المهاجرين، واستعدت لاحتضانهم رجالاً ونساءً، إذ أصبح المسكن الواحد يضم المهاجر والأنصاري، والمهاجرة والأنصارية، يتقاسمون المال والمكان والطعام والمسؤولية الإسلامية وقد مدح القرآن الكريم وأثنى على فعلهم؛

¹ أي لشدة حرّها قد عطشت.

² سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٩٠

في آيات خالدة باقية، قال الله تعالى: **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ* وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَخْنَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (الحشر: ٨ - ٩).

لقد أبرزت الآيتان صورتين صادقتين:

الأولى: أهم الملامح البرّاقة للمهاجرين: أُخرجوا مكرهين من ديارهم، وأموالهم في مكة، من الأذى لا لذنوب إلا أن يقولوا ربنا الله واعتمادهم على الله في فضله ورضوانه، لا ملجأ لهم سواه ومع قلتهم ومطاردتهم ينصرون الله ورسوله فهم صادقون مع الله ورسوله ومع الحق.

الثانية: صورة وضيعة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار الذين بلغت أفعالهم آفاق بل عنان السماء حينما أنزلت هذه الآيات، حيث عاشوا في يثرب دار الهجرة ودار الإيمان حيث غدا الإيمان كأنه دارهم ونزلهم ووطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم، وتسكن إليه أرواحهم، ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين، بهذا الحب الكريم، وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية، وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء، ولا يجدون في أنفسهم شيئاً من حسد أو ضيق مما أخذه المهاجرون من أموال فيء بني النضير بل

إنه قمة الإيثار على النفس مع الحاجة فكانوا حالة وصورة خارقة لمألوف البشر قديماً وحدثاً.

وبالمقابل ظهر الاستعفاف مع الحاجة في أمثلة كبرى كما روى أنس رضي الله عنه قال: قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة فأخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري فعرض عليه أن ينافسه أهله وماله فقال عبد الرحمن بارك الله لك في أهلك ومالك؛ دلني على السوق فريح شيئاً من أقط وسمن فرآه النبي صلى الله عليه وسلم بعد أيام وعليه وضر¹ من صفرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **مَهِيمٌ² يا عبد الرحمن**. قال يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار. قال: **فما سُقت فيها³؟** فقال: وزن نواة من ذهب⁴ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **أولم ولو بشاة⁵**. لقد كفاه الكافي ثم تزوج من بركة تجارته فأشار له النبي صلى الله عليه وسلم أن يسهم في التكافل الاجتماعي ولو بوليمة صغيرة.

1 الوضـر: الدرـن والدسـم والوسـخ من الدسـم أو غيره. وفي رواية: ردع من زعفران والردع هو أثر الطيب. قال الإمام النووي رحمه الله: والصحيح في معنى هذا الحديث أنه تعلق به أثر من الزعفران وغيره من طيب العروس، ولم يقصده ولا تعمد التزعفر؛ فقد ثبت في الصحيح النهي عن التزعفر للرجال فهذا هو الصحيح في معنى الحديث، وهو الذي اختاره القاضي والمحققون. سرح صحيح مسلم ج ٩ ص ٢١٦.

2 مهيم: سؤال بمعنى ما شأنك؟

3 أي ما أمهـرتـها قيل للمهر سـوق لأن العرب كانوا إذا تزوجوا ساقوا الإبل والغنم مهراً لأنها كانت الغالب على أموالهم. لسان العرب لابن منظور ج ١٠ ص ١٦٦.

4 النواة من الذهب خمسة دراهم.

5 أخرجه البخاري كتاب فضائل الصحابة باب كيف أخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ج ٣ ص ١٤٣١ دار ابن كثير ط ٣.

الربح الحقيقي هو ربح العقيدة وسلامة الدين

لأن فيه سعادة الدنيا والأخرة: **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ** (البقرة: ٢٠٧) قال ابن عباس، وأنس، وسعيد بن المسيب، وأبو عثمان النهدي، وعكرمة، وجماعة: نزلت في صُهب بن سنان الرومي، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرّد منه ويهاجر؛ فَعَلَّ. فتخلص منهم وأعطاهم ماله؛ فأنزل الله فيه هذه الآية؛ فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرّة. فقالوا: ربح البيع. فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية، يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "ربح البيع صهيب، ربح البيع صهيب".

تجهيز أبي بكر رضي الله عنه لرحلة الهجرة

ليس غريباً على أبي بكر رضي الله عنه أن يوجد بماله في سبيل الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وهذه عادته من قبل الهجرة وبعد الهجرة إلى آخر لحظة في حياته رضي الله عنه وتأتيه شهادة في كتاب الله تعالى في صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا خَرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (التوبة: ٤٠).

قال ابن إسحاق: عن أسماء بنت أبي بكر¹، قالت: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج أبو بكر معه احتمل أبو بكر ماله كله ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف؛ فانطلق بها معه. قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة، وقد ذهب بصره؛ فقال: والله إني لا أراه قد فجعكم بماله مع نفسه. قالت: قلت: كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً. قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه؛ فقال: لا بأس إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن وفي هذا بلاغ لكم، ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكنني أردت أن أسكن الشيخ بذلك².

توكيل الأمين في أداء الأمانة مهما بلغت الظروف

يدل صنيع رسول الله صلى الله عليه وسلم على جواز أن يوكل الرجل من يتسم فيه الأمانة معرفة وتجربة كي يقوم بدفع الحقوق إلى أهلها قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُوَدُّوا الْإِيمَانَ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا** (النساء: ٥٨).

¹ أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها أم عبد الله بن الزبير، ذات النطاقين كانت أسن من أم المؤمنين عائشة وهي أختها لأبيها عاشت طال عمرها، وعميت، وبقيت إلى أن قتل ابنها عبد الله سنة ثلاث وسبعين، وعاشت بعد قتله. أه عن أسد الغابة في معرفة الصحابة (النساء ص ٧).

² سيرة ابن هشام ص ٤٩٠.

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك**¹؛ فلا يحل للإنسان المسلم أن يخون الأمانة ولو خان صاحبها؛ فإن خيانة الأمانة صفة قبيحة من صفات أهل النفاق؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان**²، وفي رواية أخرى: **آية المنافق ثلاث وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم**³.

الاعراض المالي من قبل قريش

جعلت مائة ناقة لمن يرد عليهم محمداً صلى الله عليه وسلم، وهذا ليس بالجديد بالنسبة لأفعال قريش؛ فقد فعلت ذلك يوم أرسلت الهدايا إلى النجاشي فلم تفلح، وكما أنها فعلت ذات الوسيلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه وعرضت عليه من أموالها كي يكون أكثرهم مالاً مقابل تركه للدعوة فلم تنجح.

بشرى ووفاء

لقد كان الوفاء لسراقة رضي الله عنه في موقفين:

1 أخرج أبو داود كتاب الإجارة، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده ج ٢ ص ٣١٢..
2 أخرج البخاري كتاب الإيمان باب علامة المنافقين ج ١ ص ٢١ ومسلم كتاب الإيمان باب بيان خصال المنافق. ج ١ ص ٥٦
3 أخرج مسلم كتاب الإيمان باب بيان خصال المنافق ج ١ ص ٥٦.

الأول يوم: فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حنين والطائف : حيث خرج سراقة ومعه الكتاب فلقى النبي صلى الله عليه وسلم بالجعرانة . قال : فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار . قال : فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون إليك إليك ، ماذا تريد ؟ قال : فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته والله لكأنني أنظر إلى ساقه في غرزه كأنها جمارة . قال : فرفعت يدي بالكتاب ثم قلت : يا رسول الله هذا كتابك لي ، أنا سراقة بن جَعْشَمٍ ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم وفاء وبرّ أدنه .

الثاني: زمن الفتوح في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حيث تم تنفيذ ما وعد وبشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لسراقة في زمن سيدنا عمر رضي الله عنه . أخرج البيهقي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : أين سراقة بن جعشم فأتى به أشعر الذراعين دقيقتها فأعطاه سوارى كسرى ؛ فقال : إلبسهما ؛ ففعل ؛ فقال : قل الله أكبر ، قال : الله أكبر ، قال : قل : الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة بن جَعْشَمٍ أعرابياً من بني مُدَلِجٍ وجعل يقلب بعض ذلك بعضاً ؛ فقال : إن الذي أدى هذا لأمين ؛ فقال له رجل : أنا أخبرك أنت أمين الله ، وهم يؤدون إليك ما أديت إلى الله فإذا رتعت رتعوا ، قال : صدقت ، ثم فرقه . قال الشافعي : وإنما ألبسهما سراقة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسراقة ونظر إلى ذراعيه : كأنني بك قد لبست سوارى كسرى ، قال : ولم يجعل له إلا سوارين¹ . وروى ابن الأثير عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسراقة ابن

¹ سنن البيهقي ج ٢ ص ١٤٩ .

مالك: كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ومنطقته وتاجه؟ قال: فلما أتى عمر بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه، دعا سراقه بن مالك وألبسه إياهما. وقاله له: ارفع يديك، وقل: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقه رجلاً أعرابياً، من بني مدلج، ورفع عمر صوته¹.
وينظر في فعل عمر رضي الله عنه يومئذ إلى إشارتين:

الأولى منهما: تنفيذ أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل صغيرة وكبيرة.
وأما الثانية: فهو تنفيذ بيت المال ما كان قد ترتب عليه من مستحقات وعود؛ فإسوارى كسرى في أصل الأحكام الشرعية هو من نصيب بيت المال والغنائم، لكن ذلك النفع كان موعوداً به من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة النبوة والتشريع بداية، وبصفة التمثيل المالي لبيت المال بالشخصية المعنوية لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقام سيدنا عمر بإظهار المعجزة النبوية ثم وضعها في بيت المال، ويقال أملاك كسرى قد بلغت غلتها نحو سبعة ملايين درهم².

مشروعية مهنة مرشد السفر والسياحة

يؤخذ ذلك من استعانة رسول الله صلى الله عليه بعبد الله بن أرقط - أو أريقط كما ذكر ابن هشام - حيث استأجره أبو بكر رضي الله عنه كي يكون دليلاً في السفر؛ فلو لم يكن ذلك العقد مشروعاً لما تعاقد به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو

1 أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٢ ص ٤١٢.
2 عصر الخلافة الراشدة الدكتور أكرم ضياء العمري، ص ٢٠٢.

بكر رضي الله عنه، ويشترط للدليل أن يكون صاحب خبرة وأن يكون أميناً معروفاً بأمانته، وعليه يقع عاتق نجاح الرحلة والسفر.

مشروعية توظيف الموارد البشرية المتاحة حسب خبرتها وطاقاتها

كاستخدام أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه للتموين وعبد الله بن أبي بكر لجمع المعلومات ومعرفة أحوال قريش، وعامر بن فهيرة للتمويه على تحرك أسماء رضي الله عنه، وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم يسمع ما يأترون به وما يقولون في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر. وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه يرعى في عيان أهل مكة؛ فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا؛ فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفي عليه.

وتروي أسماء رضي الله عنه مشهد ما حدث معها قالت¹: صنعت سفرة² رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة قالت: فلم نجد لسفرتي ولا لسقائه ما نربطهما به فقلت لأبي بكر: والله ما أجد شيئاً أربط به

1 صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير باب حمل الزاد في الغزو ج ٣ ص ١٠٨٣.
2 أي زاداً في جراب، لأن أصل السفرة في اللغة الزاد الذي يصنع للمسافر، ثم استعمل في وعاء الزاد، ومثله المزادة للماء، وكذلك الراوية فاستعملت السفرة في هذا الخبر على أصل اللغة. وأفاد الواقدي أنه كان في السفرة شاة مطبوخة. فتح الباري لابن حجر ج ٧ ص ٢٣٦.

إلا نطاقي . قال : فشقيه باثنين فاربطيه بواحد السقاء وبالأخر السفرة؛ ففعلت؛
فلذلك سميت ذات النطاقين¹ .

مشروعية بيع التولية

اعتبر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه : ولكن ما الثمن
الذي ابتعتها به؟ بأنه بيع تولية، وعليه فإن زاد كان مرابحة وإن قلّ كان ضيعة .

¹ ذات النطاق: بكسر النون، وللكشميهني النطاقين بالتثنية، والنطاق ما يشد به الوسط، وقيل: هو إزار فيه تكة، وقيل: هو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى على الأسفل قاله أبو عبيدة الهروي، قال: وسميت ذات النطاقين لأنها كانت تجعل نطاقا على نطاق، وقيل: كان لها نطاقان تلبس أحدهما وتجعل في الآخر الزاد فتح الباري لابن حجر ج ٧ ص ٢٣٦ .

الفصل الرابع من الهجرة إلى غزوة بني المصطلق

انتهت مرحلة أساسية من مراحل الدعوة إلى الله، ودع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وطنه الذي ولد ونشأ وعاش فيه طفولته وشبابه وزواجه الأول بخديجة رضي الله عنها، والثاني بسودة بنت زمعة¹ رضي الله عنها، كما ودع مراحل دعوته الأولى وما لقيه فيها من أذى، واتجه صوب المدينة المنورة الموطن الجديد حيث طاب فيها كل شيء؛ فسميت طيبة بعد أن كانت تسمى يثرب، وبدأت بوصوله مرحلة جديدة في حياته صلى الله عليه وسلم وحياته أصحابه وكذلك في أحوال العالمين في مختلف مجالات الحياة.

العارة والبناء المكاني والاجتماعي

لقد كانت مرحلة الوصول إلى المدينة هي مرحلة جديدة مليئة بالدروس والعبر في البناء والعبادة والطاعة والتكافل والمعاملة بل وفي الحياة كلها، وكان من ضمنها كتابة الدستور؛ الذي حوى أنوار إشراق تلك المرحلة وفق ما سيأتي.

¹ وكان ذلك بعد وفاة خديجة رضي الله عنها حيث خطبت له خولة بنت حكيم بن أمية عائشة وعقد صلى الله عليه وسلم عليها قال: ثم خرجت خولة بنت حكيم فدخلت على سودة فقلت: أي سودة ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة. قالت: وما ذاك قالت: أرسلني رسول الله أخطبك عليه. قالت: فقال وددت ادخلي على أبي فانكري له ذلك قالت وهو شيخ كبير قد تخلف عن الحج فدخلت عليه فحييته بتحية أهل الجاهلية ثم قلت إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسلني أخطب عليه سودة قال: كفو كريم فماذا تقول صاحبتك قالت تحب ذلك. قال ادعيتها إلي فدعيت له فقال أي سودة زعمت هذه أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسل يخطبك وهو كفو كريم أفتحبين أن أزوجه قالت: نعم قال فادعيه لي فدعته فجاء فزوجه. تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤١٢.

بناء مسجد قباء وقصة سلمان رضي الله عنه

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء¹، أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسس مسجده، ثم أخرج الله من بين أظهرهم يوم الجمعة.

وكان سلمان الفارسي رضي الله عنه قد قدم المدينة بحثاً عن الحقيقة في رحلة عجيبة فوالله ما هو إلا أن سمعتها فأخذتني العرواء - يقول الرعدة - حتى ظننت لأسقطن على صاحبي. ونزلت أقول: ما هذا الخبر؟ فرجع مولاي يده فلكمني لكمة شديدة، وقال: مالك ولهذا، أقبل على عمك. فقلت: لا شيء، إنما سمعت خبراً؛ فأحببت أن أعلمه. فلما أمسيت، وكان عندي شيء من طعام؛ فحملته وذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء؛ فقلت له: بلغني أنك رجل صالح، وأن معك أصحاباً لك غرباء، وقد كان عندي شيء من الصدقة فرأيتكم أحق من بهذه البلاد؛ فهناك هذا؛ فكل منه. قال: فأمسك، وقال لأصحابه: كلوا. فقلت في نفسي: هذه خلة مما وصف لي صاحبي، ثم رجعت، وتحول رسول الله إلى المدينة؛ فجمعت شيئاً كان عندي ثم جئته به فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية؛ فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل أصحابه؛ فقلت: هذه خلتان. ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتبع جنازة وعلي شملتان لي وهو في أصحابه؛ فاستدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف. فلما رأيته استدبرته عرف أنني أستثبت في شيء ووصف لي؛ فألقى رداءه عن ظهره؛ فنظرت إلى الخاتم فعرفته؛ فانكبت عليه أقبله وأبكي. فقال لي: تحول. فتحولت؛

¹ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٩٤.

فقصصت عليه حديثي؛ فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابه. ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدر وأحد. ثم قال رسول الله: **كاتب يا سلمان**. فكاتبته صاحبي على ثلاث مئة نخلة أحبيها له بالفقير¹ وبأربعين أوقية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: **أعينوا أخاكم**؛ فأعانوني بالنخل الرجل بثلاثين ودية²، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، حتى اجتمعت ثلاث مئة ودية³. فقال: **اذهب يا سلمان ففقر لها؛ فإذا فرغت فاءتني أكون أنا أضعها بيدي**؛ ففقرت لها وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها، جئته وأخبرته؛ فخرج معي إليها نقرب له الودي، ويضعه بيده. فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة. فأديت النخل، وبقي علي المال. فأتني رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة دجاجة من ذهب من بعض المغازي. فقال: **ما فعل الفارسي المكاتب؟ فدعيت له؛ فقال: خذها فأدبها ما عليك**، قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟ قال: **خذها فإن الله سيؤدي بها عنك**. فأخذتها فوزنت لهم منها أربعين أوقية، وأوفيتهم حقهم وعتقت؛ فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق حرّاً، ثم لم يفتني معه مشهد⁴.

الدروس والعبر:

1 الفقير هو حفير يحفر حول الفسيلة إذا غرست.

2 صغار الفسيل.

3 الودي على فعيل فسيل النخل وصغاره وأحدثها وديّة وأديا، لسان العرب، ج ١٥ ص ٣٨٣.

4 سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١ ص ٥١١.

١- مسجد قباء نواة مؤسسة الوقف في الإسلام: لقد كان بناء رسول الله صلى الله وتأسيسه لمسجد قباء هو أول خطوة في المؤسسة الوقفية التي ترفد بيت المال العام، وقد تطورت فيما بعد لتشمل المسجد النبوي وهبات الصحابة رضوان الله عليهم وذلك كمساهمة عثمان رضي الله عنه في دعم البنى التحتية للمسلمين، كوقفه لبئر رومة، وهي بئر عذبة الماء كانت ملكاً لرجل من أهل الكتاب يبيع ماءها للمسلمين في المدينة المنورة¹. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قدم عرضاً فقال: من يشتري بئر رومة يوسع بها على المسلمين وله الجنة².

٢- المسارعة إلى استغلال العمر في بناء الأرض والإنسان وعمران الآخرة: كان صلى الله عليه وسلم قادماً من سفر بعيد عبر وسيلة نقل تخص ذلك الزمان، وعندما مرّ بضواحي المدينة لم يترك مروره دون عمل، مع أن طبيعة السفر هي التعب والمشقة، بل سارع إلى وضع لبنات أول مسجد في الإسلام. وهكذا ينبغي على المسلم أن يكون يقظاً للحظات عمره يترك فيها بصمات الأمل والعمل في بقاع الأرض التي يمر فيها، ولعلنا نتذكر قصة رحلات ذي القرنين وما كان يفعل في كل بقعة من أرض الله الواسعة.

1 أخرج البخاري باب إذا وقف أرضاً أو بئراً ج ٣ ص ١٠٢١، الترمذي باب في مناقب عثمان ج ٥ ص ٦٢٥، النسائي باب من جهز غازياً فقد غزا ج ٣ ص ٣١، وغيرهم.
2 زاد المعاد لابن قيم الجوزية ج ٥ ص ٧١٣.

٣- يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة: وهذه من علامات النبوة حيث يأكل الهدية ولا يقبل الصدقة عن أبي هريرة. أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أتى بطعام سأل عنه فإن قيل هدية أكل منها وإن قيل صدقة لم يأكل منها¹.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن الحسن بن علي أخذ تمر من تمر الصدقة فجعلها في فيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم بالفارسية: كخ كخ أما تعرف أنا لا نأكل الصدقة²، ولقد جاءت روايات كثيرة تبين سبب تركه صلى الله عليه وسلم للصدقة منها: إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس وإنما لا تحل لمحمد ولا لآل محمد³. أي أنها مطهرة للناس، ولأن في خمس الخمس ما يكفيهم.

٤- إعانة الله للمكاتب: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ثلاثة حق على الله عز وجل عونهم، المكاتب⁴ الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله⁵. وهذا فيه إشارة إلى فضل من يعين هؤلاء الأصناف الثلاثة، قال المناوي في فيض القدير: (تنبيه) قال العارف ابن عربي: إذا رأيت واحداً من هؤلاء فأعنه بطائفة من مال أو قال أو حال فإنك إذا أعنتهم فأنت نائب الحق في عونهم فإنه إذا كان عون هؤلاء حقاً على الله فمن أعانهم فقد أدى عن الله ما أوجبه على نفسه فيتولى الله كرامته بنفسه فما دام

1 أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب قبول النبي الهدية ورده الصدقة، ج ٣ ص ١٢٠

2 البخاري كتاب الجهاد والسير باب من تكلم بالفارسية والبطانة، ج ٣ ص ١١٨.

3 أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب ترك استعمال آل النبي على الصدقة ج ٢ ص ١١٩.

4 المكاتب: العبد الذي اتفق مع سيده على حريته مقابل مال معين.

5 أخرجه الترمذي بإسناد حسن وكذا النسائي والحاكم في المستدرک على شرط مسلم.

المجاهد مجاهداً بما أعنته عليه فأنت شريكه في الأجر ولا ينقصه شيء وإذا ولد للناكح ولد صالح كان لك في ولده وعقبه أجر وأقر به عين محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة وهو أعظم من عون المكاتب والمجاهد لما أن النكاح أفضل النوافل وأقربه نسبة للفضل الإلهي في إيجاده العالم وبِعَظَم الأجر يعظم النسب¹.

وصول المدينة وبناء المسجد النبوي

بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من قباء حرصت كل قبيلة يمر بها على أن ينزل بينهم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **خَلُّوا سَبِيلَهَا؛ فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ؛** فيخلوا سبيل ناقته حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار، بركت على باب مسجده صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ مرید² لغلّامين يتيمين من بني النجار، ثم من بني مالك بن النجار، وهما في حجر معاذ بن عفراء، سهل وسهيل ابني عمرو. فلما بركت ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليها لم ينزل وثبت؛ فسارت غير بعيد ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع لها زمامها لا يثنيها به ثم التفتت إلى خلفها؛ فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه ثم تحلحلت وزمت - حنّت - ووضعت³ فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه في بيته ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأل

عن المرید : لمن هو؟

1 فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير ج ٣ ص ٤١٨، للعلامة محمد عبد الرؤوف المناوي، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
2 المرید كل شيء حبست به الإبل والغنم.
3 السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٤٩٦.

فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو، وهما يتيمان لي، وسأرضيهما منه فاتخذة مسجداً. قال فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبني مسجداً، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب حتى بني مسجده ومساكنه؛ فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ليرغب المسلمين في العمل فيه فعمل فيه المهاجرون والأنصار، ودأبوا فيه. قال ابن إسحاق: فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار¹.

الدروس والعبر:

١- شراء أرض المسجد النبوي: بركت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هاجر عليها في موضع كان لغلامين يتيمين في المدينة. وكان أسعد بن زرارة² قد اتخذه مصلًى قبل هجرة رسول الله إلى المدينة؛ فكان يصلي فيه مع أصحابه؛ فدعا الرسول صلى الله عليه وسلم الغلامين، وكانا بكفالة أسعد بن زرارة رضي الله عنه فسام فيه الرسول؛ فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله؛ فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ابتاعه منهما بعشر دنانير. وفي هذا حث لأصحاب اليسر على عمارة المساجد حيث الحاجة لذلك وشراء الأرض من أصحابها.

1 السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٤٩٥.

2 أسعد بن زرارة من بني النجار وهو من أول الأتصار إسلاماً مات أسعد بن زرارة في السنة الأولى من الهجرة في شوال قبل بدر. عن أسد الغابة ج ١ ص ٢٠٥.

٢- تخيير أصحاب الخبرة في العمل: عن قيس بن طلق حدثهم أن أباه طلق بن علي قال: بنيت المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: وكان يقول: قرب اليمامي من الطين فإنه أحسنكم له مساً وأشدكم منكباً¹. وعن قيس عن أبيه قال جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يبنون المسجد، قال: فكأنه لم يعجبه عملهم قال: فأخذت المسحاة فخلطت بها الطين فكأنه أعجبه أخذني المسحاة وعملي فقال: دعوا الحنفي² والطين فإنه أضبطكم للطين.

وفي رواية عنه أي قيس بن طلق³: قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يؤسسون مسجد المدينة قال وهم ينقلون الحجارة، قال: فقلت يا رسول الله ألا أنقل كما ينقلون قال: لا ولكن اخلط لهم الطين يا أخا اليمامة فأنت أعلم به. قال: فجعلت أخلطه لهم وينقلونه⁴، وفي رواية: إنكم يا أهل اليمامة أحذق شيء بإخلاق الطين⁵.

1 أحمد ج ٤ ص ٢٢.
 2 نسبة إلى بني حنيفة.
 3 طلق بن علي بن المنذر بن قيس بن عمرو بن عبد الله بن عمرو الحنفي السحيمي أبو علي اليمامي وقد على النبي صلى الله عليه وسلم وعمل معه في بناء المسجد وروى عنه وعنه ابنه قيس وابنته خالدة وعبد الله بن بدر وعبد الرحمن بن علي بن شيبان قلت ذكره بن السكن وقال يقال له طلق بن ثمامة. تهذيب التهذيب لابن حجر ج ٥ ص ٢٩.
 4 أخرجه الدار قطني.
 5 الطبراني في المعجم الكبير ج ٨ ص ٣١، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني مكتبة العلوم والحكم - الموصل الطبعة الثانية، ١٤٠٤ - ١٩٨٣، وقال الهيثمي: وفيه محمد بن جابر اليمامي ضعفه أحمد وغيره واختلف في الاحتجاج به مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفى سنة ٨٠٧ دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤١٢ هـ، الموافق ١٩٩٢ ميلادي.

وهذه الروايات فيها إشارة إلى الدور الذي كان يقوم به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رقابة العمّال وطريقة البناء وتقديم الأحسن منهم، وهو دور المشرف الهندسي نفسه في البناء وفق اصطلاح زماننا حيث كان صلى الله عليه وسلم يراقب عملية النقل والبناء وخلط الطين ومثانته، وأبى أن يوظف صاحب الخبرة في غير مهاراته ودوره.

ومن الأدلة على حسن إشراف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما ورد من عمله وقتئذ حيث بني رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده وجعل عضادتيه الحجارة، وسواريه جذوع النخل، وسقفه جريدها، بعد أن نبش قبور المشركين وسواها وسوى الخرب وقطع النخل وعمل فيه المسلمون¹. وهذا فيه العناصر التالية:

- شراء الأرض من أصحابها بالعدل.
- تجهيز موقع العمل وفق الاصطلاح الهندسي: حيث أمر صلى الله عليه وسلم بتمهيد وتنظيف أرض المسجد ولم يترك في أساسه وأرضه شيء من قبور

المشركين. ولقد أشار القرآن الكريم إلى

حسن الأساس في مسجد قباء وكان جوهر ذلك الأساس تقوى الله وطهارة ونظافة أهله بخلاف مسجد الضرار الذي بناه المنافقون كما سيمر لاحقاً: **لَا**

تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا الْمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى



¹ عيون الأثر لابن سيّد الناس ج ١ ص ٢٥٧.

مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
 الْمُطَهَّرِينَ* أَفَمَنْ أَتَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَسَسَ
 بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* لَا
 يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
 (التوبة: ١١٠ - ١٠٩).

- رقابة العمّال وتوزيع المهام حسب الاختصاص؛ فأشخاص للنقل، وآخرون لخلط الطين على خبرة ودراية بكيفيته. وبذلك سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم آدم سميث وغيره ممن نسب لهم تقسيم العمل في الفكر الاقتصادي الكلاسيكي (١٧٧٦م) في كتابه ثروة الأمم، وبأن تقسيم العمل يؤدي إلى زيادة مهارة العامل وإلى توفير الوقت اللازم للإنتاج.
- قوله صلى الله عليه وسلم: **أضبطكم للطين**؛ فيه إحكام العمل وجودته.
- أهمية القوة والإثقان في العمل حتى لو كان العمل تطوعياً؛ فلا يعني ذلك إهمال الاختصاص، بل دعوة أهل الاختصاص لبذل خبراتهم في المكان الصحيح.
- استغلال جميع الموارد الاقتصادية المتاحة، كتراب وحجارة و جذوع وجريد نخل.
- حساب المسافات وتنفيذ بعض البناء وفق مخطط سابق وهو عريش موسى عليه السلام: حيث جاء أن أبي بن كعب وأبا الدرداء ذرعا المسجد ثم أتيا النبي

صلى الله عليه وسلم بالذراع، قال: بل عريش كعريش¹ موسى، ثمّام²
 وخشبات؛ فالأعمر أعجل³ من ذلك.

قال الثوري: بلغنا أن عريش موسى إذا قام مس رأسه⁴. ولقد ثبت رسول الله صلى
 الله عليه وسلم على مخطط البناء الذي كان في فكره وحياً من الله، عن عبادة، أن
 الأنصار جمعوا مالا فأتوا به النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله ابن هذا
 المسجد وزينّه، إلى متى نصلي تحت هذا الجريد؟ فقال: ما بي رغبة عن أخي
 موسى، عريش كعريش موسى⁵.

٣- التطوع في العمل: بُني المسجد بجهود الصحابة متبرعين بعملهم، وأولهم
 رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يدعو لهم: لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم
 ارحم المهاجرين والأنصار⁶. ويشكل ذلك توفيراً للمال. وهذه إشارة لرفعة العمل
 التطوعي وضرورته في بعض الحالات.

إن العمل التطوعي له قيمة اقتصادية واجتماعية كبرى في تطوير الأمم، وإن الإنسان
 الذي لا يستطيع أن يقدم المال في سبل الخير يستطيع أن يقدم المعروف بصور
 شتى، وهذا رحمة وكرم من الله تعالى.

1 العريش: كل ما يستظل به.

2 نبات ضعيف

3 أى حضور الأجل أعجل من إشادة البنين.

4 مصنف عبد الرزاق ج ٣ ص ١٥٤.

5 السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٣٠٤.

6 سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٩٦، ٤٩٧.

روى سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **على كل مسلم صدقة**. قيل: **أرأيت إن لم يجد قال: يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق**. قال: **قيل: أرأيت إن لم يستطع قال: يعين ذا الحاجة الملهوف**. قال: **قيل له: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يأمر بالمعروف أو الخير**. قال: **أرأيت إن لم يفعل؟ قال: يمسك عن الشر فإنها صدقة**¹.

وعن أبي هريرة عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، قال: تعدل بين الإثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، قال: والكلمة الطيبة صدقة وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة**².

ولقد تميّز بذلك العمل عمار بن ياسر فكان رضي الله عنه اسماً على مسمى عن أبي سعيد الخدري، قال: **كنا نحمل في بناء المسجد لبنة لبنة، وعمار يحمل لبنتين لبنتين**. فرآه النبي صلى الله عليه وسلم فجعل ينفذ التراب عنه ويقول: **ويح عمار! تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار**" قال: **يقول عمار: أعوذ بالله من الفتنة**³.

¹ مسلم كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ج ٣ ص ٨٣ ج ٣ ص ٨٣.

² مسلم كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ج ٣ ص ٨٣.

³ السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٣٠٧.

٤ - أهمية القدوة في العمل : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم بالعمل في بناء المسجد ليشجع المسلمين على العمل من جهة، وبيان أهمية هذا العمل من جهة أخرى، حتى قال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

ولقد تكرر ذلك في مواقف كثيرة من السيرة النبوية حيث كان صلى الله عليه وسلم كرجل من أصحابه، وهذا بالجملة تربية بالحال وهي أقوى من تربية المقال .

صناعة المنبر :

لم يكن في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أول ما بني منبر يخطب الناس عليه، بل كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب وهو مستند إلى جذع عند مصلاه في الحائط القبلي؛ فلما اتخذ له عليه السلام المنبر، كما سيأتي بيانه في موضعه، وعدل إليه ليخطب عليه؛ فلما جاوز ذلك الجذع خار ذلك الجذع وحنّ حنين النوق العشار، لما كان يسمع من خطب الرسول عليه السلام عنده؛ فرجع إليه النبي صلى الله عليه وسلم فاحتضنه حتى سكن كما يسكن المولود الذي يسكت .

وما أحسن ما قال الحسن البصري بعد ما روى هذا الحديث، عن أنس بن مالك : يا معشر المسلمين الخشبة تحن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شوقاً إليه، أو ليس الرجال الذين يرجون لقاءه أحق أن يشتاقوا إليه؟¹ .

1 السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٣١٠ .

عن جابر: أن امرأة قالت يا رسول الله ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه فإن لي غلاماً نجاراً؟ قال: **إن شئت؛ فعملت المنبر**¹. وهذا حديث فيه إشارة إلى وجود مهنة النجارة في المدينة المنورة.

قال الواقدي: وفيها – يعني سنة سبع – اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منبره درجتين ومقعده، قال: والثابت عندنا أنه عمل في سنة ثمان².

منزله صلى الله عليه وسلم من بيت أبي أيوب وشيء من أدبه في ذلك:

قال ابن إسحاق: أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أبي أيوب حتى بنى مسجده ومسакنه، ثم انتقل إلى مساكنه من بيت أبي أيوب رحمة الله عليه ورضوانه.

قال ابن إسحاق: عن أبي أيوب قال لما نزل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي، نزل في السفلى وأنا وأم أيوب في العلو فقلت له يا نبي الله بأبي أنت وأمي، إنني لأكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي؛ فإظهر أنت فكن في العلو وننزل نحن فنكون في السفلى فقال: **يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا، أن نكون في سفلى البيت**، قال فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفله وكنا فوقه في المسكن³ بقطيفة لنا، ما لنا لحاف غيرها، ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيء فيؤذيه. قال وكنا نصنع له العشاء ثم

1 البخاري أبواب المساجد باب الاستعانة بالنجار والصناع في أعواد المنبر والمسجد ج ١ ص ١٧٢

2 السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٤٤٥.

3 سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٩٩.

نبعث به إليه فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له بصلاً أو ثوماً؛ فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أر ليده فيه أثراً. قال فجئته فرعاً؛ فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، رددت عشائك، ولم أر فيه موضع يدك، وكنت إذا رددته علينا، تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك، نبتغي بذلك البركة، قال: إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجي؛ فأما أنتم فكلوه قال فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة بعد.

الدروس والعبر:

١ - مهنة وصناعة النجارة: تقوم مهنة النجارة على خشب الأشجار، وبالتالي فإن وجودها مرتبط بوجود الشجر المناسب لهذه الصناعة أو إمكان استيراده، وتذكر هذه المهنة بمجموعة من الأمور:

• نوح عليه السلام: حيث صنع السفينة التي أمره الله تعالى: **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ**

بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ* وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ

وَكَلَّمَامرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ

مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (هود: ٣٧ - ٣٨) قال الطبري: أمره الله تعالى ذكره

أن يغرس شجرة فغرسها فعظمت وزهبت كل مذهب ثم أمره بقطعها من بعد

ما غرسها بأربعين سنة فيتخذ منها سفينة¹.

¹ تاريخ الأمم والملوك ج ١ ص ١١٢.

• يبين قبول النبي صلى الله عليه وسلم لصناعة المنبر موافقة الإسلام لما تحتاجه الدعوة إلى الله تعالى من غير إسراف فقد كان المنبر ثلاث درجات، وظل على كذلك إلى عهد معاوية رضي الله عنه، روى الطبري: قال معاوية إنني رأيت أن منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصاه لا يتركان بالمدينة وهم قتلة أمير المؤمنين عثمان وأعداؤه فلما قدم طلب العصا وهي عند سعد القرظ فجاءه أبو هريرة وجابر بن عبد الله فقالا: يا أمير المؤمنين نذكرك الله عز وجل أن تفعل هذا فإن هذا لا يصلح تخرج منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من موضع وضعه وتخرج عصاه إلى الشام فانقل المسجد؛ فأقصر وزاد فيه ست درجات فهو اليوم ثمانى درجات واعتذر إلى الناس مما صنع¹.

٢- حسن الضيافة عند أبي أيوب: يدل فعل أبو أيوب وزوجته رضي الله عنهما على الحس الرفيع في إكرام ضيافة رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه².

ولقد اعتنى الإسلام بالضيافة عناية كبيرة وجعل لها من الأجر العظيم، ولم يكن في المدينة من مكان مخصوص كالفنادق ينزل به الضيف وإنما كان الضيف ينزل

1 تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ٢٠٩.

2 البخاري كتاب الأدب باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ج ٥ ص ٢٢٤٠

عند الناس، وجعل الإسلام إكرام الضيف من علامات كمال الإيمان فجدير بالمؤمن أن يوجد حسب حاله والله الذي يعطي ويكرم عباده .

٣- التبرك بالنبي صلى الله عليه وسلم: هذا كثير في حياة الصحابة رضي الله عنهم، وإن اصطلاح البركة وإن لم يُعرف ولم يدرّس في الأنظمة المالية الحديثة لكنه جوهر أصيل في ريحان وروح الاقتصاد الإسلامي منذ نشأته مع الإسلام، ولقد كان يومئذٍ يذاق ويجلو للناظرين، ويُنقل للسامعين، ويقوم بنصر المسلمين في عصر سيد المرسلين ومن سار على دربه من المخلصين ممن مكن الله لهم في أرضه .

٤- أكل الثوم والبصل: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يعيب النعم وما عاب من طعام قط عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما عاب النبي صلى الله عليه وسلم طعاماً قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه¹ . ولقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي أيوب سبب تركه لأكل الطعام الذي فيه الثوم والبصل أن يُناجى، أي يتحدث معه الناس .

اختيار سوق المسلمين

السُّوق موضع البيع والشراء، وفيه يُتعامل فيها، والجمع أسواق وفي التنزيل: **إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق** (الفرقان: ٢٠)، والسُّوق لغة فيه وتَسَوَّق القومُ إذا باعوا واشتروا وفي حديث الجمعة سويقة: أي تجارة، وهي تصغير

1 البخاري كتاب المناقب باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم ج ٣ ص ١٣٠٦ ومسلم.

السوق سميت بها لأن التجارة تجلب إليها وتُساق المبيعات نحوها¹. وعن جابر بن عبد الله قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة فقدمت سويقة قال فخرج الناس إليها فلم يبق إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم، قال: فأنزل الله: **وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ هَؤُلَاءِ انْقَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوكُمْ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** (الجمعة: ١١)

لقد كان المهاجرون جميعاً من أهل مكة، وهي التي تميزت ببراعتها في حرفة التجارة وذلك بشهادة القرآن الكريم: **لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ * إِلَّا لَهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** (قريش ١ -

٤). لذا فعندما قدم المهاجرون المدينة ذهبوا إلى حرفتهم في التجارة كما مر في خبر عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه دلني على السوق. ولقد كان صلى الله عليه وسلم ممن احترف التجارة كالكثير من رجال قريش، لكن شأن التجارة له ميزة جديدة هنا في ظلال الإدارة النبوية لشؤون المسلمين، حيث اختار مكاناً جديداً لتجارة المسلمين، كي يكون مميزاً بالتطبيق العملي الشامل للتوجيهات التشريعية من أحكام وآداب إضافة لضبط النقود والصرف والميزان تلك القضية التي كان يقوم به بعض الأنبياء من قبل كسيدنا شعيب عليه السلام قال تعالى: **وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا**

الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ

مُفْسِدِينَ (هود: ٨٥)، لذا تم اختيار السوق الجديد عن أبي أسيد أن أبا أسيد

¹ لسان العرب ج ١٠ ص ١٦٦.

حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إلى سوق النبيط¹ فنظر إليه فقال: ليس هذا لكم بسوق. ثم ذهب إلى سوق فنظر إليه فقال: ليس هذا لكم بسوق. ثم رجع إلى هذا السوق فطاف فيه ثم قال: هذا سوقكم فلا ينتقصن ولا يضرين عليه خراج². وفي رواية: عن الزبير بن أبي أسيد، عن أبيه أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقال: بأبي أنت وأمي، إني قد رأيت موضعاً للسوق، أفلا تنظر إليه؟ قال: بلى؛ فقام معه حتى جاء موضع السوق؛ فلما رآه أعجبه وركضه برجله، ثم قال: نعم سوقكم هذا؛ فلا ينتقص ولا يضرين عليه خراج³.

الدروس والعبر:

١- التميز المكاني والأخلاقي في تعاملات المسلمين: لقد شعر النبي صلى الله عليه وسلم في وقت مبكر بضرورة إنشاء سوق تجارية للمسلمين، يستطيع من خلالها أن يخلص الاقتصاد المدني من سيطرة اليهود وجشعه. ولقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم لأئمة أن تكون مميزة في شخصيتها ونظامها وتعاملاتها تميزاً عطرًا مزدهراً خاصة في مطلع إشراق هذا الدين حتى يتميزوا بمعاملاتهم ويخرجوا عما اعتادوا عليه من تعامل أهل الجاهلية، حيث اختار لهم مكان السوق واختار لهم اسمهم وتعاهدهم بالإرشاد والنصيحة: عن قيس بن أبي

1 اسم مكان منسوب إلى تجار من النبط.

2 ابن ماجه باب الأسواق ودخولها ج ٢ ص ٧٥١.

3 الطبراني ج ١٩ ص ٢٦٤.

غرة البجلي رضي الله عنه: كنا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نسمى السماسرة فمر بنا النبي صلى الله عليه وسلم فسمانا باسم هو أحسن منه فقال: يا معشر التجار إن البيع يحضره اللغو والحلف فشوبوه بالصدقة¹.

٢- استفاد من عبارة؛ فلا ينتقصن: أمرين اثنين:

- الأول وهو الظاهر: أي لا ينتقص من مكانه شيء، حتى لا يؤدي إلى تزاحم الناس وأذية بعضهم بعضاً.

- والثاني: سلوكي من خلال الحذر من النقص في السلع التي يحتاجها الناس بالاحتكار، أو تعامل البيع والشراء بالبخس في الكيل والوزن كما قال الله

تعالى: **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا**

تَنْقُضُوا الْمِيزَانَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

مُحِيطٍ* وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِيزَانَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ

وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ* بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا

عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (هود: ٨٤ - ٨٦)

٣- استفاد من عبارة؛ ولا يضربن عليه خراج: هذا هو الأصل المالي لأن الأسواق

في البلاد حق العامة فليس لأحد وفق النظام المالي في الإسلام أن يضرب عليهم

خراجاً بالبيع والشراء، ولا يُعدل عن هذا الأصل إلا بحالتين:

¹ أبو داود وغيره كتاب البيوع باب في التجارة يخالطها الحلف واللغو ج ٢ ص ٢٦٢.

- لو كان المال المفروض على الأسواق مقابل خدمات خاصة يقدمها بيت المال كخدمات الماء المحمول والكهرباء والاتصالات والنظافة فهذا شأن آخر خاصة عند عدم وجود سبيل لتحقيق تلك الخدمات إلا من هذا الطريق.
- التوظيف المالي وهو: الإلزام المالي العرَضِي العادل من قبل الدولة على الأغنياء، بشروط مخصوصة ستمر لاحقاً إن شاء الله.

٤- **حظر على بعض بيوع الجاهلية:** كانت هذه السوق مكشوفة، وتباع فيها منتوجات المدينة والبوادي المجاورة وما يأتي إليها من الخارج، وذلك في إطار إجراءات شرعية تنظيمية كان على التجار الالتزام بها فقد منعت الدولة بيع عدداً من السلع المحرمة مثل: مثل الخمر، والخنزير، ومنعت جميع أنواع الربا، ونهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن بيع التصرية فقال عليه السَّلام: **من اشترى شاة مُصْرَأة¹ أو لقحة مصراة فهو بالخيار ثلاثة أيام...².**

- ونهى عن الاحتكار فقال: **لا يحتكر إلا خاطئ³.**
- ونهى عن بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها⁴.

1 قال الشافعي: التصرية أن يربط أخلاف الناقة أو الشاة ويترك حلبها اليومين والثلاثة حتى يجمع لبنها؛ فيزيد مشتريها في ثمنها بسبب ذلك لظنه أنه عادة لها. وقال أبو عبيد: هو من صرى اللبن في ضرعها أي حقنه فيه وأصل التصرية حبس الماء. قال أبو عبيد: ولو كانت من الربط لكانت مصرورة أو مصررة. قال الخطابي: وقول أبي عبيد حسن، وقول الشافعي صحيح. شرح صحيح مسلم للنووي ج ١٠ ص ١٦١.

2 سنن أبي داود باب من اشترى مصراة (الناقة أو البقرة أو الشاة التي قد صرى اللبن في ضرعها يعني حقن فيه وجمع أياما فلم يلب) فكرها ج ٢ ص ٢٩٢.

3 صحيح مسلم كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار فى الأوقات. ج ٥ ص ٥٦.

4 سنن أبي داود باب فى بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها، ج ١٠ ص ١٥٦.

- كما نهى عن أن يبيع حاضر لباد. عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يبيع حاضر لباد دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض¹.
- ونهى عن النجش، عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: نهى عن النجش². والنجش أن يمدح السلع ليروجها أو يزيد في ثمنها ولا يريد شراءها ليضر غيره.
- ونهى عن تلقي الركبان قبل وصولهم إلى السوق، عن أبي هريرة رضي الله قال: نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التلقي وأن يبيع حاضر لباد³.
- ونهى عن المحاقلة، والمراد بيع الحنطة في سنبلها بحنطة صافية.
- ونهى عن الخداع، والغش.
- ونهى عن الحلف في البيع وأنه مذهب لبركته. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الحلف منقعة للسلعة⁴.

مُحَقَّةٌ لِلْبَرَكَةِ⁴.

إلى غير ذلك من التشريعات التي نظمت عمليات البيع والشراء في سوق المدينة.

٥- كان النبي صلى الله عليه وسلم يراقب شؤون السوق بنفسه:

1 صحيح مسلم باب تحريم بيع الحاضر للبادي، ج ٥ ص ٦
 2 صحيح مسلم باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه وسومه على سومه وتحريم النجش وتحريم التصرية ج ٥ ص ٥.
 3 صحيح البخاري باب النهي عن تلقي الركبان ج ٢ ص ٧٥٨.
 4 صحيح البخاري باب { يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم } ج ٢ ص ٧٣٥.

طلب منه بعض الصحابة أن يحدد تسعيرة المواد المعروضة في السوق؛ فرد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هؤلاء بقوله: **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ الْمَسْعُرُ، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَلْقَى رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطْلُبُنِي بِمَظْلَمَةٍ ظَلَمْتُهَا إِيَّاهُ بِدَمٍ وَلَا مَالٍ¹.**

٦- وكانت توجيهات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تقضي بتوجيه الناس إلى آداب التعامل والأسواق:

● ضرورة التسامح بين المتابعين فقال: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى²**، وتشير الآية الكريمة إلى هذا الخلق فقال تعالى: **وَإِنْ كَانَ دُونُ عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ** (البقرة: ٢٨٠).

● الصدق في البيع والشراء، ذكر البخاري قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **الْبَيْعَانُ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا؛ فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا بَوْرُكٌ لِهَمَّا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مَحَقَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا³**. وترد إشارة إلى أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فترة لاحقة ولى عمر بن الخطاب أمر السوق في المدينة؛ في حين ولى سعيد بن العاص أمر السوق في مكة. ولقد قامت الدولة بتنظيم شؤون

1 أحمد عن أنس رضي الله عنه ج ٣ ص ١٥٦.

2 صحيح البخاري باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف ج ٢ ص ٧٣٠.

3 صحيح البخاري باب إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا ج ٢ ص ٧٣٢.

التجارة؛ فكان لا بد من كتابة الديون كنوع من التوثيق من أجل حفظ

حقوق الآخرين، وتشير الآية الكريمة إلى ذلك فقال تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**

آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ... (البقرة: ٢٨٢).

٧- كان النبي صلى الله عليه وسلم يكتب ما يبيعه وما يشتريه في بعض

الأحيان: يذكر البخاري نص هذا الكتاب، حيث جاء فيه: عن العداء بن خالد قال

كتب لي النبي صلى الله عليه وسلم: هذا ما اشتري محمد رسول الله صلى الله

عليه وسلم من العداء بن خالد بيع المسلم المسلم لا داء¹ ولا خبثة² ولا

غائلة³،⁴.

٨- حرية التعامل مع غير المسلمين في التجارة: كانت المرونة والحرية والانفتاح

سمة من سمات الدولة في فترة الرسالة، حيث سمح للمسلمين بالتعامل التجاري

بحرية حتى مع الكفار، روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى شاة من

مشرك، وتبايع مع اليهود واقترض منهم فقد اشترى النبي صلى الله عليه وسلم

طعاماً من يهودي إلى أجل ورهنه درعاً من حديد.

٩- النقود المتداولة في فترة الرسالة: كانت تتمثل في:

1 لا عيب.

2 لا خبث والخبث الحرام.

3 لا فجور ولا خيانة.

4 صحيح البخاري باب إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا ج ٢ ص ٧٣١.

• الدينار وهو عملة مضروبة في بيزنطة من الذهب الخالص، وكان الناس يتعاملون به وزناً إذا كثر، وعداً إذا قل، وقد أقر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التعامل مع هذه الدينانير على ما كانت عليه في الجاهلية.

• وكان الدرهم من النقود التي تعامل بها الناس، وهو مضروب في بلاد فارس، وكانت هذه الدراهم تختلف من حيث الوزن والحجم اختلافاً كبيراً مما أدى إلى أن يتعامل الناس بها وزناً لا عدداً.

ويلاحظ أن الدرهم كان مستعملاً بشكل كبير، ولذا فقد كان صدق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنسائه في الغالب خمسمائة درهم.

١٠- مهنة الصرف: امتهن بعض الصحابة مهنة "الصيرفة" اتضح ذلك من قول

بعض الصحابة: كنا تاجرين على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسألناه عن

الصرف؛ فقال: **إِنْ كَانَ يَدَا بَيْدٍ فَلَا بَأْسَ، وَإِنْ كَانَ نِسَاءً فَلَا يَصْلِحُ¹**، ويذكر أن

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتمد سعر السوق اليومي في الصيرفة، عن ابن عمر:

قلت: يا رسول الله إني أبيع الإبل بالنقيع؛ فأبيع بالدينانير وأخذ الدراهم، وأبيع

الدراهم وأخذ الدينانير، أخذ هذه من هذه، وأعطي هذه من هذه؛ فقال رسول الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لَا بَأْسَ أَنْ تَأْخُذَ بِسَعْرِ يَوْمِهَا مَا لَمْ تَفْتَرِقَا وَبَيْنَكُمَا**

شَيْء²، وهذا يوضح مدى انتشار هذه المهنة في زمن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

1 صحيح البخاري باب التجارة في البر ج ٢ ص ٧٢٦.

2 المستدرک علی الصحیحین ج ٢ ص ٥٠، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠.

١١- الميزان والمكيال : الأوزان والمكاييل المستعملة في هذه الفترة؛ فهي ذاتها التي عرفت قبل الإسلام ولكنها أصبحت مراقبة ومحددة وفقاً للمعيار الذي يفرضه صاحب السوق؛ فعرفت في مكة الأوزان لأن طبيعة التعامل يقوم على التجارة في حين عرفت المكاييل في المدينة، لأنها ذات طابع زراعي، وقد جاء في الحديث: **الوزن وزن أهل مكة، والمكيال مكيال أهل المدينة¹**، واندرجت وحدات الكيل ما بين المدّ، والصاع، والوسق والجريب، والقفير، الذي يستخدم أيضاً - شأنه شأن الجرايب - كمقياس أرضي، وكذلك وحدات الوزن متفاوتة بين الدرهم والمثقال والقيراط والأوقية والرطل والقنطار، والتي اعتبرت الواحدات الأساسية للوزن في العهد الأول.

وتشير الروايات إلى أنه كان يقوم بالأسواق من يزن للناس، وكانت هذه وظيفة خاصة، يقوم بها بعضهم مقابل الأجر؛ فقد روى الدارمي أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر بالسوق، وكان لأهل السوق وزان يزن فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **زن وأرجح**، ووجدت هذه الوظيفة في سوق مكة، روى النسائي عن سماك بن سويد أن قيساً قال: **جلبت أنا ومخرقة العبدي بزاً من هجر فأتانا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن بمنى ووزان يزن بالأجر؛ فاشتري منا سراويل؛ فقال للوزان: زن وأرجح**، ومما يشعر بوجود هذه الوظيفة في زمن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن البخاري وضع باباً سماه: «الكيل على البائع والمعطي» وقد علق عليه ابن حجر

¹ سنن أبي داود باب في قول النبي صلى الله عليه وسلم المكيال مكيال المدينة ج ٢ ص ٢٦٦.

بقوله: (أي مؤنة الكيل على المعطي، بائعاً كان أو موفياً دين أو غير ذلك، ويلتحق بالكيل في ذلك الوزن فيما يوزن).

ولقد كانت أول سورة نزلت في المدينة المنورة هي سورة المطففين عن ابن عباس قال: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً؛ فأنزل الله تعالى – ويل للمطففين – فأحسنوا الكيل بعد ذلك. قال القرطبي كان بالمدينة تجار يطففون، وكانت بياعاتهم كشبه القمار المنابذة والملامسة والمخاطرة؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السوق وقرأها¹. لقد كانت هذه التنظيمات تتناسب مع أهداف الإسلام العامة؛ في تحقيق معنى العدالة، وبناء مجتمع فاضل يقوم أساسه على الرحمة والحب وال إخاء والتعاون².

بناء بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم

كان عمران بيوت أهله بأمرين:

الأول بالبناء:

قال ابن كثير: وبني لرسول الله صلى الله عليه وسلم حول مسجده الشريف حُجراً لتكون مساكن له ولأهله، وكانت مساكن قصيرة البناء قريبة الفناء.

1 أسباب النزول ص ٢٩٨. تأليف أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري توزيع دار الباز للنشر والتوزيع عباس أحمد الباز مكة المكرمة أسباب النزول تأليف أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ٤٦٨ هـ ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م. - القاهرة.

2 الإدارة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ص ١٦٩، أحمد عجاج كرمي، دار السلام - القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ ص ١٦٩.

قال الحسن بن أبي الحسن البصري، وكان غلاماً مع أمه خيرة مولاة أم سلمة، لقد كنت أنال أطول سقف في حجرة النبي صلى الله عليه وسلم بيدي. قلت: إلا أنه قد كان الحسن البصري شكلاً ضخماً طويلاً رحمه الله. وقال السهيلي في الروض: كانت مساكنه عليه السلام مبنية من جريد عليه طين، بعضها من حجارة مرضومة، وسقوفها كلها من جريد. وقد حكى عن الحسن البصري ما تقدم. وكانت حجره من شعر مربوطة بخشب من عرعر. وفي تاريخ البخاري أن بابه عليه السلام كان يُقرع بالأظافر؛ فدل على أنه لم يكن لأبوابه حلق. قال: وقد أضيفت الحجر كلها بعد موت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد.

والثاني كان بالأشخاص:

قال الواقدي وابن جرير وغيرهما: ولما رجع عبد الله بن أريقط الديلي إلى مكة بعث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر زيد بن حارثة وأبا رافع موليا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتوا بأهاليهم من مكة، وبعثا معهم بحملين وخمسائة درهم ليشتروا بها إبلاً من قُديد¹؛ فذهبوا فجاءوا بابنتي النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة وأم كلثوم وزوجتيه سودة وعائشة، وأمها أم رومان، وأهل النبي صلى الله عليه وسلم وآل أبي بكر صحبة عبد الله بن أبي بكر، وقد شرد بعائشة وأمها أم رومان الجمل في أثناء الطريق؛ فجعلت أم رومان تقول:

¹ موضع بين مكة المدينة.

واعروساه، وابنتاه. قالت عائشة: فسمعت قائلاً يقول: أرسلني خطامه¹؛ فأرسلت خطامه فوقف بإذن الله وسلمنا الله عز وجل.

فتقدموا فنزلوا بالسنح، ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة في شوال بعد ثمانية أشهر².

وقدمت معهم أسماء بنت أبي بكر امرأة الزبير بن العوام وهي حامل متم بعبد الله بن الزبير.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ليس له خادم فأخذ أبو طلحة بيدي فانطلق بي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: يا رسول الله إن أنساً غلام كئيس فليخدمك، قال: فخدمته في السفر والحضر ما قال لي لشيء صنعته لم صنعت هذا هكذا ولا لشيء لم أصنعه لم تصنع هذا هكذا³.

الدروس والعبر:

١- تواضع البناء في بيوت النبي صلى الله عليه وسلم: سقفها منخفض قدر الحاجة، وكانت من الحجارة والطين وبعض الخشب وكانت تفرع بالأظافر.

٢- إن في إرسال النبي صلى الله عليه وسلم أبا رافع وزيد مع الحملين والدرهم فيه استثمار للفرص وعدم تضييعها: وذلك ليستفيد المؤمن من فضل الله في كل

1 الخِطَامُ الزَّمَامُ وَخَطَمْتُ البعيرَ زَمَمْتُهُ ابن شميل الخِطَامُ كل حبل يُعَلَّقُ في حَلْقِ البعيرِ ثم يُعَقَدُ على أنفه كان من جِلْدٍ أو صوفٍ أو ليفٍ أو قَنَبٍ. لسان العرب ج ١٢ ص ١٨٦.

2 السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٣١٤.

3 صحيح البخاري باب استخدام اليتيم في السفر والحضر إذا كان صلاحاً له ونظر الأم وزوجها لليتيم ج ٣ ص ١٠١٨.

رحلة وسفر حيث كانت الغاية الرئيسة هي إحضار آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وآل أبا بكر ومع ذلك تمت تلك الفائدة لشراء بعض الإبل أثناء الطريق .

٣- زواجه صلى الله عليه وسلم بعائشة: روى الطبري¹ قالت عائشة فقد منا المدينة فنزل أبو بكر السنح في بني الحارث بن الخزرج قالت: فجاء رسول الله فدخل بيتنا فاجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء فجاءتني أمي وأنا في أرجوحة بين عرقين يرحح بي فأنزلتني ثم وفّت جميمة² كانت لي ومسحت وجهي بشيء من ماء ثم أقبلت تقودني حتى إذا كنت عند الباب وقفت بي حتى ذهب بعض نفسي ثم أدخلت ورسول الله جالس على سرير في بيتنا قالت فأجلستني في حجره فقالت: هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن وبارك لهن فيك ووثب القوم والنساء فخرجوا فبنى بي رسول الله في بيتي ما نحرت جزور ولا ذبحت على شاة وأنا يومئذ ابنة تسع سنين حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة³ كان يرسل به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٤- حسن رعاية العامل: وذلك بترك العتاب والتوبيخ واللوم على ما فات وتنزيه اللسان عن الزجر والذم واستئلاف خاطر العامل بترك معاتبته، وكل ذلك في الأمور التي تتعلق بحظ الإنسان، وأما الأمور اللازمة شرعاً فلا يتسامح فيها لأنها من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر⁴ .

1 تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢١٢. محمد بن جرير الطبري أبو جعفر دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٧.

2 تصغير جمّة من شعر الرأس وهي ما سقط على المنكبين.

3 وعاء أو القصعة للطعام.

4 فتح الباري ج ١٠ ص ٤٦٠.

ومن هذه الرعاية: ما جاء عن أبي هريرة: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله أكلة أو أكلتين أو لقمة أو لقمتين فإنه ولي حره وعلاجه¹.

وعن عبد الله بن عمر قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كم أعفو عن الخادم؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: يا رسول الله كم أعفو عن الخادم؟ فقال: كل يوم سبعين مرة².

٥- دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأنس: عن أنس رضي الله عنه قال: قالت أم سليم: أنس خادمك ادع الله له قال: اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته³. ولقد تحققت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنس فعنه رضي الله عنه قال: فلقد دفنت من صلبى سوى ولد ولدي خمساً وعشرين ومائة، وإن أرضي ليثمر في السنة مرتين، وما في البلد شيء يثمر مرتين غيرها⁴.

1 البخاري كتاب الأطعمة باب الأكل مع الخادم ج ٥ ص ٢٠٧٨
2 الترمذي كتاب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ما جاء في العفو عن الخادم ج ٤ ص ٣٣٦.
3 البخاري كتاب الدعوات باب قول الله تعالى { وصل عليهم } التوبة ١٠٣. ومن خص أخاه بالدعاء دون نفسه ج ٥ ص ٢٣٣٣.
4 الطبراني ج ١ ص ٢٤٨.

كتابة الدستور

لم يكن العمران في المدينة في البناء والأشخاص فحسب؛ بل كان في وضع نظام رفيع أسس له رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم؛ بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون¹، وعدد صلى الله عليه وسلم الأسر فذكر: بنو عوف وبنو الحارث وبنو جشم وبنو النجار وبنو عمرو بن عوف وبنو الأوس إلى أن قال: وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا² بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطَوْهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ .

الدروس والعبر:

١- عاهد صلى الله عليه وسلم اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم .

٢- التعاون والتعاقد المالي بين المؤمنين فلا يتركون من وقع ثقل دين وهمه وغمه بل يبادرون عونهم ومساعدته: وهذا شأن النظام المالي العام والخاص في

¹ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٠٢ .

² قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: الْمَفْرَحُ الْمُتَّقِلُ بِالذِّينِ وَالْكَثِيرُ الْعِيَالِ .

مساعدة من وقع في الدين حيث جعل الله تعالى من أسهم الزكاة الثمانية سهماً خاصاً للغارمين كما سيمر لاحقاً .

ولقد قال صلى الله عليه وسلم: ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة

اقرأوا إن شئتم: **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**؛ فأما مؤمن مات وترك مالاً

فليرثه عصبته من كانوا، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتمني فأنا مولاه¹.

قال الإمام النووي: ومن ترك ديناً أو ضياعاً² فإليّ وعليّ تفسيراً لقوله صلى الله

عليه وسلم: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه³.

وأختلف هل هذه من الخصائص أم لا؟

قال بعضهم: هو من خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يُلزم الإمام أن

يقضي من بيت المال دين من مات وعليه دين إذا لم يخلف وفاء، وكان في بيت

المال سعة، ولم يكن هناك أهم منه⁴ وقال آخرون: ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتمني

فأنا مولاه، وفي حديث آخر: أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي وعليه دين

1 البخاري في الصحيح كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس باب الصلاة على من ترك ديناً ج ٢ ص ٨٤٥، مسلم كتاب الفرائض، باب من ترك مالاً فلورثته ج ٣ ص ١٢٣٧.

2 قال أهل اللغة: الضياع - بفتح الضاد - العيال، قال ابن قتيبة: أصله مصدر ضاع يضيع ضياعاً، المراد من ترك أطفالاً وعبداً ذوي ضياع؛ فأوقع المصدر موضع الاسم.

3 قال النووي: قال أصحابنا وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يصلي على من مات وعليه دين لم يخلف به وفاء، لئلا يتساهل الناس في الاستدانة ويهملوا الوفاء؛ فزجرهم على ذلك بترك الصلاة عليهم؛ فلما فتح الله على المسلمين مبادي الفتوح قال: من ترك ديناً فعلي أي قضاؤه فكان يقضيه.

شرح النووي على صحيح مسلم ج ٦ ص ١٥٥.

4 شرح النووي على صحيح مسلم ج ٣ ص ٢٤٧.

فعلي قضاؤه ومن ترك مالا فهو لورثته¹. وفي معنى ذلك عدة أحاديث ثبتت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قالها بعد أن كان يمتنع عن الصلاة على المديون؛ فلما فتح الله عليه البلاد وكثرت الأموال صلى على من مات مديوناً، بعد أن قضى دينه عنه. أما دعوى من ادعى أن ذلك خصوصية لرسول صلى الله عليه وسلم فغير صحيح، وقياس الدلالة ينفي هذه الدعوى في مثل قوله صلى الله عليه وسلم: وأنا وارث من لا وارث له، أعقل عنه وأرثه². فلا يُقال إن ميراث من لا وارث له مختص برسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد أخرج الطبراني حديثاً يدل على انتفاء هذه الخصوصية ولفظه: من ترك مالا فلورثته، ومن ترك ديناً فعلي، وعلى الولاية من بعدي من بيت المال³. وكما روى الطبري أن عمر بن عبد العزيز كتب: أن يُعطى الغارمون، قال أحمد: أكثر ظني: من الصدقات⁴، وروى أيضاً: أنه ينبغي للإمام أن يقضي عنهم من بيت المال.

٣- لم يكن التكافل الاجتماعي نظرياً بل كان واقعاً: فخلق الإيثار شهد له القرآن الكريم آيات تتلى إلى يوم القيامة حيث كان من نتائج إيمان الأنصار

1 صحيح مسلم كتاب الفرائض باب من ترك مالا فلورثته ج ٣ ص ١٢٣٢، كتاب الفرائض أبو داود باب أرزاق الذرية ج ٣ ص ١٢٧.

2 ابن ماجه كتاب الفرائض باب ذوي الأرحام ج ٢ ص ٩١٤، ابن حبان باب ذوي الأرحام ذكر الخبر المدحض من أبطل توريث ذوي الأرحام ج ١٣ ص ٣٩٧

3 تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ج ٣ ص ١٤٢ محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا، دار الكتب العلمية - بيروت. حديث الطبراني جاء بلفظ: من ترك مالا فلورثته... ج ٦ ص ٢٤٠. وهو ضعيف في سنده، يُنظر لتلخيص الحبير لابن حجر ج ٣ ص ٤٩، كذا مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى ج ٥ ص ٥٩٩.

4 تفسير الطبري ج ١٠ ص ١٧٨.

ومبايعتهم وتعهدهم بالنصرة أن دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى الهجرة إلى المدينة، كما كان من نتائج ذلك أن ظهرت ظاهرة عظيمة من التكافل بين المسلمين؛ ففتحت بيوت الأنصار أبوابها وقلوب أصحابها لوفود المهاجرين، واستعدت لاحتضانهم رجالاً ونساءً، إذ أصبح المسكن الواحد يضم المهاجر والأنصاري، والمهاجرة والأنصارية، يتقاسمون المال والمكان والطعام والمسؤولية الإسلامية.

تشريع الزكاة وغزوة بدر وما فيها من أحكام مالية

بدأت سلسلة جديدة من الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة، بعد أن استقر وضع المسلمين فيها؛ فظهرت أمور مالية جديدة تمثلت بتحول الزكاة من أمر مطلق إلى فرض مقيّد محدد، وتوضحت ملامحها الإدارية كإدارة الجباية وإدارة الحفظ، ودخلت الغنائم كمورد مالي عام بعد غزوة بدر الكبرى.

إدارة فريضة الزكاة

فرض الله سبحانه وتعالى الزكاة على المسلمين، وأمر بها رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فأرسل العمّال لجبايتها وحاسبهم على ما يجبونه منها من أموال، وحفظ أموال الزكاة بما يتيسر له من أمكنة في بيوت أصحابه الكرام رضي الله عنهم. وبين صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر المفروضة على رؤوس المسلمين؛ فقال: زكاة الفطر

فرض على كل مسلم حر وعبد، ذكر وأنثى، من المسلمين صاع من تمر، أو صاع من شعير.

الدروس والعبر:

١ - اختلاف أهل العلم في عام فرض الزكاة: قال ابن كثير: قال ابن إسحاق: لما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمر الأنصار، واستحكم أمر الإسلام، وقامت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود وفرض الحلال والحرام وتبوأ الإسلام بين أظهرهم.

قال ابن حجر: اختلف في وقت فرض الزكاة؛ فذهب الأكثر إلى أنه وقع بعد الهجرة؛ فقبل كان في السنة الثانية قبل فرض رمضان، أشار إليه النووي في باب السير من الروضة، وجزم ابن الأثير في التاريخ بأن ذلك كان في التاسعة، وفيه نظر، وإنما الذي وقع في التاسعة بعث العمال لأخذ الصدقات، ما يستدعي تقديم فريضة الزكاة قبل ذلك. ومما يدل على أن فرض الزكاة وقع بعد الهجرة اتفاقهم على أن صيام رمضان إنما فرض بعد الهجرة، لأن الآية الدالة على فرضيته مدنية بلا خلاف، وثبت عند أحمد وابن خزيمة أيضاً والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث قيس بن سعد بن عبادة قال: "أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة، ثم نزلت فريضة الزكاة فلم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله"، وهو دال على أن فرض صدقة الفطر كان قبل فرض الزكاة فيقتضي وقوعها بعد فرض رمضان وذلك بعد الهجرة وهو المطلوب.

٢- مؤسسة الزكاة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم: قام صلى الله عليه وسلم بترتيب شؤون إدارة الزكاة مادياً ومعنوياً؛ فمن ناحية حث على إرضاء عمال الزكاة، قال: إذا أتاكم المتصدق فليصدر عنكم وهو راض، ومن ناحية أخرى كان النبي صلى الله عليه وسلم يُحاسب عماله على ما يقومون به من جباية، ويحذرهم من عذاب الله عند تقصيرهم أو تفريطهم، ومن ذلك ما روي من استعمال النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة؛ فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أهدي لي. قال: فهلاً جلس في بيت أبيه أو بيت أمه؛ فينظر يهدى له أم لا والذي نفسي بيده لا يأخذ أحد منه شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتة، إن كان بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر، ثم رفع بيده، حتى رأينا عفرة إبطيه، اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت ثلاثاً.

٣- حفظ أموال الزكاة: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكنني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت والله لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه فأصبحت فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة. قال: قلت يا رسول الله: شكوا حاجة شديدة وعيلاً فرحمته فخليت سبيله، قال: أما إنه قد كذبتك وسيعود. فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه سيعود. فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وسلم قال : دعني فإنني محتاج وعلي عيال لا أعود فرحمته فخليت سبيله ؛ فأصبحت ؛ فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أباهريرة ما فعل أسيرك . قلت يا رسول الله : شكنا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله ، قال : أما إنه كذبك وسيعود . فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته ؛ فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله وهذا آخر ثلاث مرات تزعم لا تعود ثم تعود قال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها قلت ما هو ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي الله لا إله إلا هو الحي القيوم . حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله ؛ فأصبحت ؛ فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما فعل أسيرك البارحة . قلت يا رسول الله : زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قال : ما هي . قلت : قال لي إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الله لا إله إلا هو الحي القيوم . وقال لي لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شيء على الخير - ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما إنه قد صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أباهريرة ؟ قال : لا ، قال : ذاك شيطان .

ويعد هذا النص وغيره أصلاً في مشروعية بيت المال، حيث من مهامه جباية وحفظ الأموال لتوزيعها في مصارفها المخصصة .

غزوة بدر الكبرى

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبا سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في عير لقريش عظيمة فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون فندب المسلمين إليهم وقال: **هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها**. فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقي حرباً.

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس. حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك. فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري؛ فبعثه إلى مكة، وأمر أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه. فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة. فتجهز الناس سراعاً، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليل مضت من شهر رمضان في - واستعمل عمرو بن أم مكتوم - ويقال اسمه عبد الله بن أم مكتوم أخا بني عامر بن لؤي، على الصلاة بالناس ثم رد أبا لبابة من الروحاء، واستعمله على المدينة، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير.

وكانت إبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ سبعين بعيراً؛ فاعتقبوها؛ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً، وكان حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة،

وأبو كبشة، وأنسةً موليا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتقبون بعيراً، وكان أبو بكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً.

وجاء الخبر لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم؛ فاستشار الناس فأحسن المهاجرون الكلام ثم أحسن الأنصار، كذلك حيث قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: "اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون"، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد¹ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **خيراً، ودعا له به**، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أشيروا علي أيها الناس**، وإنما يريد فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ: **والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل**، قال: فقد آمننا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثيقنا، على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك؛ فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك؛ فسر بنا على بركة الله. فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول

¹ موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل بلد في اليمن دفن عنده عبد الله بن جدعان التيمي القرشي، معجم البلدان لياقوت الحموي. ج ١ ص ٣٩٩.

سعد ونشطه ذلك . ثم قال : سيروا وأبشروا ؛ فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم .

قال ابن إسحاق : ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا؛ فقال أبو جهل بن هشام والله لا نرجع حتى نرد بدرًا – وكان بدر موسمًا من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوق كل عام – فنقيم عليه ثلاثًا؛ فننحر الجزر العرب وبمسيرنا وجمعنا؛ فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها؛ فامضوا .

وبعث الله السماء؛ فأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم عن السير وأصاب قريشًا منها ما لم يقدرُوا على أن يرتحلوا معه؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يبادرهم إلى السماء حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به .

قال ابن إسحاق : فحدثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا : أن الحباب بن المنذر بن الجموح قال يا رسول الله أرايت هذا المنزل أمنزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة . فقال يا رسول الله : فإن هذا ليس بمنزل؛ فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم؛ فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأي؛ فانهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس ففسار

حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضاً على القلب الذي نزل عليه فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية .

بناء العريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم

روى ابن إسحاق¹ أن سعد بن معاذ قال: يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا؛ فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك؛ فلحقت بمن وراءنا؛ فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصرحونك ويجاهدون معك؛ فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً، ودعا له بخير، ثم بني لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش فكان فيه .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فحرضهم وقال: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة؛ فقال عمير بن الحمام، أخو بني سلمة وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشاً بها، ثم قال: **شاهت الوجوه**، ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه فقال:

¹ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٦٢٠ .

شدوا؛ فكانت الهزيمة؛ فقتل الله تعالى من قتل من صنديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم؛ فلما وضع القوم أيديهم يأسرون، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم متوشحاً بالسيف في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم يخافون عليه كرة العدو، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما ذكر لي - في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟** قال: أجل، والله يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك؛ فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحب إلي من استبقاء الرجال .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بما في العسكر مما جمع الناس فجمع فاختلف المسلمون فيه فقال: من جمعه هو لنا، وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه والله لولا نحن ما أصبتموه لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافة أن خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كرة العدو فقمنا دونه فما أنتم بأحق به منا .

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الرحمن بن الحارث وغيره من أصحابنا عن سليمان ابن موسى، عن مكحول، عن أبي أمامة الباهلي - واسمه صدي بن عجلان فيما قال ابن هشام - قال سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا؛ فنزعه الله من أيدينا؛ فجعله إلى

رسوله فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بواء يقول على السواء .

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي بكر، قال حدثني بعض بني ساعدة عن أبي أسيد الساعدي مالك بن ربيعة، قال : أصبت سيف بني عائذ المخزوميين الذي يسمى المرزبان يوم بدر؛ فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يردوا ما في أيديهم من النفل أقبلت حتى ألقيته في النفل . قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمنع شيئاً سئله؛ فعرفه الأرقم بن أبي الأرقم؛ فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه إياه .

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلاً إلى المدينة، ومعه الأسارى من المشركين واحتمل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه النفل الذي أصيب من المشركين وجعل على النفل عبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف بن مبدول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار، ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم - حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية - يقال له سير - إلى سرحة به . فقسم هنالك النفل الذي أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين¹ .

الدروس والعبر :

¹ سيرة ابن هشام ج ص ٦٤٣ .

١- **الإنبابة الخاصة والعامة**: يظهر من تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من أصحابه لأمر الصلاة، وآخر لأمر المدينة العامة هو الحرص النبوي على انتظام حياة الناس في معاشهم وعبادتهم، وأن أمرهم ينبغي أن يقوم على نظام دقيق حتى لا تشيع الفوضى في حياة الناس، وهذا أمر قد تكرر في السيرة النبوية ليعلمه صلى الله عليه وسلم لأتمته عبر كل زمان ومكان.

٢. **المهايأة**: هي قسمة المنافع، ويعتبر عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبادل منافع الركوب دليلاً على مشروعية المهايأة. وهي على نوعين: من حيث المكان أو من حيث الزمان. أما من حيث المكان بأن كانت داراً كبيرة يسكن أحدهما ناحية والآخر ناحية جاز، وهي قسمة المنافع ولا يشترط فيها بيان المدة ولو استغل أحدهما نصيبه جاز بخلاف العارية فإنها لا تؤاجر وقال بعضهم لا يجوز كما في العارية إلا إذا اشترط الاستغلال لمن شاء منهما. وأما من حيث الزمان بأن كانت داراً صغيرة يسكن أحدهما شهراً والآخر شهراً جاز وهذا في معنى العارية ولهذا يشترط المدة.

٣- **إدارة المعركة**: لقد تمت إدارة المعركة من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم في ثلاثة مراحل:

الأولى: قبل المعركة من خلال استشارة المهاجرين والأنصار وتتبع أخبار قريش، والنزول على رأي أهل الخبرة وتجهيز مكان القيادة.

الثاني: أثناء المعركة من خلال تعديل صفوف الجند، وتقديم أبناء عمه في طليعة مبارزة المعركة، وأمره لأصحابه أن ينضحوهم بالنبل أول المعركة.

الثالث: بعد المعركة بدفن جثث المشركين، وإدارة أزمة الأسرى والغنائم.

٤- أرادوا العير وأراد الله لهم النفير: قال الله تعالى: **وإذ يعدكم الله إحدَى**

الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهِنَّ الْكُفْمُ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ

يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ* لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ

الْمُجْرِمُونَ (الأنفال: ٧ - ٨)؛ فلو أخذ المسلمون تلك القافلة التجارية لم يكن

لذلك أي أثر على حال المسلمين وقوتهم عند العرب، بينما أراد الله تعالى لهم

ذلك النصر ليظل سمة وعلامة تاريخية ليس في زمانهم ومكانهم فحسب بل وإنما

في كل الأزمان والأماكن، حيث انتصر وهم قلة على أكبر قوة عسكرية للعرب

بحشدتها وجمعها يومئذ.

٥- أمثلة من الفداء المالي: أطلق جماعة من الأسارى مجاناً بلا فداء، منهم أبو

العاص بن الربيع الأموي، والمطلب بن حنطب بن الحارث المخزومي، وصيفي بن أبي

رفاعة كما تقدم، وأبو عزة الشاعر، ووهب بن عمير بن وهب الجمحي كما تقدم،

وفادى بقبيلتهم حتى عمه العباس أخذ منه أكثر مما أخذ من سائر الأسرى، لئلا

يحبايه لكونه عمه، مع أنه قد سأله الذين أسروه من الأنصار أن يتركوا له فداءه

فأبى عليهم ذلك، وقال: لا تتركوا منه درهماً. وقد كان فداؤهم متفاوتاً؛ فأقل ما

أخذ أربعمائة، ومنهم من أخذ منه أربعون أوقية من ذهب. قال موسى بن عقبة:

وأخذ من العباس مائة أوقية من ذهب¹.

¹ السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٥١٢.

٦- التعليم من بدائل الفداء المالي : عن ابن عباس قال : كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء؛ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، قال : فجاء غلام يوماً يبكي إلى أمه فقالت : ما شأنك؟ فقال : ضربني معلمي فقالت : الخبيث يطلب بدحل - بثأر - بدر! والله لا تأتيه أبداً¹. وفي هذا النص دلالة على أمور عديدة:

- وجوب أمر التعليم على بيت المال، حيث قبل النبي صلى الله عليه وسلم عوض الفداء ممن لا يملكه أن يقوم بالتعليم؛ فسبيل ذلك الفداء المالي هو لبيت المال، ومصرف التعليم من بيت المال، وهذه عملية مختصرة انتقلت إلى أهل الاستحقاق في التعليم.
- مالية مهنة التعليم، حيث كان بدلاً عن تلك الأموال التي وجبت لفداء الأسير.

مفهوم الغنائم وكيفية قسمتها

لم تحل الغنائم للأمم السابقة، وأحلّها الله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلّت لي

1 السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٥١٢.

الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة.

فما هي الغنائم؟ وما هو نصيب بيت المال منها؟ الغنائم في اللغة: عَنِمْتُ الشيءَ أَغْنَمُهُ عُنْمًا أَصْبَتْهُ عَنِيمَةً وَمَغْنَمًا والجمع الغَنَائِمُ، وتأتي بمعنى الزيادة والنماء¹. وفي الاصطلاح:

- عرفها الحنفية: هي اسم لما يؤخذ من الكفار على وجه القهر والغلبة².
- وعرفها الشافعية: ما أخذ من الكفار بالقتال وإيجاف الخيل والركاب والإيجاف الإعمال، وقيل الإسراع³.
- وعرفها ابن قدامة: ما أخذ منهم قهراً بالقتال، واشتقاقها من الغنم، وهو الفائدة.

كيفية تقسيم الغنيمة⁴:

- انقسم العلماء إلى كيفية توزيع خمس الغنيمة على ثلاثة أقوال:
- رأي الحنفية إن القسمة تكون على ثلاثة أسهم؛ سهمٍ لليتامي، وآخر للمساكين، وسهمٍ لابن السبيل، وذكر الله تعالى في الآية إنما هو للبركة، وسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سقط بموته، لأنه كان يأخذ بوصف الرسالة لا بوصف الإمامة بخلاف جمهور العلماء، وكذلك سهم ذوي القربى لأنهم كانوا

1 لسان العرب ج ١٢ ص ٤٤٥.

2 الاختيار لعليل المختار ج ٣ ص ٨١

3 كفاية الأخيار ج ٢ ص ٦٠٥.

4 للمؤلف؛ فقه الموارد العامة لبيت المال، ص ١٩٩، دار أبي الفداء العالمية ٢٠١٠.

يستحقونه زمن الرسول صلى الله عليه وسلم بالنصرة له وبعد وفاته بالفقر لانقطاع النصرة. والنسب عندهم كما يلي:

$$\text{حصّة كل سهم من اليتامى والمساكين وابن السبيل} = \frac{1}{5} \div 3$$

• رأي الإمام مالك إن القسمة مفوض أمرها إلى الإمام، يفعل ما يراه مصلحة للأمة.

• رأي الشافعية والإمام أحمد بن حنبل وجمهور: المعتبر من مال الغنيمة إلى بيت المال هو خمس الخمس وهو سهم المصالح، أي ما يعادل ٤٪ فقط، وأما الباقي فليس من حق بيت المال، وإنما لمن ذكرتهم آية الأنفال في قول الله تعالى:

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ

يَوْمَ التَّقَىٰ أَلْجَمَعَانَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (الأنفال: ٤١) أي سهم لله ورسوله،

وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل.

أمر بني قينقاع

لما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة كتب كتاباً مع كل سكان المدينة المنورة ومنهم أهل الكتاب ومن هؤلاء بني قينقاع، وكان من حديث بني قينقاع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم بسوق بني قينقاع ثم قال يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا؛ فإنكم قد

عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم، قالوا: يا محمد إنك ترى أنا قومك لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبحت منهم فرصة إنا والله لعن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

قال ابن إسحاق: فحدثني مولى آل زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير، أو عن عكرمة عن ابن عباس، قال ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيهم قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية في فئتين التقتا أي أصحاب بدر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش فقتلتا في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثلهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار .

بني قينقاع أول من نقض العهد: كان بني قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاربوا فيما بين بدر وأحد .

قال ابن هشام: وذكر عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخزومة، عن أبي عون قال كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها؛ فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها؛ فجعلوا يريدونها على كشف وجهها؛ فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها؛ فلما قامت انكشفت سوءاتها؛ فضحكوا بها؛ فصاحت . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود؛ فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع¹ .

1 السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٤٧ .

مدة حصارهم: قال ابن هشام: استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة في محاصرته إياهم بشير بن عبد المنذر وكانت محاصرته إياهم خمس عشرة ليلة. فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أموالهم وأن لهم النساء والذرية فأنزلهم؛ فكتفوا واستعمل على كتافهم المنذر بن قدامة السلمى فكلّم ابن أبيّ فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وألح عليه؛ فقال¹: حلّوهم لعنهم الله ولعنه معهم وتركهم من القتل وأمر أن يجلووا من المدينة وتولى ذلك عبادة بن الصامت فلحقوا بأذرعاع – في الشام – فما كان أقل بقاءهم بها وذكر ما تنفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلاحهم وسيأتي ذكرها، وخُمست أموالهم فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية الخمس وفض أربعة أخماس على أصحابه. فكان أول ما خُمس بعد بدر، وكان الذي ولى قبض أموالهم محمد بن مسلمة.

الدروس والعبر:

١- الأسواق شر بقاع الأرض: أخرج الحاكم عن عبد الله بن عمر قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أي البقاع خير؟ فقال: لا أدري قال فأبي البقاع شر؟ فقال: لا أدري فأتاه جبريل فقال: سل ربك فقال جبريل: ما نسأله عن شيء فانتفض انتفاضة كاد أن يصعق منها محمد صلى الله عليه وسلم؛ فلما صعّد جبريل قال الله تعالى سألك محمد أي البقاع خير

¹ عيون الأثر لابن سيّد الناس ج ١ ص ٢٨٦. بيروت.

فقلت : لا أدري وسألك أي البقاع شر فقلت لا أدري، قال : فقال : نعم قال :
فحدثه أن خير البقاع المساجد وأن شر البقاع الأسواق .

وما ذلك إلا لما فيها من غفلة وسهام مسمومة بالنظر المحرم، وحلف بالباطل وانغماس تام في الدين، لذلك استحقت بمقابل ذلك أن يكون ذكر الله فيها من القربات الواقية لأهلها مما فيها من شرور مع رفع للدرجات . وعليه فليس الذم لنفس الأسواق وإنما الذم لبعض أهلها المتصفين بالسوء .

٢- الحزم النبوي مع مخالفة العقود والمواثيق : لم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم في إدارته لشؤون المدينة المنورة أي خرق للوثيقة والدستور الذي كتبه وعقده مع الناس، ولم يخرج هؤلاء اليهود أو حتى الذين أجلاهم من بعدهم لكونهم من أهل الكتاب، وإنما أخرجهم لخيانتهم العهد الذي من شأنه أن يخل الحياة الآمنة للناس في دمائهم وأعراضهم وقد حصل ذلك .

٣- الإنابة في وظيفة الجباية المالية : يدل فعل النبي صلى الله عليه وسلم في توكيل محمد بن مسلمة على جواز الإنابة في الوظائف المالية من قبل بيت المال .

غزوة أحد شوال

بعدهما انتهت معركة بدر وحدث ما حدث من نصر للمسلمين مشى رجال من المشركين ممن أصيب آباؤهم وأبنائهم وإخوانهم وعزموا على حرب المسلمين وكلموا أبا سفيان في أن يهب لهم أموال تلك القافلة لأجل الثأر فكانت غزوة أحد في ثلاثة مراحل :

المرحلة الأولى من غزوة أحد:

كان فيها خروج المشركين تجاه المدينة ووصولهم على مقربة منها، وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك التخطيط القرشي خطوة بخطوة من خلال جهاز الإدارة الخارجي ممثلاً بعمه العباس بن عبد المطلب؛ فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في الخروج إليهم أو انتظارهم في المدينة فكان الناس على رأيين مختلفين:

• الأول: أن ينتظرهم المسلمون في المدينة وكان رأيهم صلى الله عليه وسلم أن يقيم بالمدينة¹ فيقاتلهم فيها.

• الثاني: أن يخرجوا إلى خارج المدينة حيث قال له ناس لم يكونوا شهدوا بدرًا: نخرج يا رسول الله إليهم نقاتلهم بأحد². ورجوا أن يصيبهم من الفضيلة ما أصاب أهل بدر.

فما زال أصحاب الرأي الثاني برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ليس أذاته، ثم ندموا وقالوا: يا رسول الله أقم؛ فالرأي رأيك. فقال لهم: ما ينبغي لنبي أن يضع أذاته بعدما لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه. وظلت المدينة في حالة استنفار عام لا يفارق رجالها السلاح حتى وهم في الصلاة، استعداداً للطوارئ.

قال: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون، وهم ألف رجل، والمشركون ثلاثة آلاف؛ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بأحد. قال ابن إسحاق: حتى إذا كان بالشوط بين المدينة وأحد انخزل عنه عبد الله بن أبي بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس.

1 السيرة النبوية لابن كثير ج 3 ص 22

2 السيرة النبوية لابن كثير ج 3 ص 22.

وأمر على الرماة يومئذ عبدالله بن جبير¹ أخا بني عمرو بن عوف، وهو معلم يومئذ بثياب بيض، والرماة خمسون رجلاً؛ فقال: انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك. ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير أخي بني عبد الدار. قال موسى بن عقبة: وكان على خيل المشركين خالد بن الوليد، وكان معهم مائة فرس، وكان لواؤه مع عثمان بن طلحة. قال: ولم يكن مع المسلمين فرس. قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم. ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من أحد؛ في عدوة الوادي وفي الجبل، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وقال: لا يقاتلن أحد حتى أمره بالقتال. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة أخو بني ساعدة؛ فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به في العدو حتى ينحني. قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه². وتقارب الجمعان وتداننت الفئتان، وأنت مرحلة القتال، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري وقتل تسعة بعده من بني الدار من حملة اللواء واستشهد حمزة بن عبد المطلب بعد أن أبلى بلاءً حسناً وظل المسلمون في سيطرة تامة، كما واستشهد حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة ونجت خطة رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال فصيل الرماة وبدأ المشركون بالفرار بعد أن خارت عزائمهم.

الدروس والعبر:

1 السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٦٥

2 السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٦٦.

١- خطورة المال بأيدي المجرمين والمعتدين: قال ابن إسحاق: ففيهم - أي مشركي

مكة كما ذكر لي بعض أهل العلم أنزل الله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ**

لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (الأنفال: ٣٦) وإذا كان شأن أعداء الأمة هكذا عبر العصور

فينبغي على المسلمين ألا ييخلوا في هذا المجال لرد كيد الكائدين المعتدين على

الديار والأوطان خاصة وأن ذلك هو من عناصر التجارة الرابحة التي تنجي العبد من

عذاب أليم في الدنيا والآخرة: قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ**

تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ

ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ

عَدْنِ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ

(الصف: ١٠ - ١٣).

٢- الاستشارة: لقد نزل في القرآن ما يشير إلى ذلك: **وَلَئِنْ مَتُّمُ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ**

تُحْشَرُونَ * فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُتَوَكِّلِينَ * إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي

يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (آل عمران: ١٥٨ - ١٦٠). وإن

موضع الشورى يكون في كل ما لا نص فيه من القرآن أو السنة، لكن تلك المشورة لها حدود؛ فلا يقبل التمادي فيها حتى لا تتحول إلى مظهر من مظاهر الضعف والاضطراب بدليل خروجه صلى الله عليه وسلم عنها بعد أن اتخذ قراره وليس درعه .

٣- الحزم والعزم الإداري في اتخاذ القرارات الخاصة في قضايا الحرب¹ : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ينبغي لنبي إذا لبس لأُمَّته² أن يضعها³، وتكرر الأمر مع أبي عزة آخر المعركة الذي كان قد من عليه صلى الله عليه وسلم بالفداء يوم بدر وكان شاعراً فقيراً فرفض فأغراه صفوان بن أمية بالمال ورعاية بناته لتحريض الناس فخرج وعندما تمكن منه صلى الله عليه وسلم أمر بإنهاء أمره قائلاً له إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .

٤- النظرة الاستراتيجية في حسن اختيار مكان المعركة : اختار صلى الله عليه

وسلم معسكره موضعاً مرتفعاً يحتمي به وذلك لأمرين لا ثالث لهما :

- الأول إذا كانت الغلبة للمشركين: فيصعب على الأعداء أن يحصلوا على شيء من فوائد النصر .

- إذا كانت الغلبة للمسلمين: فيصعب على قريش الإفلات من المسلمين المطاردين .

¹ فقه السيرة النبوية للبوطي ص ٢١٤ .

² اللأمة الدرع وجمعها لؤم. لسان العرب ج ١٢ ص ٥٦٠ .

³ السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٦٣ .

٥- حسن اختيار الرجال لتعويض النقص العددي: قام صلى الله عليه وسلم

باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين وهم كثيرون كأبي دجانة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة أخو بني ساعدة؛ فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به في العدو حتى ينحني. قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه¹. وكذلك كان سعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة وقتادة الذي سقطت إحدى عينيه فردها له صلى الله عليه وسلم فكانت أحسن عينيه.

٦- الحرص على الضبط الإداري: نجد ذلك من خلال تأمير عبد الله بن جبير رضي الله عنه على الرماة، وذلك لأجل المسؤولية وضبط الخلاف، ونجد ذلك أيضاً في استعماله صلى الله عليه وسلم على المدينة رجلاً من أصحابه عند خروجه منها.

المرحلة الثانية من المعركة:

بينما كان الجيش الإسلامي الصغير يسجل نصراً ساحقاً آخر على أهل مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذي اكتسبه يوم بدر، وقعت أغلبية فصيلة الرماة بغلطة كبيرة قلبت الوضع تماماً، أدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، بل كادت تكون سبباً في مقتل النبي صلى الله عليه وسلم، وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم، وعلى الهيبة التي كانوا يتمتعون بها بعد بدر.

وحدث ذلك رغبة منهم بالغنائم على رغم الأوامر المشددة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا يتحركوا من مكانهم، أما قائدهم عبد الله بن جبير؛ فقد ذكّرهم

¹ السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٣٠.

بأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قائلاً: أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لكن الأغلبية الساحقة لم تلتق لهذا التذكير بالاً، وقالت: والله لناأتين الناس فلنصيبين من الغنيمة، وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة أو أقل من أصحابه والتزموا مواقفهم مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يبادوا. وجمع خالد الخليل حينما رأى تلك الثغرة والتف خلف المسلمين بعد اختلال الوضع الاستراتيجي الذي رسم لهم.

قال ابن إسحاق: وانكشف المسلمون فأصاب فيهم العدو، وكان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة حتى خلص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكسرت رباعية النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وشج وجهه؛ فجعل الدم يسيل على وجهه وجعل يمسح الدم وهو يقول كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم¹ والتف حوله خيرة من أصحابه في شجاعة وثبات وعزيمة كأبي بكر وأبي عبيدة رضي الله عنهما.

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر للعام القابل؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه: قل نعم هو بيننا وبينكم موعد، ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب؛ فقال: اخرج في آثار القوم؛ فانظر ماذا يصنعون وما يريدون فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزتهم. قال علي:

¹ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٧٩.

فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة، وفرغ الناس لدفن قتلاهم وحزن الرسول على عمه حمزة رضي الله عنه .

قال ابن إسحاق : وكان قد احتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة؛ فدفنوا بها، ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال ادفنواهم حيث صرعوا وقال : انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر – وكانوا يدفنون الاثني والثلاثة في القبر الواحد .

قال ابن إسحاق : فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة فقال اغسلي عن هذا دمه يا بنية فوالله لقد صدقني اليوم وناولها علي بن أبي طالب سيفه؛ فقال وهذا أيضا؛ فاغسلي عنه دمه فوالله لقد صدقني اليوم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة .

قال ابن إسحاق : وكان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال .

إغراء المغنم والغلول فيه

قال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة، أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم؛ فما تنظرون؟ قال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: إنا والله لنأتين الناس فلنصيب من الغنيمة¹. وكانت آية الغلول واضحة

الدلالة بعد المعركة قال الله تعالى: **وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَلْ مِّنْ غَنَائِمٍ يَأْتِيَهَا بِمَا عَمِلَ يَوْمَ**

¹ السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٤٩.

الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ* أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ

بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (آل عمران: ١٦١ - ١٦٢).

والغلول هو: التملك الباطل والانتفاع الخفي بالمالية العامة من غير إذن بيت المال وهذا واسع في الأموال العامة.

أثر طاعة الله ورسوله صلى الله عليه في نجاح ونصر الأمة

عندما التزم الرماة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتسح المسلمون عدوهم، وعندما نسوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصاهم بألا يتحركوا من أماكنهم ونزلوا واتجهوا نحو الغنائم ليشاركوا فيها كانت النتيجة تحول ميزان المعركة لما أدخل الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فضرب بعضهم بعضاً والتبسوا، وقُتل من المسلمين ناس كثير¹ وذلك ليس لخلل في إدارة رسول الله صلى الله عليه وسلم لها، بل لظهور المعصية

قال الله تعالى: **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ**

وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا

وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ

وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران: ١٥٢)

¹ أحمد في المسند عن ابن عباس.

إقامة النبي صلى الله عليه في أرض المعركة

يقع هذا للمرة الثانية بعد بدر؛ فجاء الأمر في أحد حيث دفن الشهداء وتبع أخبار العدو من خلال إرسال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهذا فيه دلالة على يقظة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومراقبته الدقيقه للمشركين وقدرته على تقدير الأمور والمواقف .

الرعاية الاجتماعية

تجلت هذه الرعاية في مواقف عديدة للنبي صلى الله عليه وسلم ومنها ما كان تتبعه لأخبار أبناء الشهداء وجابر بن عبد الله مثل علي ذلك؛ سيمر معنا لاحقاً في غزوة ذات الرقاع، قال ابن هشام: وحدثني أبو بكر الزبيري أن رجلاً دخل على أبي بكر الصديق، وبنت لسعد بن الربيع جارية صغيرة على صدره يرشفها ويقبلها؛ فقال له الرجل من هذه؟ قال هذه بنت رجل خير مني، سعد بن الربيع، كان من

النقباء يوم العقبة، وشهد بدرًا، واستشهد يوم أحد: **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (البقرة: ٢٢٠).

المرحلة الثالثة من المعركة:

لما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس بطلب العدو فأذن مؤذنه أن لا يخرج من معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس .

فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام؛ فقال يا رسول الله إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع وقال يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي؛ فتخلف على أخواتك؛ فتخلفت عليهن. فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج معه، وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مُرهباً للعدو وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم.

قال ابن إسحاق: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إلى حمراء الأسد¹ المدينة على ثمانية أميال واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم²؛ فيما قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: فأقام بها الاثني والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة. ومر به ركب من عبد القيس؛ فقال أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة؟ قال ولم؟ قالوا: نريد الميرة. قال فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه وأحمل لكم هذه غداً زيباً بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا نعم؟. قال فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم فمر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان؛ فقال حسبنا الله ونعم الوكيل.

الدروس والعبر:

¹ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٠١.
² ابن أم مكتوم * مختلف في اسمه؛ فأهل المدينة يقولون: عبد الله بن قيس بن زائدة بن الأصم بن رواحة القرشي العامري. وأما أهل العراق؛ فسموه عمراً. وأمه أم مكتوم؛ هي عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة بن عامر بن مخزوم بن يقظة المخزومية. من السابقين المهاجرين. وكان ضريراً مؤذناً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع بلال، وسعد القرظ، وأبي محذورة.

- ١ - **حكمة عظيمة**: قال ابن إسحاق: كان يوم أحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص اختبر الله به المؤمنين ومحن به المنافقين ممن كان يظهر الإيمان بلسانه وهو مستخف بالكفر في قلبه ويوماً أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته¹.
- ٢ - **خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد إشارة نبوية إلى أهمية استعمال الحرب النفسية للتأثير على معنويات الخصوم**: خرج صلى الله عليه وسلم بجنوده إلى حمراء الأسد، ومكث فيها ثلاثة أيام، وأمر بإيقاد النيران فكانت تشاهد من مكان بعيد وملاّت الأرجاء بأنوارها، حتى خيل لقريش أن جيش المسلمين ذو عدد كبير لا طاقة لهم به فانصرفوا، وقد ملأ الرعب أفئدتهم.

تجارة رابحة بنعمة من الله وفضل

وذلك على قولين من أهل العلم قول أن ذلك يوم حمراء الأسد وقول أن ذلك في يوم مواعدة أبي سفيان، حيث روى ابن كثير في تفسيره قال البيهقي: عن عكرمة، عن ابن عباس في قول الله تعالى: **فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ**، قال: النعمة أنهم سلموا، والفضل أن غيراً² مرت، وكان في أيام الموسم؛ فاشترها رسول الله صلى الله عليه وسلم فربح فيها مالاً فقسمه بين أصحابه. وروى الطبري: عن مجاهد في قوله: **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم**، قال: هذا أبو سفيان قال لمحمد: "موعدكم بدرٌ حيث قتلتم أصحابنا"؛ فقال محمد صلى الله عليه وسلم:

¹ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٠٥.

² العير: كل ما جلب عليه المتاع والتجارة من قوافل الإبل والبغال والحمير

عسى! فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم لموعده حتى نزل بدرًا؛ فوافقوا

السوق فيها وابتاعوا؛ فذلك قوله تبارك وتعالى: **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم**

يمسسهم سوء، وهي غزوة بدر الصغرى¹. فالفضل ما أصابوه من التجارة والأجر.

قال الواقدي: فأقاموا ببدر مدة الموسم الذي كان يعقد فيها ثمانية أيام؛ فرجعوا

وقد ربحوا من الدرهم درهمين².

وقال الطبري: وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: "إن الذي قيل لرسول

الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، كان في

حال خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخروج من خرج معه في أثر أبي سفيان

ومن كان معه من مشركي قريش، مُنصَرَفهم عن أحد إلى حمراء الأسد³. وأرى أن

قوله تعالى: **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل**، يقع على ما حدث في حمراء الأسد

ويقع على ما حدث في بدر الصغرى أو الموعد، لأن العبرة بعموم اللفظ لا

بخصوص السبب وفي الموقفين عاد المسلمون بنعمة السلامة والأجر مع تحقق تلك

التجارة. وأرى أنه سيحقق مع أهل الإيمان والعمل والصلاح دائماً عند حسن

وجمال توكلهم على الله تعالى.

1 تفسير الطبري ج ٧ ص ٤١١. مؤسسة الرسالة ط ١.

2 سيرة ابن كثير ج ٣ ص ١٧٢.

3 الطبري ج ٧ ص ٤١٢.

وسام ومنحة مالية

قال ثعلبة بن أبي مالك رضي الله عنه: إن عمر بن الخطاب قسم مُروطاً¹ بين نساء المدينة؛ فبقي مرطٌ جيد؛ فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين أعط هذا ابنة رسول الله التي عندك، يريدون أم كلثوم بنت علي؛ فقال عمر رضي الله عنه: أم سَلِيْطٍ أَحَقُّ بِهِ مِنْ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ تَزْفِرُ لَنَا الْقَرَبَ يَوْمَ أَحَدٍ.

إجلاء بني النضير

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة الرابعة للهجرة إلى بني النضير يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر الذين قتل عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لهما؛ فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية ذينك القتيلين، قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت، ثم هم هؤلاء بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم غدراً حيث قالوا: فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟².

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج ثم لحقه أصحابه فأخبرهم بالغدر، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم.

¹ المرطُ كِسَاءٌ مِنْ خَزٍّ أَوْ صُوفٍ أَوْ كَتَّانٍ وَقِيلَ هُوَ الثَّوْبُ الْأَخْضَرُ وَجَمْعُهُ مُرُوطٌ. لسان العرب ج ٧ ص ٣٩٩.

² سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٨٩.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، ثم سار بالناس حتى نزل بهم. وذلك في شهر ربيع الأول فحاصرهم ست ليال ونزل تحريم الخمر. فتحصنوا منه في الحصون فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل والتحريق فيها؛ فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخل وتحريقها؟

وقذف الله في قلوبهم الرعب وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعلهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة¹ ففعل. فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به. فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام².

وتركوا الأموال لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المهاجرين الأولين دون الأنصار. إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك بن خرشة ذكرا فقراً؛ فأعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لماذا طلب صلى الله عليه وسلم المساعدة من بني النضير؟

لقد كان بنو النضير في عقد وعهد مع المسلمين منذ قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وكان ذلك العقد ينص على تلك المشاركة المالية.

1 الحَلَقَةُ اسم لجمع السلاح والذُّرُوعِ وما أشبهها. عن غريب الحديث ج ١ ص ٢٣٥، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن حمادي بن أحمد بن جعفر، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٥.

2 سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٩١.

مفهوم الدية ومقدراها

الدية هي المال الواجب بالجناية على النفس أو ما في حكمها¹. وأما مقدار الدية فقد نوع الدية ومقدارها: اختلف الفقهاء على آراء ثلاثة في تحديد نوع الدية، وهي ما يأتي:

- **رأي أبي حنيفة ومالك، والشافعي في مذهبه القديم:** إن الدية تجب في واحد من ثلاثة أنواع: الإبل، والذهب، والفضة. ويجزئ دفعها من أي نوع. ودليلهم ما ثبت في كتاب عمرو بن حزم في الديات: (وإن في النفس الدية، مائة من الإبل)² وأن عمر فرض على أهل الذهب في الدية ألف دينار ومن الورق عشرة آلاف درهم. ورأي أبي حنيفة هو الصحيح في مذهبه.
- **رأي الصحابين وأحمد:** إن الدية تجب من ستة أجناس، وهي الإبل أصل الدية، والذهب، والفضة، والبقر، والغنم، والحلل. والخمسة الأولى هي أصول الدية عند الحنابلة، وأما الحلل فليست أصلاً عندهم؛ لأنها تختلف ولا تنضبط. وروي عن أحمد: أنها أصل، وقدرها مئتا حلة من حلل اليمن، كل حلة بردان؛ إزار ورداء جديان. وأي شيء أحضره الملزم بالدية، لزم ولي القتل قبوله، سواء أكان الجاني من أهل ذلك النوع، أم لا؛ لأنها أصول في قضاء الواجب، يجزئ واحد منها؛ فكانت الخيرة إلى من وجبت عليه كخصال الكفارة. ودليل هذا الرأي: أن عمر قام خطيباً فقال: (ألا إن الإبل قد غلت، قال الراوي؛

1 الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي ج ٧ ص ٥٧٠٢.

2 سنن النسائي ذكر حديث عمرو بن حزم في العقول واختلاف الناقلين له ج ٤ ص ٢٤٥.

فقوم على أهل الذهب ألف دينار، وعلى أهل الورق اثني عشر ألفاً، وعلى أهل البقر مئتي بقرة، وعلى أهل الشاء ألفي شاة، وعلى أهل الحلل مئتي حلة¹. وعن جابر بن عبد الله أنه قال: (فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدية على أهل الإبل مئة من الإبل...)².

• **رأي الشافعي في مذهبه الجديد:** إن الواجب الأصلي في الدية هو مائة من الإبل إن وجدت، وعلى القاتل تسليمها للولي سليمة من العيوب؛ فإن عدمت حساً بأن لم توجد في موضع يجب تحصيله منه، أو عدمت شرعاً بأن وجدت فيه بأكثر من ثمن مثلها؛ فالواجب قيمة الإبل، بنقد البلد الغالب، وقت وجوب تسليمها بالغة ما بلغت؛ لأنها بدل متلف؛ فيرجع إلى قيمتها عند فقد الأصل. ودليله الحديث السابق وهو ما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كانت قيمة الدية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ثمان مئة دينار، أو ثمانية آلاف درهم، كان ذلك كذلك، حتى استخلف عمر رضي الله عنه؛ فقام عمر خطيباً؛ فقال: (ألا إن الإبل قد غلت؛ فقال: فقوم على أهل الذهب ألف دينار، وعلى أهل الورق اثني عشر ألف درهم، وعلى أهل البقر مئتي بقرة، وعلى أهل الشاء ألفي شاة، وعلى أهل الحلل مئتي حلة)³، ويؤكد من المعقول أن ما ضمن بنوع من المال وتعذر، وجبت قيمته، كذوات الأمثال⁴.

1 سنن أبي داود كتاب الديات، باب الدية كم هي؟ ج ٢ ص ٥٩٢.

2 سنن أبي داود كتاب الديات، باب الديات كم هي؟ ج ٢ ص ٥٩٢.

3 سنن أبي داود باب الدية كم هي؟ ج ٢ ص ٥٩٢.

4 الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي ج ٧ ص ٥٧٠٧.

حكم قطع الأشجار في المعركة

أمر صلى الله عليه وسلم بإتلاف بعض الأشجار ثم أمر بترك الباقي هذا أمر ثابت بالاتفاق وقد نزل في القرآن: ما قطعتم من لينة... وقد استدل العلماء بذلك على أن الحكم الشرعي بقطع أشجار العدو وإتلافها منوط بما يراه الإمام وهو داخل في عموم السياسة الشرعية¹، وهذا مذهب نافع مولى ابن عمر ومالك والثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وجمهور الفقهاء². على أن الأصل في هذه المسألة عدم القطع وذلك لبيان أبي بكر رضي الله عنه الذي كان ملاصقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بشكل دائم ومن حرصه على أن تكون الفتوحات الإسلامية محمّلة بالرحمة والحضارة كان يوصي الجيش قبل مغادرته بكل خير للأمة وللبلاد إلى يتم فتحها، ومن ذلك الوصية التي أوصى بها جيش أسامة بن زيد³ تنفيذاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء فيها: لا تخونوا ولا تغدروا، ولا تغلّوا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعزقوا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة إلا للأكل وإذا قرّب عليكم طعام فاذكروا اسم الله...⁴.

1 فقه السيرة للبوطي ص ٢٣٠.

2 شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٢ ص ٥٠.

3 أسامة بن زيد بن حارثة استعمله النبي وهو ابن ثماني عشرة سنة توفي آخر أيام معاوية سنة ثمان أو تسع وخمسين. أسد الغابة ج ١ ص ١٩٤.

4 تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٦.

تقسيم الفية

تعد الآثار المالية لغزوة بني النضير أصلاً في مشروعية الفية وكل معاني الفية عند الفقهاء تتفق على أنه: المال الذي يأخذه المسلمون أو يرجع إليهم من غيرهم من غير قتال¹.

تقسيم الفية²: اختلف العلماء في مصرف الفية:

- قال مالك: الفية والخمس سواء، يجعلان في بيت المال ويعطي الإمام أقارب النبي صلى الله عليه وسلم بحسب اجتهاده.
- وفرق الجمهور بين خمس الغنيمة وبين الفية؛ فقالوا: الخمس موضوع فيما عينه الله فيه من أصناف المسلمين في آية الخمس من سورة الأنفال لا يتعدى به إلى غيرهم، وأما الفية فهو الذي يرجع النظر في مصرفه إلى رأي الإمام بحسب المصلحة.
- وانفرد الشافعي كما قال ابن المنذر وغيره بأن الفية يخمس وأن أربعة أخماسه ٨٠٪ للنبي صلى الله عليه وسلم وله خمس الخمس ٤٪ كما في الغنيمة، وأربعة أخماس الخمس ١٦٪ لمستحق نظيرها من الغنيمة.

¹ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين الكاساني ج ٧ ص ١١٥ دار الكتاب العربي بيروت ط ٢ - ١٩٨٢. الكافي لابن عبد البر يوسف بن عبد الله القرطبي ص ٢١٦، دار لكتب العلمية بيروت، ط ١ - ١٤٠٧هـ، كفاية الأخيار للحصني الشافعي ص ٦٠٦، المغني ج ٦ ص ٣١٢.

² يُنظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج ٦ ص ٢٠٨ دار المعرفة بيروت، وكذا شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٢ ص ٦٩، كذا تحفة الأحوزي ج ٥ ص ٣١٢: محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري دار الكتب العلمية، بيروت.

- وقال الجمهور: مصرف الفيء كله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، واحتجوا بقول عمر: فكانت هذه لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة. وتأول الشافعي قول عمر المذكور بأنه يريد الأخماس الأربعة.
 - نتيجة في قسمة الفيء: إن الفيء هو المال الذي أخذه المسلمون من الكفار من غير قتال، ويوضع في بيت المال بشكل كامل باتفاق الفقهاء. وللإمام الحق في التصرف به في مصالح الأمة ضمن نسبة ٨٤٪ عند الشافعية و١٠٠٪ عند جمهور الفقهاء.
- كيف قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن أعطى: لقد قسمت أموال بني النضير على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا اثنين من الأنصار أعطاهما لما ذكر له

من فقرهما، وهما: سهل بن حنيف¹ وأبو دجانة سمّك بن خرشة²، وأضاف بعض أهل السيرة³ رجلاً ثالثاً هو الحارث بن الصمة⁴.

وذكر صاحب زاد المعاد العلة في قسم أموال بني النضير في المهاجرين فحسب، وذلك بكون الأنصار قد شاركوهم في أموالهم حينما قدموا المدينة المنورة، وقد أثنى الله تعالى على عمل الأنصار الذي شكل نوراً ونبراساً للأمة عبر كل العصور؛ فجاء الوقت الذي تستطيع فيه الدولة الإسلامية القيام بكفالة المحتاجين فيها، وهنا خير الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الأنصار بين أن يعيد لهم تلك الأموال التي أعطوها للمهاجرين وبين مشاركة المهاجرين في هذه الأموال الجديدة. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن شئتم قسمت أموال بني النضير بينكم وبينهم

1 سهل بن حنيف: بن وهب الأنصاري أبو ثابت شهد بدرًا والمشاهد كلها روى عنه ابنه أبو أمامة أسعد وعبد الله وابن أبي ليلى وآخرون قال ابن عبد البر ثبت يوم أحد وشهد مع علي صفيين ومات بالكوفة سنة ثمان وثلاثين. عن إسعاف المبطأ برجال الموطأ للسيوطي ص ١٣.

2 سمّك بن خرشة أبو دجانة الأنصاري، بدري استشهد باليمامة، روى عنه: ابنه خالد، وهو الذي أخذ سيف النبي صلى الله عليه وسلم بحقه يوم أحد، وأحسن القتال بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبا دجانة يوم أحد أعلم بعصاة حمراء؛ فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يختال في مشيه بين الصفيين فقال: "إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع" معرفة الصحابة ج ٣ ص ١٤٥٣، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني المتوفى: ٤٣٠ هـ تحقيق: عادل بن يوسف العزازي دار الوطن للنشر - الرياض، ط ١ ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

3 ذكره ابن القيم في زاد المعاد كما ذكره القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ج ١٨ ص ١٠.

4 الحارث بن الصمة بن عمرو بن عتيك بن عمرو بن مبدول، ويكنى أبا سعد أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بين الحارث بن الصمة وصهيب بن سنان، خرج الحارث بن الصمة مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فلما كان بالروحاء كسر فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة وضرب له بسهمه وأجره فكان كمن شهدها، وشهد الحارث أحداً وبايعه على الموت. وشهد الحارث أيضاً يوم بئر معونة وقتل يومئذ شهيداً في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة. عن الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٥٠٩.

وأقمتهم على مواساتهم في ثماركم وإن شئتم أعطيناها للمهاجرين دونكم وقطعتهم عنهم ما كنتم تعطونهم من ثماركم فقالوا: بل تعطيهم دوننا، ونمسك ثمارنا؛ فأعطاه رسول الله المهاجرين؛ فاستغنوا بما أخذوا واستغنى الأنصار بما رجع إليهم من ثمارهم وهؤلاء الثلاثة من الأنصار شكوا حاجة؛ فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم¹. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يزرع تحت النخل في الأرض التي لم يوزعها؛ فيدخر من ذلك قوت أهله وأزواجه سنة، وما فضل جعله وفق ما أنزل الله تعالى في الكراع والسلاح، أي جعله في خيل الجهاد، وكذا لليتامى والمساكين وابن السبيل.

يعد التصرف النبوي مع هذه الأراضي نوع من ثلاثة أنواع في طريقة التعامل مع الأراضي؛ فهنا قسم صلى الله عليه وسلم، وفي خيبر قسّم قسماً وترك الباقي خراجاً لبیت المال، وفي مكة لم يقسم صلى الله عليه وسلم، كما سيمر لاحقاً عند الحديث عن خيبر.

¹ زاد المعاد في هدي خير العباد ج ٥ ص ٦٢ بتصريف، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، مؤسسة الرسالة بيروت ط ١٤، ١٤٠٧ - ١٩٨٦ تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط.

الفصل الخامس من ذات الرقاع إلى فتح مكة

لقد ذكر الفصل السابق عدداً من الدروس والعبر منذ وصول الحبيب صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مروراً ببناء المسجد وغزوتي بدر وأحد حتى أمر بني قينقاع وبني النضير، وسيذكر هذا الفصل العبر والدروس المالية والاقتصادية من غزوة ذات الرقاع وحتى غزوة الأحزاب .

غزوة ذات الرقاع

غزا النبي صلى الله عليه وسلم في السنة الرابعة للهجرة نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري ويقال عثمان بن عفان¹ . قال ابن إسحاق: فلقى بها جمعاً عظيماً من غطفان؛ فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب وقد خاف الناس بعضهم بعضاً، حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس صلاة الخوف، ثم انصرف بالناس . وفي طريق العودة حدثت قصة لطيفة رائعة بين جابر بن عبد الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال جابر بن عبد الله: خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة ذات الرقاع² من نخل، على جمل لي ضعيف؛ فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: جعلت الرفاق تمضي، وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله صلى الله عليه وسلم .

1 سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٣

2 سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٦ .

وسلم فقال: **ما لك يا جابر؟** قال: قلت: يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا. قال: **أنخه**، قال: فأنخته، وأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: **أعطني هذه العصا من يدك، أو اقطع لي عصا من شجرة**. قال: ففعلت. قال: فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخسه¹ بها نخسات ثم قال اركب فركبت فخرج والذي بعثه بالحق يواحق ناقته مواهقة².

وبعد ذلك يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفقة تجارية مع جابر: **أتبيعني**

جملك هذا يا جابر؟

قال قلت: يا رسول الله بل أهبه لك، قال: **لا، ولكن بعنيه**، قال: قلت: فسمنيه يا رسول الله، قال: **قد أخذته بدرهم**، قال: قلت: لا. إذن تغبني يا رسول الله! قال: **فبدرهمين**، قال: قلت: لا. قال: فلم يزل يرفع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمنه؛ حتى بلغ الأوقية³. قال: فقلت: أفقد رضيت يا رسول الله؟ قال: **نعم** قلت: فهو لك، قال: **قد أخذته**. قال ثم قال: **يا جابر هل تزوجت بعد؟** قال: قلت: نعم يا رسول الله. قال: **أثيباً أم بكرأ؟** قال: قلت: لا، بل ثيباً. قال: **أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك**. قال قلت: يا رسول الله إن أبي أصيب يوم أحد وترك بنات له سبعاً؛ فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن. قال: **أصبت إن**

¹ نخس نخس الدابة نخساً غرز جنبها أو مؤخرها بعود أو نحوه حتى تنشط.

² أي يباريها في السير ويماشيها.

³ أربعون درهماً.

شاء الله أما إنا لو قد جئنا صرارا¹ أمرنا بجزور فنحرت وأقمنا عليها يومنا ذاك وسمعت بنا؛ فنفضت نمارقها. قال: قلت: والله يا رسول الله ما لنا من نمارق². قال: إنها ستكون؛ فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كيساً³. قال: فلما جئنا صراراً، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجزور⁴ فنحرت وأقمنا عليها ذلك اليوم فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل ودخلنا، قال فحدثت المرأة الحديث وما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: فدونك؛ فسمع وطاعة. قال فلما أصبحت أخذت برأس الجمل فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ثم جلست في المسجد قريباً منه، قال: وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأرى الجمل؛ فقال: ما هذا؟ قالوا: يا رسول الله هذا جمل جاء به جابر قال: فأين جابر؟ قال فدعيت له، قال: فقال: يا ابن أخي خذ برأس جملك؛ فهو لك، ودعا بلالاً؛ فقال له اذهب بجابر؛ فأعطه أوقية. قال فذهبت معه

1 صرار بكسر الهملة والتخفيف، وهو موضع بظاهر المدينة على ثلاثة أميال منها من جهة المشرق.

2 وهي الوسائد التي يصف بعضها إلى بعض، وقيل: التمركة الوسادة التي يجلس عليها.

3 الكيس بالنصب على الاغراء؛ فسرّه ابن حبان بالجماع، وفسره البخاري وغيره بطلب الولد، وفسره بعضهم بالرفق وحسن التاني، زاد ابن خزيمة عن جابر: فدخلنا حين أمسينا فقلت للمرأة: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمرني أن أعمل عملاً كيساً، قالت: سمعاً وطاعة؛ فدونك فبت معها حتى أصبحت.

4 بفتح الجيم وهي من الإبل وف رواية أخرى عن البخاري ومسلم فلما قدم صرارا أمر ببقرة فذبحت فأكلوا منها.

فأعطاني أوقية وزادني شيئاً يسيراً. قال فوالله ما زال ينمي عندي، ويرى مكانه من بيتنا، حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا يعني يوم الحرة¹.

قال ابن هشام: وإنما قيل لها غزوة ذات الرقاع، لأنهم رقعوا فيها راياتهم ويقال ذات الرقاع: شجرة بذلك الموضع يقال لها: ذات الرقاع.

الدروس والعبر:

١- مشروعية السوم في البيع والشراء: وكذلك الزيادة فيه سواء من طرف واحد أو من عدة أطراف "المزايدة": حيث يدل فعله صلى الله عليه وسلم على حل السوم في البيع والشراء وذلك شريطة عدم بخس الناس أشياءهم. ولم يكن عرضه المالي الأول صلى الله عليه وسلم على جابر من قبيل البخس وإنما من قبيل إدخال الأنس وتبادل أطراف الحديث مع جابر في طريق السفر الطويل. وأخرج الترمذي عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم باع حلساً وقدحا وقال: **من يشتري هذا الحلس والقدح**. فقال رجل: أخذتهما بدرهم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **من يزيد على درهم من يزيد على درهم؛ فأعطاه رجل درهما فباعهما منه**.

٢- جواز تأخير تسليم المبيع لأمر وحكمة ما: كان جابر بن عبد الله يركب الجمل في السفر وأخر تسليم المبيع حتى وصل للمدينة المنورة.

1 أي يوم الوقعة التي كانت حوالي المدينة عند حرتها بين عسكر الشام من جهة يزيد بن معاوية وبين أهل المدينة سنة ثلاث وستين.

٣- الحس الاجتماعي الكبير عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: آية مشاعرٍ تلك التي يعلمنا إيّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وهو القائد الأعلى للأمة الإسلامية، ينظر في أحد جنده وإذا به أحد أبناء المجاهدين الأوائل الذين قدموا أنفسهم وباعوها في سبيل الله، وقد ترك عائلة كبيرة فقيرة لذا لا بد من رعاية أسرة ذلك الشهيد وابنه المجاهد الحبيب بطريقة حسية رفيعة؛ فلم يكن صلى الله عليه وسلم يفعل شيئاً عبثاً بل كانت أفعاله مقرونة بالحكمة ومؤيدة بالعصمة؛ فاشترى الجمل من جابر ثم أعطاه الثمن وزاده عليه زيادة ثم رد الجمل عليه وقد كان يمكن أن يعطيه ذلك العطاء دون مساومة في الجمل ولا اشتراء ولا شرط ولا توصيل؛ فلننظر بعين الاعتبار لما يلي أيضاً:

* يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم التكافل المعنوي؛ فمشى مع آخر الجند وليس مع القادة الذين يتقدمون الجيش كما هي عادة القادة؛ فجابر بن عبد الله الذي يظهر على شاكلة المساكين فوق ناقته الضعيفة، تكافله صلى الله عليه وسلم بالمشي معه؛ وأحب المساكين فدعا الله أن يحشر معهم. قال صلى الله عليه وسلم: اللهم أحييني مسكيناً وأمّتي مسكيناً واحشرنى في زمرة المساكين يوم القيامة¹.

* يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم آداب التكافل؛ فلم يعط جابراً المال بطريقة مباشرة؛ بل بملاطفة بديعة.

1 أخرجه الترمذي بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ج ٤ ص ٥٧٦. إحياء التراث العربي.

* يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم ضرورة استغلال المناسبات لتقديم الإعانات فمناسبة جابر رضي الله عنه هي زواجه، وقد اشار إلى فضل من يعين الراغبين في العفاف: ثلاثة حق على الله عز وجل عونهم، المكاتب¹ الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله².

* كما أنه صلى الله عليه وسلم لم يفوت تلك المناسبة في تأكيد سنة عظيمة تساهم ولو بشكل بسيط في التكافل الاجتماعي وذلك في الإطعام حيث علمنا عليه الصلاة والسلام الوليمة في الزواج، وقد فعلها هو وأعان عليها وندب من يتزوج إليها مع مراعاة حال الزوج العروس؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم أولم بشاة مرة، وأولم بالتمر والسمن مرة أخرى حين تزوج صفية بنت حيي³.

غزوة الخندق شوال

هدأت الجزيرة العربية بعد الحروب أكثر من سنة كاملة، إلا أن اليهود شرعوا في التآمر من جديد على المسلمين وهذه طبيعتهم؛ فخرج عشرون رجلاً من زعماء اليهود وسادات بني النضير إلى قريش بمكة، يحرضونهم على غزو الرسول صلى الله عليه وسلم، ويوالونهم عليه، ووعدوهم بالنصر لهم؛ فأجابتهم قريش، ثم خرج

1 المكاتب: العبد الذي اتفق مع سيده على حريته مقابل مال معين.

2 أخرج الترمذي وقال: حديث حسن.

3 ونص الحديث عن أنس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعتق صفية، وتزوجها وجعل عتقها صداقها، وأولم عليها بحيس قال أهل اللغة: الحيس يؤخذ التمر فينزع نواه ويخلط بالأقط - وهو لبن مجفف يابس - أو الدقيق أو السويق. والسويق طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير سمي بذلك لانسياقه في الحلق.

هذا الوفد إلى عَطْفَانَ؛ فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشاً فاستجابوا لذلك، ثم طاف الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك فاستجاب له؛ فكانت غزوة الأحزاب أو الخندق .

خرجت قريش وعطفان¹؛ فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار أصحابه وأمر بحفر الخندق . قال ابن هشام: يقال إن سلمان الفارسي أشار به على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفر الخندق ترغيباً للمسلمين في الأجر وعمل معه المسلمون فيه . بينما أبطأ رجال من المنافقين في ذلك، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا إذن منه .

بينما الرجل من المسلمين إذا نابتة النائبة من الحاجة التي لا بد له منها، ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه في اللحاق بحاجته؛ فيأذن له، واشتد الجوع بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، لكن البركة كانت تخفف أحياناً من ذاك الجوع، وقد تجلت البركة في موقفين :

الأول: تمر ابنة بشير أخت النعمان بن بشير، حيث قالت: دعني أومي عمرة بنت رواحة؛ فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي، ثم قالت أي بنية، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما، قالت فأخذتها؛ فانطلقت بها؛ فمررت برسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ألتمس أبي وخالي؛ فقال: تعالي يا بنية، ما هذا

¹ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢١٤ .

معك؟ قالت: فقلت: يا رسول الله هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد، وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه، قال: هاتيه، قالت: فصبته في كفي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له ثم دحا بالتمر عليه؛ فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده اصرخ في أهل الخندق: أن هلم إلى الغداء؛ فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليستقط من أطراف الثوب.

الثاني: قام جابر بن عبد الله بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم على عناق صغيرة وحفنة من الشعير لما رأى من جوع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال جابر: فلما أن قلت له ذلك؟ قال نعم، ثم أمر صارخاً؛ فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت جابر بن عبد الله، قال: قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، قال: فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقبل الناس معه، قال: فجلس وأخرجناها إليه. قال: فبرك وسمى الله، ثم أكل وتواردها الناس كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس حتى صدر أهل الخندق عنها.

نزول قريش المدينة وخيانة بني قريظة

لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق، أقبلت قريش في عشرة آلاف وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع وهو جبل متصل بالمدينة؛ في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

قال ابن إسحاق : وأمر بالذراري والنساء فجعلوا في الآطام¹ ، وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري، حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه وعاقده على ذلك وعاهده؛ فلما سمع كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه؛ فما زال يكلمه حتى قال له : ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه؛ فإنني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء؛ فلم يزل حيي بكعب حتى نقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر وإلى المسلمين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عباد سيد الخزرج فقال² : انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم؛ فاجهروا به للناس، قال : فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم عَضَلٌ وَالْقَارَةُ، أَي كَعْدَرٍ عَضَلٍ وَالْقَارَةُ بِأَصْحَابِ الرَّجِيعِ، خبيب وأصحابه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين .

وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال معتب بن

1 الأَطْمُ بِالضَّمِّ: بناءٌ مُرْتَفِعٌ وجمعه آطام وهي الأبنية المرتفعة كالحصون.
2 سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٢ .

قشير، أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.

همَّ الرسول بعقد الصلح بينه وبين غطفان ثم عدل فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، وإلى الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري، وهما قائدا غطفان؛ فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه؛ فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المرافضة في ذلك؛ فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عباد؛ فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه فقالا له: يا رسول الله أمراً نحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما... فكان رأي سعد بالأ يعطى هؤلاء إلا منطلق القوة.

شأن نعيم في تخذيل المشركين عن المسلمين

أتى نعيم بن مسعود رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي؛ فمرني بما شئت؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما أنت فينا رجل واحد؛ فخذلنا عنا إن استطعت؛ فإن الحرب خدعة. كما بعث الله عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنتهم.

أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم حذيفة ليعرف ما حلّ بالمشرّكين؛ فرجع حذيفة إلى الرسول بتخاذل المشرّكين وانصرافهم، ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة ومعه المسلمون واضعين سلاحهم.

الدروس والعبر:

١- لا حرج في أن يستفيد المؤمن من أي عرف صالح وحكمة نافعة¹: لقد ذكر سلمان رضي الله عنه حفر الخندق أمام النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ بهذه الفكرة، وهي من عرف الأعاجم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقّ بها². وبذلك استفاد النبي صلى الله عليه وسلم من الطبيعة الجغرافية لأرض المدينة المنورة التي لا يمكن لأحد أن يدخلها إلا من الجهة الشمالية. فلما كانت المدينة تحيط بها الحرّات والجبال وبساتين من النخيل من كل جانب سوي الشمال، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن زحف مثل هذا الجيش الكبير، ومهاجمته المدينة لا يمكن إلا من جهة الشمال، اتخذ الخندق في هذا الجانب.

٢- إدارة المشروع: تجلّت إدارة النبي صلى الله عليه وسلم في الأمور التالية:

- إدراك عامل الزمن؛ فأبي مشروع هندسي لا تكمل إعداداته إلا من خلال تقدير الفترة الزمنية اللازمة لأجل تنفيذه، وقد كان أمام المسلمين فترة زمنية ضئيلة

1 فقه السيرة النبوية للبوطي ص ٢٥٤.

2 سنن الترمذي، ج ٥ ص ٥١، كتاب العلم. باب فضل الفقه على العبادة، قال أبو عيسى حديث غريب.

لأجل إنشاء مشروع الخندق، تقدر بالوقت الذي يحتاجه جيش الأحزاب للوصول إلى المدينة المنورة.

• أهمية القدوة في العمل: لم يكتف النبي صلى الله عليه وسلم بأمر الصحابة بأن يعملوا في حفر الخندق، بل كان معهم يعمل لأجل أن يشجعهم على مواصلة الجهد الحثيث في عملهم حتى لبس ثوباً من الأتربة والغبار على جسمه، وبذلك رسخ مبدأ المساواة في المجتمع بين كل أصناف الناس.

• الاستئذان وإجازات العمال: أنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين: **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ**

الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ

يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ

لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (النور:

٦٢) ونزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من أهل الحسبة والرغبة في الخير والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

• تقسيم العمل حسب المسافات: أخرج الحاكم أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم خط الخندق عام حرب الأحزاب حتى بلغ المذاحج؛ فقطع لكل عشرة

أربعين ذراعاً فاحتج المهاجرون سلمان منا، وقالت الأنصار: سلمان منا؛ فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: **سلمان منا أهل البيت.**

وفي ذلك دلالة إدارية مهمة لكل إداري ألا وهي توزيع العمل بين العاملين، ثم مراقبة ذلك التوزيع والمشاركة في حل المشكلات العالقة أثناء العمل حيث عمل صلى الله عليه وسلم على إزالة تلك الصخرة الكبيرة التي اعترضت طريق الصحابة.

٣- إدارة الصعاب؛ جوع الصحابة والبركة في الطعام: اشتد الجوع بأصحاب

النبي صلى الله عليه وسلم؛ فكان للمعجزات دور مالي غير مباشر في تموين الجيش. ولم يكن المسلمون خاصة من المهاجرين مع أمر جديد في الحصار فلقد ذاقوه بمكة المكرمة لثلاث سنوات وها هو الحصار الكامل يضرب عليهم من جديد لكن لفترة قاربت الشهر.

٤- تحقق وعد النبي صلى الله عليه وسلم بكنوز كسرى وقصور الشام واليمن:

فتح الله للمسلمين اليمن وأسلم أهلها، وانطلق المسلمون لفتح العراق والشام زمن أبي بكر رضي الله عنه وتم الفتح زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي وعد النبي صلى الله عليه وسلم دلالة واضحة على ضرورة بث الأمل ورفع الروح المعنوية للناس عند الأزمات الكبرى، ومن أدلة حرصه صلى الله عليه وسلم على معنويات أصحابه هي إشارته لسعد بن معاذ وسعد بن عباد بالاكْتفاء إشارة عند تأكد خبر خيانة بني قريظة كي لا تفتوا في أعضاد الناس.

٥- الدور المالي في المفاوضات: تحرك النبي صلى الله عليه وسلم إلى قبيلة غطفان

لتخفيف الأزمة التي استحكمت، وقبل قائدا غطفان عيينة بن حصن والحارث بن عوف هذه المفاوضات لما فيها من الغاية العسكرية التي قد خرجت لأجلها غطفان، ووصل العرض المالي لثلث ثمار المدينة بعد أن طلب القوم النصف، وقبل إجراء

الصلح بشكل نهائي، شاوور صلى الله عليه وسلم القادة أصحابه ليعلمهم الشورى في كل أمر يتصل بأمر الأمة، وأبدى القادة حُسن الاتباع لأمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

٦- يلاحظ في ذلك الحوار ثلاثة أمور:

- إن كان الأمر من عند الله فلا مجال للرأي فيه .
- أن يكون رأي يحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلا يُقدّم على رأيه الذي يحبه أحد .
- أن يكون لأجل الرفق بالمسلمين، وقد أعجب النبي صلى الله عليه وسلم بالمعنويات العالية للأُنصار فألغى مفوضات الصلح وبنوده . وبالنتيجة لم يقع الصلح ولم يتم دفع أي شيء من الأموال . لذلك لا دلالة على جواز صرف المسلمين أعداءهم عن ديارهم باقتطاع شيء من أرضهم أو ثمارهم، لأنه مما هو متفق عليه في أصول الشريعة أن الذي يحتج به من تصرفه صلى الله عليه وسلم إنما هو أقواله وأفعاله التي قام بها، ثم لم يرد اعتراض عليها من كتاب الله . لكن إن حصل الاضطرار وأُجأ المسلمون إلى ذاك كرهاً وهم متربصون بأعدائهم فلا عبرة لذلك، لأن الأحكام الشرعية عموماً يخاطب فيها من لم يكن مُكرهاً ولا مُلجأً¹ . فالضرورات تبيح المحظورات والضرورات تقدر بقدرها .
- إقامة أول مشفى: تدل أحدث غزوة الخندق على إنشاء أول مشفى في ظلال الإسلام داخل المدينة، وكان هذا المشفى لأجل تلك الحالة الطارئة التي عمت

¹ فقه السيرة النبوية للبوطي ص ٢٥٩-٢٦٠ .

المدينة المنورة، حيث اختلف الحال بين غزوة الخندق وما سبقها؛ فهذه الغزوة كانت في ديار المسلمين وأهليهم وإقامتهم بالمدينة حيث دامت حربها عدة أيام بخلاف القتال العرضي لعدة ساعات في بدر وأحد .

قال ابن هشام: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رفيدة في مسجده كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: **اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب¹**. وفي ذلك تسخير لكافة الموارد البشرية المتاحة حسب اختصاصها:

- فالرجال كانوا على مسائل الدفاع وكل حسب دوره فسلمان أخذ برأيه والصحابة للحفر والحراسة والسعديين للمعرفة أخبار الجبهة الداخلية، وحذيفة بن اليمان للاستطلاع الخارجي، ونعيم بن مسعود للحرب النفسية وحسان بن ثابت لرعاية المستضعفين من الذراري والنساء.
- وكانت النساء تعملن حسب استطاعتهن فرفيدة في الطب وصفية بنت عبد المطلب لرعاية وحماية الذرية والنساء، وقد ضربت يهودياً متسللاً بعمود حتى قتلته، وزوجة جابر ظهرت بشكل جلي من خلال: استجابتها لمشكلة زوجها ولم تبخل في شعير عندها في شدة تمر زمن حرب شديدة، وذلك لله ورسوله فأخرجته وقامت بطحنه وعجنه، مبتغية رضاء الله ورسوله ثم زوجها. حيث

¹ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٩، سيرة ابن كثير ج ٣ ص ٢٣٣.

قامت رضي الله عنها بذبح العناق الصغيرة بيدها وأي امرأة في زماننا تفعل مثلها! قامت بالتخفيف عن جابر رضي الله عنه عندما قال لها قد جاء رسول الله بالمهاجرين والأنصار؛ فقالت له هل سألك؟ فقال لها / نعم. وفي رواية عن البيهقي: فقالت: الله ورسوله أعلم، قد أخبرناه ما عندنا؛ فكشفت عني غمماً شديداً.

٧- إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر، بل كانت معركة أعصاب: لم يجر فيها قتال مرير، إلا أنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام، تمخضت عن تخاذل المشركين، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة، لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أجلى الله الأحزاب: الآن نغزوهم، ولا يغزونا، نحن نسير إليهم.

غزوة بني قريظة

تأديب بني قريظة وإخراجهم

أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع يوم الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل وقد عصب رأسه الغبار فقال وضعت السلاح؛ فوالله ما وضعت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأين؟ قال: ها هنا، وأومأ إلى بني قريظة. قالت: فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان حصار الرسول صلى الله عليه وسلم لهم خمساً وعشرين ليلة حتى

نزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه؛ حيث قام الصحابة إليه بعد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم؛ فقال له: قوموا إلى سيدكم. قال النووي فيه: إكرام أهل الفضل وتلقيهم بالقيام لهم إذا أقبلوا، هكذا احتج به جماهير العلماء لاستحباب القيام؛ فحكم؛ فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء. لذا فإن احترام العاملين للإدارة الفاضلة لديهم مع إعطائهم الألقاب التي تناسبهم يتمثل مع هذا التوجيه النبوي الفريد للناس في القيام لسعد رضي الله عنه وتسميته بسيد القوم.

قسمة فيء بني قريظة: قال ابن إسحاق: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأعلم في ذلك اليوم سهما الخيل وسهما الرجال، وأخرج منها الخمس؛ فكان للفارس ثلاثة أسهم للفارس سهمان ولفارسه سهم، وللراجل من ليس له فرس سهم. وكانت الخيل يوم بني قريظة ستة وثلاثين فرساً، وكان أول فيء وقعت فيه السهمان وأخرج منها الخمس فعلى سنتها وما مضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها وقعت المقاسم ومضت السنة في المغازي¹.

لقد عمل النبي صلى الله عليه وسلم بهذا القسمة على أن يقدم لكل شخص حسب بذله: فمن بذل نفسه وحدها أخذ سهماً واحداً ومن قدم نفسه مع خيله أخذ سهم واحد كأولئك وزيد له مقابل فرسه سهمان.

¹ سيرة ابن هشام ٢ ص ٢٤٤.

غزوة بني المصطلق

قال ابن إسحاق: أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعض جمادى الآخرة ورجبا، ثم غزا بني المصطلق من خزاعة؛ في شعبان سنة ست واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري ويقال نميلة بن عبد الله الليثي.

سبب غزو الرسول لهم: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بني المصطلق يجمعون له وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث؛ فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع، من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا؛ فهزم الله بني المصطلق وقتل من قتل منهم وَنَقَلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه¹.

ولقد تزاحم المسلمون لشرب الماء عند ماء المريسيع وكان ممن تزاحم رجل من الأنصار ورجل من المهاجرين فصاح الجهني يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين؛ فغضب عبد الله بن أبي ابن سلول وعنده رهط من قريش أما والله: **يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ...**؛ ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتوهم أموالكم أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم. فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

¹ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٩.

وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب؛ فقال مر به عباد بن بشر فليقتله؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا ولكن أذن بالرحيل وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها؛ فارتحل الناس ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله ابن أبي¹.

جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أصاب منهم سبياً كثيراً؛ فشا قسمه في المسلمين وكان فيمن أصيب يومئذ من السبايا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عن عائشة رضي الله عنه قالت لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحه لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه؛ فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه في كتابتها، قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها صلى

¹ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩٢.

الله عليه وسلم ما رأيت؛ فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد قومه وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك؛ فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسي؛ فجئتك أستعينك على كتابتي، قال: **فهل لك في خير من ذلك؟** قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: **أقضي عنك كتابتك وأتزوجك**، قالت: نعم يا رسول الله، قال: **قد فعلت**. قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار؛ فقال الناس: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها.

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة؛ فأقبل أبوها الحارث بن أبي ضرار بفداء ابنته فلما كان بالعقيق - موضع قرب المدينة فيه نخل - نظر إلى الإبل التي جاء بها للقداء فرغب في بيعين منها؛ فغيبهما في شعب من شعاب العقيق، ثم أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: يا محمد أصبتم ابنتي، وهذا فداؤها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم¹ فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق؛ في شعب كذا وكذا؟ فقال الحارث أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت محمد رسول الله فوالله ما اطلع على ذلك إلا الله؛ فأسلم الحارث، وأسلم معه ابنان له وناس من قومه وأرسل إلى البعيرين؛ فجاء بهما؛ فدفع الإبل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ودفعت إليه

¹ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩٦.

ابنته جويرية فأسلمت، وحسن إسلامها؛ فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيها؛ فزوجه إياها، وأصدقها أربع مئة درهم¹.

الدروس والعبر:

١- تاريخ الغزوة: ذكر بعض أهل العلم أن هذه الغزوة كانت في السنة السادسة كما ذكر ابن هشام. لكن الصحيح أن هذه الغزوة كانت في شعبان سنة خمس للهجرة - أي قبل الخندق - لوجود سعد بن معاذ بها حيث أنه قد توفي متأثراً بجروحه يوم غزوة بني قريظة بعد حكمه.

٢- نظرة استراتيجية في حرب بني المصطلق: لقد شكل موضع أرض بني المصطلق على مقربة من طريق مكة عائلاً أمام أي تحرك مسقبلي للمسلمين نحو مكة، لذا فلا بد من إزالة هذا العائق المتمثل بحلف بني المصطلق مع قريش.

٣- مشروعية تقسيم الغنائم بين المقاتلين بعد استثناء السلب والخمس: السلب هو ما يكون مع المقتول من سلاح ونحوه فيجوز أن يأخذه؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: **من قتل قتيلاً فله سلبه**، وأما الخمس فهو وفق تخصيص آية الأنفال ثم الأخماس الأربعة المتبقية توزع للمقاتلين.

٤- حلمه صلى الله عليه وسلم وسماحته مع رأس المنافقين حتى بعد أن وصل للمدينة: ظن كثير من الناس أن النبي صلى الله عليه وسلم سيقتله ومنهم عبد بن

¹ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٨.

عبد بن أبي بن سلول؛ فقال له صلى الله عليه وسلم: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا، وكان لهذا الأمر أثرين اثنين:

- الأول: ما قاله صلى الله عليه وسلم لعمر: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه. فقطع كلام الناس أن يفتتنوا بذلك.

- الثاني: كان قوم عبد الله قد انحسروا عنه وكانوا هم من يعنفونه ويفضحون أمره إذا أراد أن يحدث شيئا.

٥- فن عجيب بإدارة الأزمة بتغيير مسار أحداثها وعدم إزكائها: هي إشغال الناس وعدم ترك وقت له كي يفكروا بما حدث من فتنة حيث سار بهم صلى الله عليه وسلم لوقت طويل حتى لما أرادوا الاستراحة ناموا من شدة التعب. "ونفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر" لذا فالمربي الحكيم والمدير الناجح يستطيعان أن يشغلا من هم في رعايتهما ومسؤوليتهما كي لا يغوصوا في أحوال الفتن والشردمة والخصام.

٦- المكاتبة: هي اتفاق بين العبد وسيده على مال مقابل حريته وهذه مما ورد فيها خير من يقدم الفضل والإعانة، ثلاثة حق على الله عونهم... وقد مر من قبل.

٧- بركة جويرية رضي الله عنها: بعد عرض الزواج على جويرية رضي الله عنها وقبولها خرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج جويرية بنت الحارث؛ فقال الناس: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأرسلوا ما

بأيديهم . قالت : "أي عائشة" : فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق؛ فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها¹ .
ونقل ابن كثير عن الواقدي فقال : قال الواقدي : ويقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل صداقها عتق أربعين من بني المصطلق . وذكر موسى بن عقبة عن بني المصطلق أن أباهما طلبها وافتداها، ثم خطبها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجه إياها² . ولقد مر ذلك وفق ما نقله ابن هشام . وبذلك دحضت جورية رضي الله عنها تلك النظرة العامة التي كانت سائدة عند العرب في الجاهلية حول المرأة وكانت هي صاحبة الفضل والخير لقومها حيث كانت سبباً في إطلاق سراحهم وإسلامهم .

خبر الإفك في غزوة بني المصطلق

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه كما كان يصنع فخرج سهمي عليهن معه فخرج بي رسول الله صلى الله عليه وسلم .
سقوط عقد عائشة وتخلفها للبحث عنه :

قالت وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العلق³ لم يهجن اللحم فيثقلن وكنت إذا رحل لي بعيري جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يرحلون لي

1 السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٣٠٣ .

2 السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٣٠٣ .

3 هو الطعام المتخذ من التمر والاقط والسمن جمع علقه وهي ما يتبلغ به من العيش .

ويحملونني؛ فيأخذون بأسفل اليهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير فيشدونه بحباله ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به .

فلما كان النبي صلى الله عليه وسلم على قري من المدينة نزل منزلاً، وكان في عنق عائشة عقداً قالت: فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري؛ فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي؛ فلم أجده وقد أخذ الناس في الرحيل فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته . ثم رحل القوم فأخذوا اليهودج وهم يظنون أنني فيه كما كنت أصنع فاحتملوه فشدوه على البعير ولم يشكوا أنني فيه ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب قد انطلق الناس . ثم مر صفوان بن المعطل السلمي، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس فرأى سوادي؛ فأقبل حتى وقف علي وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب فلما رآني قال إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا متلففة في ثيابي، قال ما خلفك يرحمك الله؟ قالت فما كلمته ثم قرب البعير فقال: اركبي، واستأخر عني . قالت: فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً، يطلب الناس فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي؛ فقال أهل الإفك ما قالوا؛ فارتعج العسكر ووالله ما أعلم بشيء من ذلك .

خطبة الرسول في الناس يذكر إيذاء قوم له في عرضه :

قالت وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون

عليهم غير الحق والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتا من بيوتي إلا وهو معي¹.

وصبرت عائشة رضي الله عنها صبراً كبيراً وقالت كما قال أبو يوسف: **فصبر جميل**

والله المستعان على ما تصفون؛ حتى أنزل الله براءتها وقال لها صلى الله عليه وسلم: أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك، قالت قلت: بحمد الله ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت، وحمّنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم.

هم أبي بكر بعدم الإنفاق على مسطح ثم عدوله:

فلما نزل هذا في عائشة وفيمن قال لها ما قال، قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته وحاجته والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً، ولا أنفعه بنفع أبداً بعد الذي قال لعائشة وأدخل علينا قالت: فأنزل الله في ذلك: **وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ**

وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا

وَلِيَصْفَحُوا أَلَّا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (النور: ٢٢). قال ابن

إسحاق: قالت: فقال أبو بكر: بلى والله إنني لأحب أن يغفر الله لي؛ فرجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه وقال والله لا أنزعها منه أبداً.

الدروس والعبر:

¹ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٠ وما بعدها.

١- المحافظة على المال: يدل عمل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في البحث عن عقدها في المحافظة على المال وعدم الاستهتار عند ضياعه.

٢- بساطة الطعام والمحافظة على خفة الوزن عند غالب النساء: وهذه طريقة اقتصادية حكيمة من جهات عديدة:

- الأولى من جهة تقليل كمية الأطعمة على مستوى عادة النساء في ذاك الوقت.
- الثانية تقليل نفقات تخفيف الوزن الذي يطرأ من كثرة الطعام.
- الثالثة تقليل نفقات الحمية الصحية التي تطرأ نتيجة ما مضى ونتيجة الأمراض الناتجة عن ذلك.

٣- الحلم والأناة في إدارة النبي صلى الله عليه وسلم للأزمة الاجتماعية: لقد تكررت فتنان متتاليتان في غزوة بني المصطلق، وكانت الأولى في مكان ماء المريسع وهي تتعلق بأمر اجتماعي عام بين المسلمين، وكانت الثانية تتعلق بأمر اجتماعي خاص وعام، ولقد كانت حكمة النبي صلى الله عليه وسلم في معالجة الفتنين من خلال الحلم والأناة؛ فلم يصدر النبي صلى الله عليه وسلم حكماً تأديبياً لأحد حتى جاء حكم الله من فوق سبع سموات وكان ذلك قد تأخر لشهر كامل، وكان من عمله صلى الله عليه وسلم أنه لم يبق جالساً منتظراً الوحي بل تحرك لإدارة الأزمة وفق ما يلي:

- مخاطبة الناس: وقال كلمة موجزة: ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وكذلك ينبغي للإداري الناجح ألا يتسرع في إصدار

العقوبات وأن ينتظر حتى تكتمل لديه الصورة الكاملة حول أي قضية أو أزمة تعترضه . ولقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على حفظ الوحدة الاجتماعية بين الناس .

• **حرصه صلى الله عليه وسلم على الهدوء بين الناس وذلك بعد تلك الكلمة،** ذلك أن الأوس والخزرج تبادلوا الاتهامات فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

• **الاستشارة:** استشار علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد وسأل بريرة خادمة عائشة فما قالت إلا خيراً؛ فقال: **أي بريرة هل رأيت شيئاً يريبك،** قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق . وسأل زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها؛ فعصمها الله بالورع؛ فقالت: يا رسول الله أحسى سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً .

• **تطمينه لعائشة:** قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: **أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه،** قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته: قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة... قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي قالت وأنا حينئذ أعلم أنني بريئة وأن الله مبرئني ببرأتي

ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيًا يتلى ولشأني في نفسي
كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر يتلى .

٤- أفضل أنواع الصدقة: روى أحمد عن أبي أيوب الأنصاري قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم: أن أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح¹.

٥- تكرر فضل أبي بكر رضي الله عنه: يدل ما مضى على فضل أبي بكر
الصديق رضي الله عنه والد عائشة والذي أصابه الهم الكبير لهذه المشكلة؛ فلقد
كان صاحب الخير والفضل في الإنفاق المالي على المستوى العام والخاص، وها هو
يستجيب لأمر الله تعالى ويعزم على الاستمرار في العطية لقريبه الذي جاء منه
خوض مع الناس في حادثة الإفك.

صلح الحديبية وآثاره

توجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة لأداء عمرة الحديبية وكانت في ذي
القعدة سنة ست بعد الخندق وبنى قريظة². وساق صلى الله عليه وسلم معه الهدى
سبعين بدنة. قال ابن هشام: واستعمل على المدينة نميلة ابن عبد الله الليثي³. لكن
قريشاً قامت بمنعه فأرسل عثمان بن عفان كي يفاوضهم على دخول مكة، تأخر
عثمان بمكة وأشيع خبر مقتله؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى

1 المبغض.

2 السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٥٩.

3 السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ٣١٢.

البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل، ثم جرى الصلح المشهور بمكانه " صلح الحديبية " .

الخروج نحو الحديبية

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وساق الهدى معه وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له¹. عن جابر بن عبد الله قال: عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة يتوضأ منها فأقبل الناس نحوه؛ فقال مالكم مالكم؟ قالوا يا رسول الله: ليس عندنا ماء نشرب ولا نتوضأ منه إلا ما في ركوتك؛ فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في الركوة إناء صغير يشرب فيه اللبن في زمانهم؛ فجعل الماء يفور من بين أصابعه أمثال العيون، قال: فشربنا وتوضأنا.

قال: فقلت لجابركم: كنتم يومئذ! قال لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة، وقال ابن سعد ويقال ألف وخمسمائة وخمسة وعشرون رجلاً². وسمعت قريش بخروجه صلى الله عليه وسلم فأرسلت فرسانها كي تمنعه من دخول مكة. فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة، ثم قال: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها.

1 عيون الأثر لابن سيّد الناس ج ٢ ص ١١٣.

2 عيون الأثر ج ٢ ص ١١٤.

فقال رجل من أسلم - قبيلة أسلم - : قال أنا يا رسول الله، قال : فسلك بهم طريقاً وعراً أجراً - كثير الحجارة - بين شعاب فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه؛ فقالوا ذلك؛ فقال: والله إنها للحطّة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها .

حتى إذا سلك في ثنية المزار بركت ناقته؛ فقال الناس: خلأت - حرنت - ؛ فقال: ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قریش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

الدروس والعبر :

١ - السياحة الدينية : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومسجد الأقصى¹، وهذا إشارة إلى السياحة الدينية، وليس المراد حرمة شد الرحال إلى غيرها وإنما الفضيلة التامة².

٢ - الهدى والدلالة المالية في عده: هو ما يهدى إلى الحرم من النعم ليتقرب به فيه أدناه شاة، وهو إبل ابن خمس سنين وبقر ابن سنتين وغنم ابن سنة ولا يجب تعريفه بل يندب في دم الشكر ولا يجوز في الهدايا إلا ما جاز في الضحايا . ويدل

1 البخاري أبواب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ج ١ ص ٣٩٨ دار ابن كثير ١٤٠٧ هـ. مسلم كتاب الحج باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ج ٤ ص ١٢٦ دار الجليل بيروت.

2 شرح صحيح مسلم للنووي ج ٥ ص ٢ بتصريف.

هذا العدد من الهدى - سبعون بدنة - على تطور الوضع الاقتصادي في المدينة المنورة في السنة السادسة للهجرة عن أول مراحل وجود قوة المسلمين فيها؛ فلولا أنه كان متقدماً لما استطاع المسلمون أن يسوقوا هذا العدد من الهدى .

٣- خزائن الله لا تنفد : إن الله تعالى قد أيد رسله بالمعجزات الكثيرة وها هو

سيدنا موسى عليه السلام يستسقي لقومه : **وَإِذَا سَأَسْقَىٰ مَوْسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا**

اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ

كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (البقرة: ٦٠) وهاهم

الصحابة الكرام يطبون الماء فيضع عليه الصلاة والسلام يده في الكوة ويخرج الماء القليل ليكفي المئات من الناس للشرب والوضوء، ومن خلال مقارنة بسيطة نجد فيض الكرم الرباني الذي جاء للمسلمين، وأنه يزيد على قوم موسى؛ فقوم موسى شربوا من ماء خرج لهم من الحجر، وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرج لهم الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم .

٤- العزم واليسر في إدارة الأزمة : لقد تجلت الملامح الأولى لإدارة الأزمة مع

قريش من خلال عزمه صلى الله عليه وسلم على المضي في دعوته؛ فلم يتغير ذاك العزم الذي كان مع قريش قبل الهجرة، ولا بعد سنوات من الهجرة، كما ظهرت الخطوة الثانية من خلال تغيير الطريق رغم صعوبته، وذلك لأجل الإعلان العملي أنه صلى الله عليه وسلم ما جاء للحرب ولا قتال يؤكد هذا المنهج النبوي ما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ما خير رسول الله صلى الله عليه

وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها .

وأما الخطوة الثالثة: فهي إعلانه صلى الله عليه وسلم بقبول أي خطوة لأجل السلام مع قومه من قريش فكانت المفاوضات ثم صلح الحديبية .

مفاوضات الحديبية

لما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديبية بدأت وفود قريش تتابع إليه مستوضحة شأن مقدم المسلمين :

فأتاه بُدَيْل بن ورقاء في رجال من خزاعة؛ فكلموه وسألوه ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمة .

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف أخا بني عامر بن لؤي؛ فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلاً قال: **هذا رجل غادر¹** . " فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ما قال لبديل وأصحابه؛ فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم بعثوا بحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش؛ فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه .**

فلما رأى - حليس - الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل

¹ بسبب أخباره القديمة فهو قاتل لعامر بن يزيد الكنانى غدرا"

أوباره من طول الحبس عن محله رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاماً لما رأى؛ فقال لهم ذلك .

ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عروة بن مسعود الثقفي قال الزهري: فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو مما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً؛ فقام من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه؛ فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه! ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً؛ فروا رأيكم . قال ابن إسحاق: قال الزهري: ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو – وكان ذلك بعد ما شاع من خبر مقتل عثمان – إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له أئت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا؛ فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً .

كتابة الصلح

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقال: اكتب: **بسم الله الرحمن الرحيم**، قال فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: **باسمك اللهم**. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **اكتب باسمك اللهم**. فكتبها. ثم قال: اكتب: **هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو**. قال: فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم

أبيك . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على :

- وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض .
- أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه .
- وأن بيننا عيبة – موضع السر ومكفوفة : مطوية – مكفوفة ، وأنه لا إسلال – السرقة الخفية . والاعلال : الخيانة ولا إغلال .
- وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده . وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم .
- وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب : السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها .

نحر الرسول وحلق واقتداء الناس به

قال ابن إسحاق : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مضطرباً في الحل وكان يصلي في الحرم ؛ فلما فرغ من الصلح قدم إلى هديه فنحره ثم جلس فحلق رأسه وكان الذي حلقه فيما بلغني ؛ في ذلك اليوم خراش بن أمية بن الفضل الخزاعي ؛ فلما رأى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نحروا وحلقوا تواتبوا ينحرون

ويحلقون¹. ولقد أهدى الرسول جملًا فيه برة² من فضة عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدى عام الحديبية في هداياه جملًا لأبي جهل في رأسه برة من فضة يغيظ بذلك المشركين³.

الدروس والعبر:

١- الصبر والحلم الإداري في مواجهة الوفود: لقد استقبل النبي صلى الله عليه وسلم وفود قريش ولم يظهر مللاً ولا تضجراً من إعادة شرح الحال السياحة الدينية التي لأجلها قدم المسلمون، وبمعنى معاصر كأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أراد أن يحصل من قريش على حق الزيارة أو ما يقال له التأشيرة السياحية. وعلى هذا فينبغي على كل قاصد خير وبر ألا يتضايق إذا أراد حرية التنقل بين مكان وآخر، خاصة من يقصد الرحلة إلى الأماكن المقدسة؛ فيجرب مرة تلو المرة حتى يأخذ بالأسباب المفضية للغايات. وفي نفس الصبر واجه صلى الله عليه وسلم طريقة كتابة بنود الصلح.

٢- الإبداع والبراعة في إدارة المفاوضات: كان عليه الصلاة والسلام على خبرة بالرجال وأحوالهم؛ فيأتي رجل من المشركين فيبين له المقصد العام من قدوم المسلمين، وكي يبني على هذا المقصد العام أي حوار أو أي مفاوضات لدخول مكة بسلام، ثم يأتي آخر فيعرف فيه عدم أهليته للمفاوضات ويقول هذا رجل غادر لذا لم يقدم النبي صلى الله عليه وسلم له أي نوع من المفاوضات، ثم يقدم حليس بن

¹ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٩.

² بضم الباء وفتح الراء وهى حلقة تجعل في أنف البعير.

³ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٩.

علقمة فيقدم له صلى الله عليه وسلم البرهان العملي على المقصد العام من خلال إظهار الهدى الذي ساقه المسلمون للكعبة ونجح في إقناع ذلك الرجل الذي يناسبه الحوار السلوكي ثم يقدم عروة بن مسعود ويقوم أصحابه بسلوك عجيب وفن بديع في إظهار الحب والطاعة فيستقر في قلب الرجل أن ما رآه أعظم من حال طاعة أقوام أشهر ملوك زمانه كسرى وقبصر والنجاشي ثم يأتي آخر المفاوضات الذي أخذ توكيلاً كاملاً من قريش على إجراء الصلح والعهد .

وبهذا استطاع صلى الله عليه وسلم تكوين إحداث فجوة بيّنة بين أعضاء الوفود المتتابعين حتى أقرت قريش بواقع حق الزيارة على أن يكون بعد عام .

٣- العزيمة الصارمة في مواجهة خبر مقتل عثمان : كانت تلك البيعة بشرى

بالفتح والغنائم ورضى الله تعالى : **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (الفتح : ١٨ - ٢١) .**

٤- بنود الصلح : ظاهرها كان لصالح قريش لكن جوهرها كان للمسلمين، حيث

صار المسلمون قوة معترف بها إدارياً من قبل قريش، وحتى في قصة لأبي جندل الذي قدم للمسلمين أثناء كتابة الصلح، حيث التزم المسلمون بالعهد ولم يتركوه

يدخل المدينة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا جندل اصبر واحتسب؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا.

ومن أبرز نتائج الصلح لما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس كلم بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة؛ فلم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السننتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

٥- حل زيادة البذل المالي لإدخال الغيظ في قلب العدو: عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدى عام الحديبية هدية فيها جمل أحمر لأبي جهل في أنفه برة من فضة ليغيظ بذلك المشركين¹.

أسر ثمامة بن أثال الحنفي وإسلامه

عن أبي هريرة أنه قال خرجت خيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت رجلاً من بني حنيفة، لا يشعرون من هو حتى أتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: أتدرون من أخذتم، هذا ثمامة بن أثال الحنفي، أحسنوا إيساره، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله؛ فقال: اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه، وأمر بلقحته أن يُغدى عليه بها ويراح فجعل لا يقع من ثمامة موقعا ويأتيه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فيقول: أسلم يا ثمامة؛ فيقول: إيها يا محمد إن تقتل ذا دم وإن ترد الفداء؛ فسل ما شئت؛ فمكث ما شاء الله أن

¹ سنن أبي داود كتاب المناسك باب التلييد ج ١ ص ٥٤٤.

يمكث؛ ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم يوماً: أطلقوا ثمامة فلما أطلقوه خرج حتى أتى البقيع؛ فتطهر فأحسن طهوره ثم أقبل فبايع النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام؛ فلما أمسى جاءوه بما كانوا يأتونه من الطعام فلم ينل منه إلا قليلاً، وباللقحة فلم يصب من حلابها إلا يسيراً فعجب المسلمون من ذلك؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه ذلك: **م تعجبون؟ أمن رجل أكل أول النهار في معي كافر وأكل آخر النهار في معي مسلم إن الكافر يأكل في سبعة أمعاء وإن المسلم يأكل في معي واحد.**

خروجه إلى مكة وقصته مع قريش

قال ابن هشام: بلغني أنه خرج معتمراً، حتى إذا كان ببطن مكة لبي؛ فكان أول من دخل مكة يلبي؛ فأخذته قريش؛ فقالوا: لقد اخترت علينا؛ فلما قدموه ليضربوا عنقه، قال قائل منهم: دعوه فإنكم تحتاجون إلى الإمامة لطعامكم فخلوه؛ فقال الحنفي في ذلك ومنا الذي لبي بمكة معلناً برغم أبي سفيان في الأشهر الحرم، وحدثت أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسلم: لقد كان وجهك أبغض الوجوه إلي ولقد أصبح وهو أحب الوجوه إلي. وقال في الدين والبلاد مثل ذلك. ثم خرج معتمراً؛ فلما قدم مكة، قالوا: أصبوت يا ثمام؟ فقال لا، ولكني اتبعت خير الدين دين محمد ولا والله لا تصل إليكم حبة من الإمامة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم خرج إلى الإمامة؛ فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً؛ فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك تأمر بصلة الرحم وإنك

قد قطعت أرحامنا، وقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه أن يخلي بينهم وبين الحمل¹.

الدروس والعبر:

١- الإحسان يزيل البغض: ينبت الحب، وذلك هو قول الله تعالى: **وَلَا تَسْتَوِي**

الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (فصلت: ٣٤ -

٣٥). لقد أسلم ثمامة بن أثال وشن حرباً اقتصادية على قريش حتى رجعت قريش وتوسط رسول الله صلى الله عليه وسلم في رفع ذلك فكتب إليه ففعل.

٢- المؤمن يأكل بمعي واحد: ورد في صحيح مسلم إن الشيطان يستحل الطعام؛

ألا يذكر اسم الله تعالى عليه قال الإمام النووي: قال أهل الطب: لكل إنسان سبعة أمعاء: المعدة، ثم ثلاثة متصلة بها رفاق، ثم ثلاثة غلاظ. فالكافر لشهره وعدم تسميته لا يكفيه إلا ملؤها، والمؤمن لاقتصاده وتسميته يشبعه ملء أحدها، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المؤمنين وبعض الكفار، وقيل: المراد بالسبعة سبع صفات: الحرص والشه، وطول الأمل، والطمع، وسوء الطبع، والحسد، والسمن. وقيل: المراد بالمؤمن هنا تام الإيمان المعرض عن الشهوات المقتصر على سد خلته، والمختار أن معناه بعض المؤمنين يأكل في معي واحد، وأن أكثر الكفار يأكلون في سبعة أمعاء، ولا يلزم أن كل واحد من السبعة مثل معي المؤمن.

¹ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٣٨.

قال العلماء: ومقصود الحديث التقليل من الدنيا، والحث على الزهد فيها، والقناعة. مع أن قلة الأكل من محاسن أخلاق الرجل، وكثرة الأكل بضره. انتهى كلام النووي.

سرية أبي عبيدة إلى سيف البحر والخطة التشفية

أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا قبل الساحل وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاثمائة؛ فخرجنا وكنا ببعض الطريق؛ فني الزاد فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش؛ فجمع فكان مزودي¹ تمر؛ فكان يقوتنا كل يوم قليل قليل حتى فني؛ فلم يكن يصيبنا إلا ثمرة تمرة فقلت ما تغني عنكم ثمرة؛ فقال لقد وجدنا فقدنا حين فنيت. ثم انتهينا إلى البحر؛ فإذا حوت مثل الطرب فأكل منها القوم ثمان عشرة ليلة، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا، ثم أمر بإحالة فرحلت ثم مرت تحتهما فلم تصبهما.

الدروس والعبر:

١ - مكانة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أخرج البخاري عن أنس: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، ولقد أثبت أبو عبيدة تلك الأمانة في عدة مواقف ولقد كان رضي الله عنه

¹ المزود: الوعاء يجعل فيه ما يتزود به في السفر من طعام

أول وزير للمال في الإسلام لما وُلِّي أبو بكر قال له أبو عبيدة¹: أنا أكفيك المال يعني الجزاء. فولاه أبو بكر الصديق على بيت المال ثم وجهه إلى الشام².

٢- الموافقة على الانبساط ثم التقشف: أخرج البخاري: قال جابر وكان رجل من القوم نحر ثلاث جزائر ثم نحر ثلاث جزائر ثم نحر ثلاث جزائر - جمع جزور والجزور البعير أو الناقة - ثم إن أبا عبيدة نهاه. وكان ذلك بعدما أكل المسلمون أوراق الشجر.

٣- التكافل في الطعام والشراب: كان ما فعله أبو عبيدة بن الجراح يتوافق مع الهدى النبوي فقد أخرج البخاري عن أبي موسى قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم.

٤- حل ميتة البحر وكرم الله تعالى لعباده: قال تعالى: **أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ**

وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرْمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا

اللَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (المائدة: ٩٦). وإذا كان قد مر معنا الإكرام الرباني

للصحابه وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في الخندق؛ فهذا إكرام رباني

لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وهو لا يتوقف عندهم وإنما لكل الأمة عبر

العصور شريطة التحقق بالإيمان والتقوى والاستقامة على طاعة الله.

1 تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٥١.

2 تاريخ خليفة بن خياط ص ٨٢.

مراسلة الملوك وحكم الهدايا من غير المسلمين والزواج بمارية رضي الله عنها

في أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له: إنهم لا يقرءون كتاباً إلا وعليه خاتم؛ فاتخذ النبي صلى الله عليه وسلم خاتماً من فضة، نقشه: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر، هكذا. واختار من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة، وأرسلهم إلى الملوك¹.

ومن هؤلاء كتب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جُرَيْج بن مَتَّى الملقب بالمَقْوَس ملك مصر والإسكندرية: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الْمُقَوَّسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ، سَلَامٌ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلَمَ تَسْلَمَ، وَأَسْلَمَ يَأْتِيكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ؛ فَإِن تَوَلَّيْتَ فَإِن عَلَيْكَ إِثْمُ أَهْلِ الْقِبْطِ، **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**

أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران: ٦٤).

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بلتعة.

1 الرحيق المختوم ص ٣٥٠.

وأخذ المقوقس كتاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ فجعله في حُق¹ من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية؛ فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت بغلة لتركبها، والسلام عليك.

ولم يزد على هذا ولم يسلم، والجاريتان مارية، وسيرين، والبغلة دُلْدُل، بقيت إلى زمن معاوية، واتخذ النبي صلى الله عليه وسلم مارية سرية له، وهي التي ولدت له إبراهيم. وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصاري².

الدروس والعبر:

١- الهدايا إن كانت مع عدو للدولة الإسلامية: قدمت لها أثناء حرب فحكمها حكم الغنيمة، وإن كانت الدولة المقدمة للهدية غير حربية أو كانت حربية في حالة هدنة مع الدولة المسلمة فحكمها حكم الفيء. قال ابن قدامة في المغني: يجوز قبول هدية الكفار من أهل الحرب لأن النبي صلى الله عليه وسلم قبل هدية المقوقس صاحب مصر³. وقال الإمام السرخسي في شرح السير الكبير للشيباني: (وإذا

1 الحُقُّ والحُقَّة بالضم المنحوت من الخشب والعاج وغير ذلك مما يصلح أن يُنحت منه، لسان العرب ج ١٠ ص ٤٩.

2 الرحيق المختوم ص ٣٥٣.

3 الحاكم في المستدرک، ذکر سراري رسول الله أفأولهن مارية القبطية أم ابراهيم. ج ٤ ص ٤١.

بعث ملك العدو إلى أمير الجند بهدية فلا بأس أن يقبلها ويصير فيئاً للمسلمين،
لأن:

١ . النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل هدية المشركين في الابتداء، على ما روي أنه أهدى إلى أبي سفيان تمر عجوة. واستهدها أدمًا ثم لما ظهر منهم مجاوزة الحد في طلب العوض أبى قبول الهدية منهم بعد ذلك، وقال: (إنا لا نقبل زبد¹ المشركين)²؛ فبهذا تبين أن للأمير رأياً في قبول ذلك. ولا يستبعد أن يقال إن الأصل هو عدم جواز قبول هدايا المشركين، لكن إذا كانت في قبول هداياهم مصلحة عامة أو خاصة فيجوز قبولها³. ولأن في القبول معنى التأليف وفي الرد إظهار معنى الغلظة والعدواة.

٢ . إذا طمع في إسلامهم فهو مندوب إلى أن يؤلفهم فيقبل الهدية، ويهدي إليهم، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم: **تهادوا تحابوا**⁴، وإذا لم يطمع في

1 الزبد بسكون الباء: الرّفد والعتاء والهبية. المعجم الوسيط ج ١ ص ٨٠٦.
2 البيهقي في السنن الكبرى ج ٩ ص ٢١٦، مصنف ابن أبي شيبة كتاب السير، قبول هدايا المشركين ج ٦ ص ٥١٦، الطبراني في الأوسط ج ٧ ص ٣٢٢، وتفصيل المسألة في شرح صحيح مسلم للنووي ج ١٢ ص ١١٤، والحديث أخرجه الترمذي عن عياض بن جمار أنه أهدى للنبي صلى الله عليه وسلم هدية له أو ناقة فقال النبي(٢: أسلمت)؟ قال لا. قال: (فإنى نهيت عن زبد المشركين). قال أبو عيسى - أي الترمذي - هذا حديث حسن صحيح. ومعنى قوله (إنى نهيت عن زبد المشركين). يعنى هداياهم وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقبل من المشركين هداياهم وذكر فى هذا الحديث الكراهية واحتمل أن يكون هذا بعد ما كان يقبل منهم ثم نهى عن هداياهم. سنن الترمذي كتاب السير باب في كراهية هدايا المشركين ج ٤ ص ١٤٠.
3 تحفة الأحوذى ج ٥ ص ١٦٧.
4 سنن البيهقي الكبرى ج ٦ ص ١٦٩، معجم الطبراني ج ٧ ص ١٩٠، قال ابن حجر في التلخيص الحبير إسناده حسن. ج ٣ ص ٦٩.

إسلامهم فله أن يظهر معنى الغلظة والشدة عليهم برد الهدية؛ فإن قبلها كلن ذلك فيئاً للمسلمين¹.

غزوة خيبر

لقد تم عقد صلح الحديبية مع قريش في السنة السادسة للهجرة، وبه تفرغ النبي صلى الله عليه وسلم للنظر في شؤون تأمين الجبهة الشمالية للمدينة المنورة، وذلك بعد أن أمّن المسلمون شؤون الجبهة الجنوبية من خلال الصلح، وكانت الأولوية لذلك التجمع المعادي للمسلمين والمتمثل بالتحصن اليهودي في خيبر.

الطريق إلى خيبر :

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حين رجع من الحديبية، ذا الحجة وبعض المحرم ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر سنة سبع للهجرة²، واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عصر³؛ فبنى له فيها مسجد ثم على الصهباء، ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع؛ فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر؛ فلما وصل صلى الله عليه وسلم إلى خيبر كان قد

1 شرح كتاب السير الكبير السرخسي ج ١ ص ٣٨٩.

2 سيرة ابن هشام.

3 عصر بكسر أوله وسكون ثانيه، رواه بعضهم بالتحريك والأول أشهر وأكثر وكل حصن يتحصن به يقال له عصر وهو جبل بين المدينة ووادي الفرع، معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٤ ص ١٢٨.

خرج عمالها غادين بمساحيهم ومكاتلهم¹؛ فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش قالوا: محمد والجيش معه فأدبروا.

افتتاح الحصون وبيانات تحريمية

تدنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأموال يأخذها مالا مالا، ويفتحها حصناً حصناً²؛ فكان أول الفتح حصن ناعم، أصاب منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا فاصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهن صفيّة لنفسه، وأكل المسلمون لحوم الحمر الأهلية من حمرها؛ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى الناس عن أمور سماها لهم، عن أكل لحوم الحمر الإنسانية والقذور تفور بها؛ فكفأناها على وجوهها. قال ابن إسحاق: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاهم يومئذ عن أربع: عن إتيان الحبالى من السبايا، وعن أكل الحمار الأهلي وعن أكل كل ذي ناب من السباع وعن بيع المغام حتى تقسم.

قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن عبد الله بن قسيط أنه حدث عن عبادة بن الصامت، قال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر: عن أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين وتبر الفضة بالورق العين وقال ابتاعوا تبر الذهب بالورق العين، وتبر الفضة بالذهب العين. قال ابن إسحاق: ثم جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتدنى الحصون والأموال.

¹ الزَّبِيل الكبير أي الوعاء الكبير، قيل يتسع لخمس عشرة صاعاً كأن فيه كتلا من التمر؛ أي قطعاً مجتمعاً، وقد تكرر في الحديث ويُجمع على مكاتل، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الجزري، ج ٤ ص ٢٥٨.

² سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣١.

قال ابن إسحاق: ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم ما افتتح وحاز من الأموال ما حاز انتهوا إلى حصنيهم الوطيح والسلالم، وكان آخر حصون أهل خيبر افتتاحها؛ فحاصروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة.

أمر أبي اليسر¹ كعب بن عمرو

قال ابن إسحاق: حدثني بريدة بن سفيان الأسلمي، عن بعض رجال بني سلمة عن أبي اليسر كعب بن عمرو، قال والله إنا لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ذات عشية إذ أقبلت غنم لرجل من يهود تريد حصنهم ونحن محاصروهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **من رجل يطعمنا من هذه الغنم؟** قال أبو اليسر فقلت: أنا يا رسول الله قال فافعل، قال: فخرجت أشد مثل الظليم² فلما نظر إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم موليا قال: **اللهم أمتعنا به**، قال: فأدركت الغنم وقد دخلت أولها الحصن؛ فأخذت شاتين من أخراها؛ فاحتضنتهما تحت يدي ثم أقبلت بهما أشد، كأنه ليس معي شيء؛ حتى ألقيتهما صلى الله عليه وسلم فذبحوهما فأكلوهما؛ فكان أبو اليسر من آخر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هلاكاً، وكان إذا حدث هذا الحديث بكى، ثم قال أمتعوا بي، لعمري، حتى كنت من آخرهم هلكاً³.

¹ أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري السلمى المدني البدرى العقبى الذى أسر العباس رضى الله عنه يوم بدر، شهد العقبة وله عشرون سنة، وهو الذى انتزع راية المشركين يوم بدر، ومناقبه كثيرة له، أحاديث قليلة، وقد شهد صفين مع علي، وكان من بقايا الصديين، مات فى المدينة سنة خمس وخمسين، سير الأعلام النبلاء، ج ٢ ص ٢٥٧.

² الذكر من النعام، جمع ظلمان.

³ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٦.

مصالحة أهل خيبر

حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر في حصنهم الوطيح والسلايم حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم ففعل. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاز الأموال كلها: الشق ونطاة والكتيبة وجميع حصونهم إلا ما كان من ذينك الحصنين. فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا، بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ويخلوا له الأموال ففعل. وكان فيمن مشى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم في ذلك محيصة بن مسعود، أخو بني حارثة فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم في الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأعمر لها؛ فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم فصالحه أهل فدك على مثل ذلك فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.

الدروس والعبر:

١- إدارة المخاطر: لقد عمل النبي صلى الله عليه وسلم على التحوط لأمر معركته في خيبر من خلال قطع طريق الإمداد بين خيبر وغطفان.

٢- سفر ورحلة المسلم نشاط وعمل: لم يكن صلى الله عليه وسلم كعادته يترك مجالاً لأجل أن يضيع فيه وقتاً، وها هو صلى الله عليه وسلم يبني مسجداً في مكان يُقال له عَصْر وهو بين المدينة وخيبر، وهذا ما يذكّرنا في بنائه صلى الله عليه

وسلم لمسجد قباء أثناء الطريق إلى المدينة، وهو يدل على أنه ينبغي على المسلم أن يعرف كيفية إدارة أوقاته في الحضر والسفر فيما يعود عليه وعلى أمته بالخير.

٣- حل هدر ما حرم أكله: إن الله تعالى أنزل علينا نعماً لا تعد ولا تحصى، أمرنا أن نحفظها وأن لا نهدرها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل طعاماً لعق أصابعه الثلاث. وقال: إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الأذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان¹. وأمرنا أن نسلت² القصعة قال: فإنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة³. لكن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قاموا بإهراق كل القدور التي كادت تجهز للأكل وما ذلك إلا للفساد الشرعي الذي اعتراها، وفيه أيضاً سرعة الإقبال على حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

٤- من أحكام الربا: الربا لغة هو الزيادة، يقال: أربى فلان على فلان، أي زاد عليه. ويسمى المكان المرتفع ربوة لزيادة فيه على سائر الأمكنة.

وفي الاصطلاح الشرعي الربا: هو الفضل الخالي عن العوض المشروط في البيع؛ ففي البيع الحلال مقابلة مال متقوم بمال متقوم فالفضل الخالي عن العوض إذا دخل في البيع كان ضد ما يقتضيه البيع فكان حراماً شرعاً⁴. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر**

1 صحيح مسلم باب استحباب لعق الأصابع ج ٣ ص ١٦٠٦.

2 نمسحها، ونتتبع ما بقي فيها من الطعام.

3 صحيح مسلم باب استحباب لعق الأصابع ج ٣ ص ١٦٠٦.

4 المبسوط للسرخسي ج ١٢ ص ١٠٩. دار المعرفة بيروت ١٤١٤هـ.

والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل يدا بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربى الآخذ والمعطى فيه سواء¹.

٥- من أحكام الأراضي: لقد بينَّ تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع أراضي خيبر أصلاً عظيماً من أصول التعامل مع البلاد التي افتتحها المسلمون فيما بعد، ولقد كان تعامله صلى الله عليه وسلم مع الأراضي وفق ثلاثة أصول:

- الأول: التقسيم والاستثمار كما فعل في أراضي بني النضير، وذلك بناء على أحكام الفيء.

- الثاني: تقسيم رقاب الأرض بين الناس في جزء وترك جزء آخر لبيت المال مع الاستثمار المباشر من قبل أهل الخبرة من أصحاب العمل في الأراضي كما فعل في أراضي خيبر وذلك بناء على أحكام النفل والفيء.

- الثالث: ترك التقسيم كما فعل في أراضي مكة فهي وفق رأي جمهور العلماء عدا الشافعية لها أحكام النفل ومع ذلك تركها رقبة ومنفعة في أيدي أهلها.

قال ابن إسحاق: كانت المقاسم على أموال خيبر على الشق ونطاة والكتيبة فكانت الشق ونطاة في سُهْمَانِ الْمُسْلِمِينَ، وكانت الكتيبة خُمس الله وسهم النبي صلى الله عليه وسلم وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين، وطعم أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وطعم رجال مشوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أهل فدك بالصلح منهم محيصة بن مسعود، أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثين وسقا من شعير وثلاثين وسقا من تمر. وقسمت خيبر على أهل الحديبية، من شهد

¹ صحيح مسلم كتاب المساقاة، باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقدا ج ٥ ص ٤٤.

خيبر، ومن غاب عنها، ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام فقسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم كسهم من حضرها، وكان وادياها، وادي السريرة، ووادي خاص، وهما اللذان قسمت عليهما خيبر، وكانت نطاة والشق ثمانية عشر سهما، ونطاة من ذلك خمسة أسهم والشق ثلاثة عشر سهما، وقسمت الشق ونطاة على ألف سهم وثمان مئة سهم¹.

٦- يجوز أخذ الطعام في ديار العدو: قال الماوردي²: يجوز لأهل الجهاد إذا دخلوا دار الحرب ما يحل لهم أن يأكلوا طعامهم، ويعلفوا دوابهم ما أقاموا في دارهم³، ولا يحتسب به عليهم من سهمهم، لرواية عبد الله بن مغفل قال: دُلِّيَ جراب⁴ من شحم يوم خيبر، قال فأنيتته فالتزمته وقلت: لا أعطي اليوم منه أحداً شيئاً، ثم التفت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم إلي⁵؛ فدل تبسمه منه وتركه عليه على إباحته له.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه: نهى عن ذبح البهائم إلا للمأكلة⁶. كما روي هذا الاستثناء عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه في وصيته لجيش أسامة: ولا

1 سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٥٠.

2 الماوردي: أبو الحسن على بن محمد بن حبيب، المعروف الماوردي، كان من وجوه الفقهاء الشافعية ومن كبارهم، وشهد له بالتبحر والمعرفة التامة بالمذهب. وفوض إليه القضاء ببلدان كثيرة، واستوطن بغداد في درب الزعفراني، توفي سنة ٤٥٠ هجرية. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلکان ج ٣ ص ٢٨٣ تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

3 أي دار الحرب.

4 بكسر الجيم أي وعاء من جلد.

5 أخرجه أبو داود وغيره بإسناد صحيح، كتاب جهاد، باب في إباحة الطعام في أرض العدو.

6 ذكر الإمام أحمد بن حنبل في حرج العسقلاني في تلخيص الحبير: روي أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن ذبح الحيوان إلا للمأكلة. ج ٤ ص ٥٦.

تذبحوا شاة ولا بقرة إلا للأكل...¹. ولقد قال القاضي عياض²: أجمع العلماء على جواز أكل طعام الحربين ما دام المسلمون في دار الحرب على قدر حاجتهم ولم يشترط أحد من العلماء استئذان الإمام إلا الزهري³.

الرجوع للمدينة ومقتل غلام رفاعة الذي أهداه للرسول

لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر انصرف إلى وادي القرى؛ فحاصر أهله ليالي ثم انصرف راجعا إلى المدينة.

قال ابن إسحاق: فحدثني نور بن زيد عن سالم مولى عبد الله بن مطيع عن أبي هريرة قال فلما انصرفنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خيبر إلى وادي القرى نزلنا بها أصيلا مع مغرب الشمس ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم غلام له أهداه له رفاعة بن زيد الجذامي، ثم الضبيني⁴. قال فوالله إنه ليضع رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه سهم غرب فأصابه فقتله فقلنا: هنيئا له الجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا، والذي نفس محمد بيده إن شملته الآن

¹ تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٦.

² القاضي عياض: أبو الفضل عياض بن موسى السبتي؛ ولد بمدينة سبتة في النصف من شعبان سنة ست وسبعين وأربعمائة، وتوفي بمراكش يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة، كان إماما وفتى في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، وصنف التصانيف المفيدة منها "الإكمال في شرح كتاب مسلم. عن وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ ص ٤٨٣.

³ عون المعبود ج ٧ ص ٢٦٤، والإمام الزهري هو: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري القرشي مدني، سمع سهل بن سعد وأنس بن مالك، وروى عنه صالح بن كيسان ويحيى بن سعيد وعكرمة بن خالد وصدقة بن يسار ومنصور وقتادة، مات الزهري سنة أربع وعشرين ومائة، وذكر أنه مات بالشام. عن التاريخ الكبير محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبدالله البخاري الجعفي ج ١ ص ٢٢٠، دار الفكر.

⁴ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٩.

لتحترق عليه في النار كان غلها من فيء المسلمين يوم خيبر، قال: فسمعتها رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأتاه فقال: يا رسول الله أصبت شراكين لنعلين لي، قال فقال: يقدر لك مثلهما من النار.

قال ابن إسحاق: وشهد خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء من نساء المسلمين؛ فرضخ لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفيء ولم يضرب لهن بسهم.

أمر الأسود الراعي في حديث خيبر¹

قال ابن إسحاق: وكان من حديث الأسود الراعي؛ فيما بلغني: أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو محاصر لبعض حصون خيبر، ومعه غنم له كان فيها أجيراً لرجل من يهود؛ فقال: يا رسول الله اعرض عليّ الإسلام؛ فعرضه عليه؛ فأسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحقر أحداً أن يدعوه إلى الإسلام ويعرضه عليه؛ فلما أسلم قال: يا رسول الله إني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم وهي أمانة عندي؛ فكيف أصنع بها؟ قال: اضرب في وجوهها؛ فإنها سترجع إلى ربها - أو كما قال - فقال الأسود فأخذ حفنة من الحصى؛ فرمى بها في وجوهها، وقال ارجعي إلى صاحبك؛ فوالله لا أصحابك أبداً؛ فخرجت مجتمعة كأن سائماً يسوقها حتى دخلت الحصن. ثم تقدم إلى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين فأصابه حجر فقتله، وما صلى لله صلاة قط؛ فأتني به رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فوضع خلفه وسجى بشملة كانت عليه؛ فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر

¹ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٤٥.

من أصحابه ثم أعرض عنه؛ فقالوا: يا رسول الله لم أعرضت عنه؟ قال: إن معه الآن زوجتيه من الحور العين.

الدروس والعبر:

إن للغلول أحكام كثيرة منها ما يلي¹:

١ - من أحكام الغلول في الدنيا: يترتب على مال الغلول أو حتى الإغلال ما يلي:

- وجوب رد الغلول إلى أصحابه: وصاحب الغلول في الغنائم هو بيت المال في حدود الخمس من جهة والمجاهدون في سبيل الله من جهة أخرى. وصاحب الغلول في الإغلال وهو عموم الخيانة في المالية العامة أخرج ابن أبي شيبة عن مالك بن دينار قال: قال رجل لعطاء بن أبي رباح² رجل أصاب مالا من حرام قال ليرده على أهله فإن لم يعرف أهله فليصدق به ولا أدري يُنجه ذلك من إثمه³.

1 للتوسع يُنظر في كتابي الغلول والإغلال في المالية العامة.

2 كان من أجلاء الفقهاء وتابعي مكة وزهادها، سمع كثيراً من الصحابة رضوان الله عليهم، وروى عنه كثير من التابعين رحمهم الله تعالى وإليه وإلى مجاهد آلت الفتوى بمكة المكرمة توفي سنة ١١٥ هـ. طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي، تهذيب ابن منظور ص ٦٩، وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ ص ٢٦١.

3 أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ج ٤ ص ٥٦١.

- **التأديب¹** : وهذا التأديب للغالّ يكون بالاجتهاد إن ظهر على المُغلِ إلا إن جاء تائباً فليس عليه تأديب². وإنما ذكرت قضية التأديب لأن حد السرقة مُختلف في تطبيقه في هذا المجال.
- **حرمانه من صلاة أهل الفضل عليه** : انقسم العلماء في هذه المسألة إلى فريقين:

- الفريق الأول: رأي الإمام أحمد قال ابن قدامة: ولا يصلي الإمام على الغال من الغنيمة، ولا على من قتل نفسه³.
- الفريق الثاني: رأي جمهور الفقهاء⁴ يصلي الإمام وغيره على كل مسلم، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: **صلوا على من قال لا إله إلا الله⁵**. إلا أن مالكا رحمه الله كره ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصل على ما عزم ولم يمه عن الصلاة عليه⁶. ودليل الفريق الأول: ما رواه زيد بن خالد الجهني⁷: أن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم توفي يوم

1 التلقين في الفقه المالكي لأبي محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي المالكي المتوفى: ٤٢٢هـ دار الكتب العلمية، ط ١/ ١٤٢٥هـ.

2 الشرح الكبير لأبي البركات سيدي أحمد الدردير ج ٢ ص ١٧٩ دار احياء الكتب العربية.

3 المغني ج ٢ ص ٢١٨. ويُنظر في هذه المسألة في كتاب الإنصاف للمرأوي ج ٢ ص ٥٣٥.

4 المجموع شرح المهذب ج ٥ ص ٢٢١.

5 أخرج دار قطني باب صفة من تجوز الصلاة معه والصلاة عليه ج ٢ ص ٥٦. كذا الطبراني في المعجم الكبير ج ١٢ ص ٤٤٧ قال الهيثمي في مجمع الزوائد: وفيه محمد بن الفضل بن عطية وهو كذاب.

6 بداية المجتهد ونهاية المقتصد ج ١ ص ١٩٢.

7 أبو عبد الرحمن روى عن أبي بكر وعمر وعثمان، ومات زيد بن خالد الجهني بالمدينة سنة ثمان وسبعين وهو ابن خمس وثمانين سنة، وهناك من ذهب إلى أنه توفي بالكوفة في آخر خلافة معاوية بن أبي سفيان. الطبقات الكبرى ج ٤ ص ٣٤٤.

خير فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **صلوا على صاحبكم**؛ فتغيرت وجوه الناس لذلك؛ فقال إن صاحبكم غلّ في سبيل الله ففتشنا متاعه فوجدنا خرزا من خرز يهود لا يساوي درهمين¹. فهذا الحديث احتج به الإمام أحمد، واختص هذا الامتناع بالإمام، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما امتنع من الصلاة على الغال، قال: **صلوا على صاحبكم**.

٢- الأثر الخاص للغلول والإغلال: إن للغلول آثار خاصة على أصحابه وآثار عامة تُصاب بها عموم الأمة عند وقوعه. أما الآثار الخاصة فهي كثيرة:

- ارتكاب المعصية: لأنه يخالف أوامر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: **وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا آخِلًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ** (النساء: ١٤).

- حرمانه من فضل الأمانة: لأن الذي يلتزم حدود الله في وظيفته، ويأنف من خيانة الواجب الذي طوقه؛ فهو عند الله من المجاهدين لنصرة دينه وإعلاء كلمته قال صلى الله عليه وسلم: **العامل إذا استعمل فأخذ الحق وأعطى الحق لم يزل كالمجاهد في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته**².

¹ أخرجه ابن ماجه في السنن كتاب الجهاد، باب في تعظيم الغلول ج ٢ ص ٧٥، كذا البيهقي في السنن الكبرى ج ٩ ص ١٠١.
² رواه الطبراني.

- نقصان الإيمان: لقوله صلى الله عليه وسلم: ولا يغل أحدكم حين يغل وهو مؤمن فإياكم إياكم¹.

- الغلول يمنع من إطلاق اسم الشهادة على من غل إذا قتل: وهذا ما ذكره الإمام النووي². وجاء في مواهب الجليل: من غلّ في الغنيمة وشبهه؛ فله حكم الشهيد في الدنيا وليس لهم الثواب الكامل³. وبمعنى آخر هو من شهداء الدنيا فقط⁴.

- عذاب القبر: كما جاء في حديث يوم خيبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل والذي نفسي بيده إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغام لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً⁵.

- الفضيحة يوم القيامة: قال الله تعالى: **وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ وَمَنْ يَغْلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** (آل عمران: ١٦١).

٣- الآثار العامة للغلول في الأمة: للغلول آثار كثيرة على الأمة وذلك كما يلي:

- سبب لانتشار الفقر بين الناس وحلول الهزيمة: لأن من يصيب منه شيء لا يبارك له، ومن لا يصيبه يتأثر بضعف وتآكل ما في بيت المال، ولقد حذر

1 صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفى كماله ج ١ ص ٥٥.

2 شرح النووي على صحيح مسلم ج ٢ ص ١٣٠.

3 مواهب الجليل لمحمد بن عبد الرحمن المغربي ج ٢ ص ٢٤٩. دار الفكر بيروت، ط ٢، ١٣٩٨هـ.

4 الشهداء ثلاثة: شهيد في الآخرة كالمبطلون، وشهيد في الدنيا والآخرة وهو شهيد الحرب الذي قاتل مخلصاً في سبيل الله، وشهيد في الدنيا وذلك كالغالب.

5 صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة خيبر ج ٤ ص ١٥٤٧.

الخلفاء الراشدون وغيرهم بوقوع التخلف الاقتصادي في الأمة كما يوقع فيها الهزيمة أمام أعدائها؛ فقد كان من وصية أبي بكر رضي الله عنه ليزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه¹: واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر².

- سبب لسكنى الرعب في القلوب: قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ما ظهر الغلول في قوم قط إلا ألقى في قلوبهم الرعب³.

- سبب في نزول البلاء والهلاك: قال الله تعالى: **وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً**

أَمْرًا نَأْتُرُ فِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا هَاتَئِدْمِيرًا (الاسراء:

١٦).

٤- يد الأجير هي يد أمانة: لقد حث الشرع على أداء الأمانة بشتى السبل وها هو صلى الله عليه وسلم يحث رجلاً من أصحابه حديث العهد في الإسلام على رد غنمه إلى صاحبها اليهودي، ولم يشر له صلى الله عليه وسلم إلى أنها قد أصبحت غنيمة له بل أمره بتحريكها صوب وجه مالكها الأصلي، وهذا الأمر بخلاف أمر الطعام قد الحاجة كما مر.

¹ يزيد بن أبي سفيان، أخو الخليفة الأموي معاوية رضي الله عنه. أسلم يوم فتح مكة، وشهد حينئذ، واستعمله أبو بكر الصديق رضي الله عنه على جيش، وسيره إلى الشام، وخرج معه يشيعه راجلاً. وذلك سنة اثنتي عشرة، ولى يزيد بن أبي سفيان فلسطين، ولما مات أبو عبيدة استخلف معاذ بن جبل، ومات معاذ فاستخلف يزيد، ومات يزيد فاستخلف أخاه معاوية. وكان موت هؤلاء كلهم في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة رضي الله عنهم.

² ذكره ابن الأثير في كتابه الكامل عند حديثه عن فتوح الشام. كذا جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة ج ١ ص ١٨٩، أحمد زكي صفوت المكتبة العلمية - بيروت.

³ موطأ الإمام مالك، ج ٢ ص ٤٦٠ مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي، دار إحياء التراث العربي - مصر.

٥- عدد من قُسم لهم الأموال يوم خيبر: كانت عدة الذين قسمت عليهم خيبر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف سهم وثمانمائة سهم برجالهم وخيلهم الرجال أربع عشرة مائة والخيل مئتا فارس؛ فكان لكل فرس سهمان ولفارسه سهم وكان لكل راجل سهم فكان لكل سهم رأس جمع إليه مئة رجل فكانت ثمانية عشر سهما جمع .

٦- تطوير الثروة الحيوانية: قال ابن هشام: وفي يوم خيبر عرب رسول الله صلى الله عليه وسلم العربي من الخيل وهجن الهجين. وفي هذا إشارة إلى العناية بالثروة الحيوانية وتطويرها خاصة الخيل العربي. حيث يُعتبر الجواد العربي الأصيل من أقدم سلالات الخيل في العالم، إذ يعود تاريخ نشأته إلى أكثر من ٣٠٠٠ سنة ق. م، ويتميز بجماله وقوته وشجاعته ووفائه ما جعله محط أنظار العالم قديماً وحاضراً لاقتنائه، وتحسين السلالات الأخرى؛ فكان الخيل العربي أباً ومؤسساً لكثير من سلالات الخيل في العالم¹.

غزوة مؤتة

لما تفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من شأن قريش بصلح الحديبية قام بإرسال رسائل إلى ملوك عصره وكان من سفرائه الحارث بن عمير الأزدي إلى الشام إلى ملك الروم - وقيل إلى ملك بصرى - ؛ فعرض له شرحبيل ابن عمرو الغساني فأوثقه رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه، ولم يُقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم

¹ <https://aliqtisadi.com>

رسول غيره؛ فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر عنه؛ فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثة إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس؛ فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس.

تخوف الناس من لقاء جموع العدو:

مضى الصحابة الكرام إلى معان من أرض الشام؛ فبلغ الناس أن هرقل قد نزل في البلقاء؛ في مئة ألف من الروم، وانضم إليهم من الغساسنة مئة ألف فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم. وقالوا: نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا؛ فيما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

لكن الناس عبد الله بن رواحة قام وشجع الناس؛ فقال يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فيما هي إحدى الحسينين؛ إما ظهور وإما شهادة؛ فقال الناس: قد صدق والله ابن رواحة؛ فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب وانحاز المسلمون إلى قرية يُقال لها مؤتة؛ فالتقى الناس عندها واستشهد القادة الثلاثة.

فأخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان فقال يا قوم اصطلحوا على رجل منكم فقالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل؛ فاصطلح الناس على خالد بن الوليد؛ فلما أخذ

الرأية دافعَ ألقوم. وحاشى - حجز بينهم وبين الروم - بهم ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس .

حُزن الرسول على جعفر ووصايته بآله :

عن أسماء بنت عميس، قالت: لما أصيب جعفر وأصحابه دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: اثني بني جعفر؟ قالت: فأتيته بهم فتشممهم وذرفت عيناه فقلت: يا رسول الله . بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم أصيبوا هذا اليوم . قالت: فقامت أصبح واجتمعت إليَّ النساء وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله . فقال: لا تُغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً؛ فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم .

الدروس والعبر :

١ - التحوط الإداري: خرج الصحابة رضي الله عنهم إلى أرض بعيدة عن المدينة، ويتدربهم إداراتهم وقيادتهم مخاطر كبيرة، لذا كان من هديه صلى الله عليه وسلم أن أشار إلى تعيين نائب لإدارة المعركة وقيادتها ونائب لذلك النائب .

٢ - خطورة الفراغ القيادي واستعمال أفضل الكفاءة في الإدارة: هذا درس عظيم قدمه لنا الصحابي الجليل ثابت بن أقرم العجلاني، عندما أخذ اللواء بعد استشهاد عبد الله بن رواحة آخر الأمراء، وذلك أداء منه للواجب، لأن وقوع الرأية معناه هزيمة الجيش، ثم نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائداً، وفي زحمة الأحداث قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل؛ فاصطلح الناس على خالد رضي الله عنه . فثابت

رضي الله عنه لم يكن عاجزاً عن القيادة، وهو ممن حضر بديراً، ولكنه رأى من الظلم أن يتولى عملاً وفي المسلمين من هو أجدر به منه، حتى ولو لم يمض على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر؛ فالغاية هي السعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن والطريقة الأمثل .

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من استعمل عاملاً من المسلمين وهو يعلم أن فيهم أولى بذلك منه وأعلم بكتاب الله وسنة نبيه فقد خان الله ورسوله وجميع المسلمين¹. وخالد بن الوليد رضي الله عنه هو سيف من سيوف الله تمتع بصفات الإدارة والقيادة من حزم وعزم وشجاعة وقدرة على تحمل المسؤولية واتخاذ القرار المناسب في الموقف الحاسم .

٣- استحباب صنع الطعام لأهل الميت: ندب الرسول صلى الله عليه وسلم الناس أن يصنعوا طعاماً لآل جعفر، وهذا فيه مواساة لأهل المتوفى وتخفيف لمصابهم، وفي الوقت نفسه تكافل بينهم، وهذه السنة خالفتها بعض الشعوب الإسلامية؛ فأصبح أهل الميت يصنعون الطعام للقادمين، وهذا أمر قبيح ينبغي أن يبتعد عنه المسلمون خاصة إن كان الطعام المعد من تركة الميت؛ فقد أصبح حقاً للورثة، ويزداد الأمر خطورة إن كان فيهم صغاراً، اللهم إلا إن فعل ذلك غير أهل الميت تبرعاً من أموالهم الخاصة وتمت دعوة الفقراء والمساكين إليه .

إسلام أبي العاص بن الربيع صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم

¹ البيهقي في السنن الكبرى ج ١٠ ص ١١٨. مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤ - ١٩٩٤.

قال ابن إسحاق: وأقام أبو العاص بمكة، وأقامت زينب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، حين فرق بينهما الإسلام حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام، وكان رجلاً مأموناً، بمال له وأموال لرجال من قريش، أبضعوها معه فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً، لقيته سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابوا ما معه وأعجزهم هارباً؛ فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستجار بها؛ فأجارته وجاء في طلب ماله فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبح؛ فكبر وكبر الناس معه صرخت زينب من صفة النساء أيها الناس إني قد أجزت أبا العاص بن الربيع. قال: فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة أقبل على الناس فقال أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم قال أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم إنه: **يجير على المسلمين أديانهم**. ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على ابنته فقال أي بنية أكرمي مثواه ولا يخلصن إليك؛ فإنك لا تحلين له.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص فقال لهم: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً؛ فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإننا نحب ذلك وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به فقالوا: يا رسول الله بل نرده عليه فردوه عليه حتى إن الرجل ليأتي بالدلو ويأتي الرجل بالشنة وبالإداوة حتى إن أحدهم ليأتي بالشظاظ حتى ردوا عليه ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً ثم احتمل إلى

مكة؛ فأدى إلى كل ذي مال من قريش ماله، ومن كان أبضع معه ثم قال يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه قالوا: لا. فجزاك الله خيراً؛ فقد وجدناك وفيّاً كريماً قال فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنني إنما أردت أن أكل أموالكم فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت. ثم خرج حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ابن إسحاق: وحدثني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال رد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب على النكاح الأول لم يحدث شيئاً (بعد ست سنين)¹.

الدروس والعبر:

يحل رد الفداء بعد تقاسمه – إذا سمح الحاكم بذلك – وهو ما أخذه المسلمون من غيرهم بغير قتال، لكن لا بد في ذلك الموافقة والرضا من أصحابه بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً؛ فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإننا نحب ذلك وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به؛ فقالوا: يا رسول الله بل نرده عليه فردوه عليه. وهذا بالجملة يدخل في باب الإحسان وهذا أمر في معاملات الناس اليوم قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ** **يَعْظُمُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** (النحل: ٩٠).

¹ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٦٥٨.

فتح مكة

كان من بنود صلح الحديبية أنه من أراد أن يدخل في حلف قريش فله ذلك ومن أراد أن يدخل في حلف المسلمين فله ذلك؛ فدخلت بنو خزاعة في حلف المسلمين، ودخلت بنو بكر في حلف قريش، لكن هذه الأخيرة استغلت الهدنة فأغارت على بني خزاعة وقتلت عددا منهم وأمدتهم قريش بالسلاح والمال؛ فخرج عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة؛ فحكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال له: نُصرت يا عمرو بن سالم.

وندمت قريش لفعاليتها فأرسلت أبا سفيان ليشد العقد؛ فعاد خائبا وأمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتجهز قائلًا: **اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها.**

فتجهز الناس؛ فكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتابا يخبرهم بذلك، ثم أعطاه امرأة وجعل لها جُعلا على أن تُبلغه قريشًا؛ فجعلته في قرون رأسها ثم خرجت به وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث عليًا والزبير رضي الله عنهما.

واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن الحصين الغفاري، وقال ابن سعد عبد الله ابن أم مكتوم فخرج لعشر مضي من شهر رمضان فصام وصام الناس ثم أفطر ثم مضى حتى نزل مر الظهران في عشرة آلاف.

عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح جاءه العباس بن عبد المطلب بأبي سفيان بن حرب فأسلم بمر الظهران؛ فقال له العباس: يا رسول الله إن

أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر؛ فلو جعلت له شيئاً؟ قال: نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن. وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عثونته – اللحية أو ما فضل منها – ليكاد يمس واسطة الرجل.

ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته فلما قضى طوافه دعا عثمان ابن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة؛ ففتحت له؛ فدخلها؛ فوجد بها حمامة من عيدان فكسرها بيده، ثم طرحها ثم وقف على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا؛ ففيه الدية مغلظة مئة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها.

يَا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب.

ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات:

١٣).

ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قَرِيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أُنَى فَاعِلٍ فِيكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا أَخٌ كَرِيْمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيْمٍ. قَالَ: اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطَّلَقَاءُ.

ثم جلس في المسجد فقام إليه عليّ ومفتاح الكعبة في يده؛ فقال يا رسول الله: اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أين عثمان بن طلحة؟ فدُعي له؛ فقال: هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم برٍّ ووفاء.

الدروس والعبر:

١- الوفاء بالعهود والمواثيق: يدل كلام النبي صلى الله عليه وسلم: نُصِرْتُ يَا عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ، عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي لِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَفِي بِالْعُهُودِ وَالْمَوَاطِئِقِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ** (الرعد: ٢٠)، وقال تعالى: **وَلَا تَقْرَبُوا أَمْوَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا** (الاسراء: ٣٤)، وهكذا ينبغي أن تكون أحوال المؤمنين في تعاملاتهم التجارية والاقتصادية والاجتماعية فليس من شيم المؤمن الصادق أن ينقض عهداً في تعاملاته لأدنى غرور من هذه الدنيا، وإن فعل خسر وخاب، قال تعالى: **وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** (الرعد: ٢٥).

٢- أداء الأمانة إلى أهلها: يدل دفع النبي صلى الله عليه وسلم مفاتيح الكعبة إلى عثمان بن أبي طلحة إلى وجوب أداء الأمانة إلى أهلها: هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم برٍّ ووفاء.

٣- آثار العفو العام: ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل أو السبي، وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها، وعدم فرض الخراج عليها؛ فلم تعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عنوة، لقدسيته وحرمتها؛ فإنها دار النسك، وتمعبد الخلق، وحرم الرب.

٤- خطبة النبي صلى الله عليه وسلم غداة الفتح وإسلام أهل مكة: غداة الفتح بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن خزاعة حلفاءه عدت على رجل من هذيل فقتلوه، وهو مشرك، برجل قُتل في الجاهلية؛ فغضب وقام بين الناس خطيباً فقال: يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض؛ فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة؛ فلا يحل لا مرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يعضد يقطع فيها شجراً، لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها، ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس؛ فليبلغ الشاهد منكم الغائب؛ فمن قال لكم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قاتل فيها؛ فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم.

٥- الإنفاق في سبيل الله قبل فتح مكة ليس كما بعده: قال عز شأنه: **وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَن أنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** (الحديد: ١٠).

٦- تعامل المرأة مع زوجها المقصر في النفقات الواجبة: لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيعة الرجال بايع النساء - وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة - على ألا يشركن بالله شيئا، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف. ولما قال النبي: **ولا يسرقن**، قالت هند: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني ويكفي بنيَّ فهل عليَّ من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها صلى الله عليه وسلم: **خذي من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف**... ويدل هذا على وجوب نفقة الزوجة والأولاد الفقراء الصغار¹.

¹ اتفق الفقهاء على أن نفقة القريب من ولد وولد ولد كقدرة بقدر الكفاية من الخبز والأدم والمشرب والكسوة والسكنى والرضاع إن كان رضيعا على قدر حال المنفق وعوائد البلاد، لأنها وجبت للحاجة؛ فتقدر بقدر الحاجة. الفقه الإسلامي وأدلته، للدكتور وهبة الزحيلي، ج ١ ص ٧٤١٨.

الفصل السادس من حنين إلى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

سيذكر هذا الفصل ختام السيرة النبوية والعبر المالية والاقتصادية منها وذلك ابتداء من غزوة حنين ومروراً بغزوة تبوك وعام الوفود ووفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتولي أبي بكر رضي الله عنه .

غزوة حنين

بعد أن فتح الله تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم مكة المكرمة التي كانت تشكل المعقل الأكبر للشرك في جزيرة العرب شعر أهل الطائف بأنهم مستهدفون بعد ذلك وأراد أن يكسبوا زعامة العرب بعد قريش فأعدوا لحرب المسلمين .

اتحاد هوازن وثقيف في قيادة واحدة

قال ابن إسحاق¹ : لما سمعت هوازن برسول الله صلى الله عليه وسلم وما فتح الله عليه من مكة جمعها مالك بن عوف فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها؛ فلما هموا بالسير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حط مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس وفيهم دريد بن الصمة - وهو رجل كبير مشهور بحكمته - : " له سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم " قال :

¹ سيرة ابن هشام ج ٥ ص ١٠٤ .

ولم ذاك؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم¹
 قال: فأنتقض به ثم قال: راعي ضأن والله وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك
 لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك،
 قال: والله لا أفعل ذلك إنك قد كبرت وكبر عقلك .

الاستطلاع النبوي والإعداد للخروج:

لما سمع بهم نبي الله صلى الله عليه وسلم بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد
 الأسلمي وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه
 بخبرهم؛ فانطلق ابن أبي حدرد فدخل فيهم فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد
 أجمعوا له من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم².

فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم السير إلى هوازن ليلقاهم ذكر له أن عند
 صفوان بن أمية أدراعاً له وسلاحاً فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال: يا أبا أمية
 أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غداً فقال صفوان: أغصبا يا محمد؟ قال: بل
 عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك، قال: ليس بهذا بأس فأعطاه مائة درع بما
 يكفيها من السلاح؛ فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سألهم أن يكفيهم
 حملها ففعل .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف
 من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة فكانوا اثني عشر ألفاً واستعمل

¹ سيرة ابن هشام ج ٥ ص ١٠٦

² سيرة ابن هشام ج ٥ ص ١٠٤

رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس على مكة أميراً على من تخلف عنه من الناس .

الدروس والعبر :

١- أهمية الإعداد في كل معركة: لقد أدرك المشركون أهمية الإعداد لمواجهة المسلمين فجهزوا أنفسهم في قيادة واحدة، وأوضح القرآن الكريم عوامل النصر ومن ضمنها الوحدة وعدم التنازع فقال تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** (الأنفال: ٤٥-٤٧) . لكن الإعداد المادي لا يكفي وحده وهذا ما ظنه فريق من المسلمين .

٢- البركة مع أكابركم: لقد كان دريد بن الصمة مثلاً للحكمة بين قومه؛ فقد رفض فكرة مالك بن عوف وقال له ساخراً: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ وكان قوله صائباً ولم يلتفت إليه قومه . وإن النبي صلى الله عليه وسلم قد نبهنا إلى أهمية خبرة كبار السن فهم قد مروا بتجارب كثيرة في الحياة وهذه من بركة الأشخاص في الإسلام، قد ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم: فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: البركة مع

أكابرهم¹. وفي هذا الحديث حث على طلب البركة في الأمور والتوسع في الحاجات بمراجعة الأكابر لما خُصوا به من سبق الوجود وتجربة الأمور وسالف عبادة المعبود².

٣- أهمية الاستطلاع لأجل إتقان التخطيط : كانت إقامة جيش المسلمين بمكة المكرمة حديثه العهد وتأتي أنباء للنبي صلى الله عليه عن تحركات معادية مريبة في الطائف فلا يتخذ صلى الله عليه وسلم موقفاً قبل التأكد من الأمر وهذا ما يذكرنا بمنهج عملي ينبغي على المسلم أن يتبعه في مواجهة أي إشاعة أو خبر، وفي إرسال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد الصحابة الذين لم يكونوا على جانب من الشهرة خطة نبوية حكيمة تدل على عمق النظرة الاستراتيجية في الإدارة النبوية؛ فلو قام صلى الله عليه وسلم بإرسال رجل مشهور كعمر بن الخطاب أو سعد بن عبادة لكشف أمره على الفور من قبل أهل الطائف .

٤- تجوز الاستعارة ولا يجوز الغصب لبيت المال عند الضرورة مع الضمان : يؤخذ من تأمينه صلى الله عليه وسلم لأفراد الجيش الذين دخلوا في الإسلام حديثاً، حيث قال صفوان بن أمية : يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدا فقال صفوان : أغصبا يا محمد؟ قال : بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك .

1 أخرجه الحاكم في المستدرک كتاب الإيمان ج ١ ص ١٣١ وقال صحيح الإسناد على شرط البخاري، وابن حبان في صحيحه باب استحباب التبرک للمرء بعشرة مشايخ أهل الدين والعقل ج ٢ ص ٣١٩ .
2 فيض القدير لعبد الرؤوف المناوي ج ٣ ص ٢٢٠ .

وتفصيل المسألة وفق الآتي :

حال العارية مع بيت المال : اتفق الحنفية والشافعية على أن العارية بشكل عام هي

أمانة في يد المستعير ولكن اختلفوا في مسألة الضمان :

فالحنفية لا يُضمّنون المستعير في جميع الأحوال شرط عدم التفريط والتقصير¹.

والمالكية² يضمّنون المستعير كل ما يغيب عنه وهو ما يمكن إخفاؤه مثل الحلبي،

وهذا الضمان يزول بشهادة بينة أن العارية قد تلفت بغير سببه إلا أن يكون منه

تضييع أو تفريط فيضمن .

والشافعية والحنابلة³ يضمّنون المستعير إذا تلفت بغير الاستعمال ولو لم يفرط، ولو

شرط نفي الضمان لا يسقط . قال صاحب المغني : وإن شرط نفي الضمان، لم

يسقط وبهذا قال الشافعي⁴.

والأدلة على ذلك :

١- استدلال الحنفية والمالكية بما يلي :

- إن لم يوجد من المستعير سبب وجوب الضمان فلا يجب عليه الضمان، لأن

الضمان لا يجب على المرء بدون فعله .

- لأن القبض المأذون فيه لا يكون تعدياً، لأنه لا يفوت يد المالك ولا ضمان إلا

على المتعدي .

1 بدائع الصنائع ج ٦ ص ٢١٧.

2 مواهب الجليل ج ٥ ص ٢٦٨ محمد بن عبد الرحمن المغربي دار الفكر بيروت ط ٢ سنة: ١٣٩٨هـ.

3 المغني ج ٥ ص ١٢٨.

4 المغني ج ٥ ص ١٢٨، المهذب ج ١ ص ٣٦٣.

- واستدلوا أيضاً بما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليس على المستعير غير المغل ضمان ولا على المستودع غير المغل ضمان¹.

٢- واستدل الشافعية بما يلي:

- حديث صفوان بن أمية عندما قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: بل عارية مضمونة.

- لأن المستعير قبض مال الغير لنفسه فيكون مضموناً عليه.

ويرى الباحث أن العارية لبیت المال هي عارية مضمونة، وأنه يحل لولي الأمر أن يستعير من مواطني الدولة الإسلامية ما يحتاجه عند الضرورة لضعف سند حديث عمرو بن شعيب ليس على المستعير...

بداية المعركة في وادي حنين:

في صبيحة المعركة نصب العدو كميناً في شعاب الوادي وأعدوا للمسلمين في طرفي الوادي؛ فلما قدم المسلمون حصلت المفاجأة لهم، وتحرك المسلمون يتفرقون، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمن، ثم قال: أين أيها الناس؟ هلموا إلي أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله؛ فانطلق الناس إلا أنه قد بقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

¹ رواه الدارقطني باب البيوع برقم ٣٠٠٢ وفي سنده ضعف، البيهقي في السنن الصغرى باب العارية ج ٥ ص ٣٧٨، عبد الرزاق في المصنف باب العارية ج ٨ ص ١٧٨.

قال ابن إسحاق: وحدثني الزهري عن كثير بن العباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال: إني لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بحكمة بغلته البيضاء قد شجرتها بها، قال: وكنت امرأً جسيماً شديد الصوت. قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين رأى ما رأى من الناس: **أين أيها الناس؟** فلم أر الناس يلوون على شيء فقال: **يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار: يا معشر أصحاب السمرة¹** قال: فأجابوا: لبيك لبيك، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا وكانت الدعوى أول ما كانت: **يا للأنصار.** ثم خلصت أخيراً: **يا للخزرج** وكانوا صبراً عند الحرب فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون؛ فقال: **الآن حمي الوطيس** فلما وضعت الحرب أوزارها وفرغنا من القوم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **من قتل قتيلاً فله سلبه.**

وأُنزل الله عز وجل في يوم حنين: **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ؛** إلى قوله: **وذلك جزاء الكافرين.**

ثم جمعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا حنين وأموالها وكان على المغامم مسعود بن عمرو الغفاري، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبايا والأموال إلى الجعرانة فحبست بها ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف حين فرغ من حنين ورماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنجنيق حيث دخل نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت "دبابة"² ثم زحفوا إلى

¹ هي الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان.

² آلة تتخذ من جلود وخشب يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن لينقبوه.

جدار الطائف ليخرقوه فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالاً؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع أعناب ثقيف فوق الناس فيها يقطعون¹.

ثم إن خويلة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمية وهي امرأة عثمان قالت²: يا رسول الله أعطني إن فتح الله عليك الطائف حلي بادية بنت غيلان بن مظعون بن سلمة أو حلي الفارعة بنت عقيل وكانتا من أحلى نساء ثقيف؛ فذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها: وإن كان لم يؤذن لي في ثقيف يا خويلة؟ فخرجت خويلة فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب؛ فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال يا رسول الله: ما حديث حدثتني خويلة زعمت أنك قلتها؟ قال: **قد قلتها**، قال: أو ما أذن لك فيهم يا رسول الله؟ قال: لا. قال: أفلا أوذن بالرحيل؟ قال: **بلى**. قال: فأذن عمر بالرحيل.

ونزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في إقامته ممن كان محاصراً بالطائف عبيد فأسلموا فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما أسلم أهل الطائف تكلم نفر منهم في أولئك العبيد؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لا أولئك عتقاء الله**. قال ابن إسحاق: فحدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أبناؤكم ونسأؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟**

1 سيرة ابن هشام ج ٥ ص ١٥٥.

2 سيرة ابن هشام ج ٥ ص ١٥٧.

فقالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا بل ترد إلينا نساءنا وأبنائنا فهو أحب إلينا؛ فقال لهم: أما ما كان ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس؛ فقوموا: فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونساءنا؛ فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم؛ فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس الظهر قاموا؛ فتكلموا بالذي أمرهم به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم؛ فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه؛ فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا. وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا؛ فقالت بنو سليم: بلى ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: يقول: عباس بن مرداس لبني سليم وهنتموني؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي أصيبه فردوا إلى الناس أبنائهم ونساءهم.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد هوازن وسألهم عن مالك بن عوف: ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلما رددت عليه أهله وماله. فأدركه بالجعرانة أو بمكة؛ فرد

عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل وأسلم فحسن إسلامه فاستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على من أسلم من قومه .

الدروس والعبر :

١- التحفيز عامل إداري كبير في النجاح: يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم للعباس أن ينادي بعض الناس أصحاب المهارات كالخزرج والأوسمة المخصوصة كأصحاب بيعة الرضوان الذين رضي الله عنهم، وقد آتت تلك المعاملة أكلها حيث جاء فقالوا: يا لبيكاه يا لبيكاه!¹

٢- التعين المكاني والإداري على الأموال العامة: فيه مشروعية لبيت المال العام والفروع الإدارية الصغيرة، حيث لم يكن المسلمون في عاصمتهم المدينة المنورة لذا فلم يترك النبي صلى الله عليه وسلم تلك الأموال دون رعاية فعين أحد أصحابه ليقوم بتلك المهمة في مكان يسمى الجعرانة ريثما يتصرف بها النبي صلى الله عليه وسلم سواء في مصارفها المخصوصة أو على الاجتهاد النبوي إمام أهل الصدق والعدل .

٣- التنكيل المالي في العدو عند الحاجة: وذلك بدليل أمره صلى الله عليه وسلم للمسلمين أن يقطفوا من عنب الطائف .

٤- يجوز أن يخصص الإمام بعض أموال الغنائم قبل حيازتها إن أراد: لم ينكر صلى الله عليه وسلم على خويلة بنت حكيم طلبها بل أوضح لها أنه لم يأت الإذن

¹ سيرة ابن كثير ج ٣ ص ٢٢٧ .

في الطائف، ولعل ذلك لحكمة أرادها الله تعالى حيث أسلموا فيما بعد وحسن إسلامهم .

٥- لا رجوع في العتق: لقد نزل مجموعة من العبيد وأسلموا فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندما طلب القوم الذين أسلموا في حقهم المظنون، أوضح لهم النبي صلى الله عليه وسلم أن أولئك عتقاء الله ولا يمكن أن يكونوا عبيداً مرة ثانية لأصحابهم .

٦- الإحسان النبوي مع من أسلم برده أهله: الحث على رد ماله مع العوض لمن يأبى ذلك كونه قد أصبح من حقه، ولقد بدأ صلى الله عليه وسلم بنفسه وببني عبد المطلب كي يكون قدوة للصحابة في هذا الشأن فمشى الناس على أثره صلى الله عليه وسلم، ولم يكتف صلى الله عليه وسلم برده مال بعض الناس بل حفز بعضهم كي يسلم وأنزل الناس منازلهم .

تقسيم الأموال وتجديد التحذير من الغلول :

قال ابن إسحاق: لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من رد سبايا حنين إلى أهلها ركب واتبعه الناس يقولون: يا رسول الله أقسم علينا فيعنا من الإبل والغنم حتى ألقأوه إلى شجرة فاخترت عنه رداءه فقال: أدوا علي ردائي أيها الناس فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ثم ما ألفتيموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه؛ فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها ثم قال: أيها الناس والله مالي من فيئكم ولا هذه البرة إلا الخمس

والخمس مردود عليكم فأدوا الخياط والمخيط فإن الغلول يكون على أهله عاراً
وناراً وشناراً يوم القيامة.

قال: فجاء رجل من الأنصار بكبة من خيط شعر فقال: يا رسول الله أخذت هذه
الكبة أعمل بها برذعة بعير لي دبر فقال: أما نصيبي منها فلك، قال: أما إذا بلغت
هذا فلا حاجة لي بها ثم طرحها من يده¹.

قال ابن هشام: وذكر زيد بن أسلم عن أبيه: أن عقيل بن أبي طالب دخل يوم
حنين على امرأته فاطمة بنت شيبه بن ربيعة وسيفه متلطح دمًا؛ فقالت: إني قد
عرفت أنك قد قاتلت فماذا أصبت من غنائم المشركين؟ فقال: دونك هذه الإبرة
تخيطين بها ثيابك فدفعها إليها فسمع منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول: من أخذ شيئاً فليرده حتى الخياط والمخيط؛ فرجع عقيل؛ فقال: ما أرى
إبرتك إلا قد ذهبت فأخذها فألقاها في الغنائم².

قال ابن إسحاق: أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلفه قلوبهم وكانوا أشرفاً
من أشرف الناس يتألفهم ويتألف بهم قومهم فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير
وأعطى ابنه معاوية مائة بعير وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير وأعطى الحارث بن
الحارث بن كلدة أخا بني عبد الدار مائة بعير.

قال ابن إسحاق: أعطى الحارث بن هشام مائة بعير وأعطى سهيل ابن عمرو مائة
بعير وأعطى حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس مائة بعير وأعطى العلاء بن جارية
الثقفي حليف بني زهرة مائة بعير وأعطى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر مائة

1 سيرة ابن هشام ج 5 ص 168.

2 سيرة ابن هشام ج 5 ص 169.

بغير وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة بغير وأعطى مالك بن عوف النصري مائة بغير وأعطى صفوان بن أمية مائة بغير. وأعطى دون المائة رجالا من قريش منهم مخزومة بن نوفل الزهري.

قال ابن هشام: وأعطى عباس بن مرداس أباعر - جمع بغير - فسخطها فعاتب فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ابن إسحاق: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهبوا به فاقطعوا عني لسانه فأعطوه حتى رضي؛ فكان ذلك قطع لسانه الذي أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عن ابن عباس قال: بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش وغيرهم فأعطاهم يوم الجعرانة من غنائم حنين. وقال قائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه: يا رسول الله أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة وتركت جعيل بن سراقه الضمري؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقه خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ولكني تألفتهمما ووكلت جعيل بن سراقه إلى إسلامه.

جاء رجل من بني تميم يُقال له ذو الخويصرة فوقف عليه وهو يعطي الناس فقال: يا محمد قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أجل فكيف رأيت؟ فقال: لم أرك عدلت؛ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟ فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ألا أقتله؟ فقال: لا دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية.

لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه .

عتاب النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار:

دخل عليه سعد بن عباد فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت . قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء .

قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي . قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة . قال: فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة . فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم؛ فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار؛ فاتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: يا معشر الأنصار ما قاله بلغني عنكم وجدة وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم . قالوا: بلى الله ورسوله أمن وأفضل، ثم قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ الله ورسوله المن والفضل . قال صلى الله عليه وسلم: أما

والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك ومخذولاً فنصرناك وطريداً فأويناك وعائلاً فأسيناك أو جدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة¹ من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم.

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا.

قال ابن إسحاق: ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجعرانة معتمراً وأمر ببقايا الفيء فحبس بمجنة بناحية مر الظهران فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمرته انصرف راجعاً إلى المدينة واستخلف عتاب بن أسيد على مكة وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن وأتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ببقايا الفيء².

رزق عتاب بن أسيد والي مكة:

¹ يعني أن الدنيا كالنبات الأخضر قليل البقاء ومنه قولهما بقي في الدنيا إلا لعاعة أي بقية يسيرة، لسان العرب لابن المنظور، ج ٨ ص ٣١٩.

² سيرة ابن هشام ج ٥ ص ١٧٨

قال ابن هشام: وبلغني عن زيد بن أسلم أنه قال: لما استعمل النبي صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهماً فقام فخطب الناس فقال: أيها الناس أجاج الله كبد من جاع على درهم فقد رزقني رسول الله صلى الله عليه وسلم درهماً كل يوم فليست بي حاجة إلى أحد.

الدروس والعبر:

١- موقف الصحابة في طلب تقسيم الفيء: هو موقف طبيعي من حال الإنسان

مع المال حيث قال الله تعالى: **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ**

الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً. (الكهف: ٤٦) وقال الله تعالى: **وَإِنَّهُ**

لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (العاديات: ٨). ولقد ظهر هذا الحب من قبل يوم معركة أحد

حيث قال تعالى: **مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ** (آل

عمران: ١٥٨). لكن هذا الموقف لا ينطبق على كل الصحابة فكم من بذل منهم

في سبيل الإسلام، وكم من قدم منهم الغالي والنفيس لأجله.

٢- تجديد التحذير من الغلول: ها هو صلى الله عليه وسلم يجدد تحذيره أصحابه

من الغلول والخيانة في المال العام مع التشنيع في وصف العار الذي سيصيب

أصحابه يوم القيامة حتى أن بعض الصحابة ليرد إبرة للخياطة مخافة الأثر الكبير من

الغلول.

٣- محمد صلى الله عليه وسلم إمام أهل العدل وإسكات السفهاء بالمال: يدل

فعله صلى الله مع ذي الخُوَيْصِرَةِ - تصغير خاصة - على مشروعية إسكات

السفهاء بقليل من المال إن وجد المال وكان هؤلاء من ضمن مجموع الاستحقاق، كما يدل فعله صلى الله عليه وسلم في طريقة التقسيم أن أمر التقسيم يعود لإمام المسلمين بالطريقة التي يراها مناسبة لمصلحة عموم المسلمين لذا فقد أعطى صلى الله عليه وسلم أقواماً حديثو عهد في الإسلام تأليفاً وجمعاً لقلوبهم على الإسلام.

٤- الاستحقاق المالي على الوظائف العامة: يؤخذ ذلك مما فرضه رسول الله صلى الله عليه لعتاب بن أسيد كي يقوم في إدارة شؤون الناس ورفده بسيد العلماء معاذ بن جبل كي يفقه ويعلم الناس، وكان ذلك الاستحقاق المالي بمقدار درهم في اليوم.

٥- الفوز بقرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من كل مال: لقد حاز هذا الفضل الأنصار رضي الله عنهم ويحوزه كل من اتبعه في بذل ماله في سبيل الله تعالى: ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟.

غزوة تبوك

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ما بين ذي الحجة إلى رجب ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم.

وكان ذلك في زمان من عسرة الناس وشدة من الحر وجذب من البلاد وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي

يصمد له إلا ما كان من غزوة تبوك؛ فإنه بينها للناس لبعده الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد له ليتأهب الناس لذلك أهبطه فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم.

حث الرسول على النفقة وشأن عثمان في ذلك

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جد في سفره وأمر الناس بالجهاز والانكماش وحض أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله¹ فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها. قال ابن هشام: حدثني من أثق به أن عثمان بن عفان أنفق في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم أرض عن عثمان؛ فإنني عنه راضٍ.

خروج الرسول صلى الله عليه وسلم واستعماله على المدينة

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عسكره على ثنية الوداع. قال ابن هشام: واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري وذكر عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل على المدينة، مخرجه إلى تبوك، سباع بن عرفطة. فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلف عنه عبد الله بن أبي؛ فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب.

¹ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥١٨.

وخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه على أهله وأمره بالإقامة فيهم فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلفه إلا استثقالا له وتخففا منه. فلما قال ذلك المنافقون أخذ علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف فقال يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني؛ فقال: كذبوا، ولكنني خلفتك لما تركت ورائي؛ فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي؛ فرجع علي إلى المدينة، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سفره¹.

النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون بالحجر

قال ابن إسحاق: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحجر نزلها، واستقى الناس من بعثها. فلما راحوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تشربوا من مائها شيئا، ولا تتوضأوا منه للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئا، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له. ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته وخرج الآخر في طلب بغير له؛ فأما الذي ذهب لحاجته فإنه خنق على مذهبه، وأما الذي ذهب في طلب بغيره فاحتملته الريح

¹ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥٢٠ وما بعدها.

حتى طرحته بجبلي طيئ. فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: ألم أنهكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم للذي أصيب على مذهبه؛ فشفى، وأما الآخر الذي وقع بجبلي طيئ؛ فإن طيئا أهدته لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة، والحديث عن الرجلين عن عبد الله بن أبي بكر، عن عباس بن سهل بن سعد الساعدي، وقد حدثني عبد الله بن أبي بكر أن قد سمى له العباس الرجلين ولكنه استودعه إياهما؛ فأبى عبد الله أن يسميهما لي.

قال ابن هشام: بلغني عن الزهري أنه قال لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر سجدى ثوبه على وجهه واستحث راحلته ثم قال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم. قال ابن إسحاق: فلما أصبح الناس ولا ماء معهم شكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأرسل الله سبحانه سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء. قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن رجال من بني عبد الأشهل قال: قلت لمحمود هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم والله إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عمه وفي عشيرته ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك. ثم قال محمود لقد أخبرني رجال من قومي عن رجل من المنافقين معروف نفاقه كان يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سار فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان ودعا رسول

الله صلى الله عليه وسلم حين دعا؛ فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس قالوا: أقبلنا عليه نقول ويحك، هل بعد هذا شيء قال سحابة مارة.

محبة الإنسان للمال :

إن محبة الإنسان للمال أمر طبيعي، وقد حدثنا القرآن الكريم عن ذلك فقال: **إِنَّ**

الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ* وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكِ لَشَهِيدٌ* وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ

(العاديات: ٦-٨) قال القرطبي¹: (حب الخير) أي المال، ومنه قوله تعالى: (**إِنْ**

تَرَكَ خَيْرًا...) (البقرة: ١٨٠) فمحبة الناس من الصحابة لثمارهم يدخل ضمن

هذا للمال بأنواعه، لكن هذه المحبة عندما وضعت أمام المؤمنين من أصحاب رسول

الله صلى الله عليه وسلم فقاموا بتقديم طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على

محبة المال، وهذا ما ينبغي عليه أن يكون منطلق وحال المؤمنين عبر الأزمان

والعصور.

التمويل المالي لبيت المال عند الشدائد

يؤخذ من إعداد وتجهيز الخروج إلى تبوك طريقة التمويل المالي عند الشدائد ومن ذلك:

- فتح باب التبرعات التطوعية وحث الناس عليها.

1 تفسير القرطبي ج ٢٠ ص ١٦٢، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

- التوظيف المالي على الأغنياء وقد مر تعريفه. ذلك لأن الاستقراض في الأزمات إنما يكون حيث يرجى لبيت المال دخل يُنتظر، وأما إذا لم يُنتظر شيء وضعفت وجوه الدخل بحيث لا يُغنى فلا بد جريان حكم التوظيف¹.

شروط التوظيف المالي²: يشترط لفرض التوظيف المالي مايلي:

ا. أن تكون الأمة في جائحة. والجائحة عند الفقهاء: كل شيء لا يستطاع دفعه لو علم به، كسماوي، كالبرد والحر، ومثل ذلك ربح السموم، والثلج والمطر، والجراد والفتران، والغبار والنار ونحو ذلك، أو غير سماوي.

ب. أن يكون بيت المال فارغاً.

ج. أن يوظف على الأغنياء دون الفقراء.

د. أن يكون التوظيف على قدر الحاجة.

ه. أن تتوقف هذه السياسة فور انتهاء الأزمة المالية.

و. ألا يكون في أموال الدولة ما يوضع في نفقات غير لازمة أو غير

مشروعة³.

1 سياستا تحصيل الزكاة وإلغاء الضرائب الماليتين د. سامر قنطجبي عن الاعتصام للشاطبي ج ٢ ص ٣٠٥.

2 سياستا تحصيل الزكاة، وإلغاء الضرائب الماليتين للدكتور سامر قنطجبي ص ٦٦، الحرية الاقتصادية في الإسلام وأثرها في التنمية للدكتور سعيد أبو الفتوح البسيوني ص ١٤٩.

3 الإيرادات العامة للدولة في صدر الإسلام وتطبيقاتها المعاصرة للدكتور مذر القحف ص ٥٢ (المعهد الإسلامي للبحوث والتنمية).

ز . أن يُستشار أهل الحَلِّ والعقد من الأمة في ذلك¹ .

صكوك إيمانية وعقود ربانية :

عندما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم تجهيز جيش تبوك وكان بيت المال فارغاً فقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضاً لتمويل تجهيز الجيش فقال لتجار الصحابة وأغنيائهم: من يجهز جيش تبوك وله الجنة! .

فسكت الناس؛ فقام عثمان وسط الناس بشخصه كأنه النجم، وقال: أنا يا رسول الله! فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم، وقال: اللهم اغفر لعثمان ما تقدم من ذنبه وما تأخر، اللهم ارض عن عثمان فإنني عنه راض . جاء عثمان بألف دينار، إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنثرها في حجره وهو يقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم مرتين² .

ولم يكن هذا الدعم المالي لعثمان هو الأول بل كان مشاركاً أساساً رضي الله عنه في دعم البنى التحتية للمسلمين وذلك مثل وقفه المعروف لبئر رومة وهي بئر عذبة الماء كانت ملكاً لرجل من أهل الكتاب يبيع ماءها للمسلمين في المدينة المنورة³ . وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قدم عرضاً فقال: من يشتري بئر رومة يوسع بها على المسلمين وله الجنة⁴ .

1 الفقه الاقتصادي لعمر بن الخطاب للدكتور جريبة الحارثي ص ٢٨٢ نقلاً بتصريف عن الشيخ مصطفى الزرقاء.

2 أخرجه الترمذي كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان رضي الله عنه، ج ٥ ص ٦٢٦.

3 أخرجه البخاري باب إذا وقف أرضاً أو بئراً ج ٣ ص ١٠٢١، الترمذي باب في مناقب عثمان ج ٥ ص ٦٢٥، النسائي باب من جهز غازياً فقد غزا ج ٣ ص ٣١، وغيرهم.

4 زاد المعاد لابن قيم الجوزية ج ٥ ص ٧١٣.

الاستخلاف الإداري العام والخاص :

يلاحظ في هذه الغزوة أن النبي صلى الله عليه وسلم خصص نوعين من الاستخلاف :

- على أهل بيته وهو من أهل بيته سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
- على عموم شأن المسلمين .

وهذا كله يبين أهمية الترتيب الإداري سواء أكان في الشأن العام أم في الشأن الخاص لرسول الله صلى الله عليه وسلم والذي يمثل القائد العام للمسلمين؛ فما ينبغي أن يقلق حول وضعهم وتربص المتربصين بهم .

الوصول لتبوك

لما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، أتاه يُحَنَّة بن ربيعة، صاحب أيلة؛ فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأذرح؛ فأعطوه الجزية فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم كتاباً؛ فهو عندهم .

الجزية

هي سنوية متنوعة تؤخذ من غير المسلمين لمنافع متبادلة . حيث يقوم رعايا الدولة الإسلامية من غير المسلمين بدفع مبالغ مالية محدودة كل عام؛ في مقابل تأمين المسلمين لهم أمنهم واستقرارهم دون أي قتال أو تضحية منهم، حيث أن ذلك مفروض على المسلم .

أنواع الجزية 1:

الجزية على أنواع كما يلي:

- جزية عنوية (عنوة): وهي التي تفرض على الحربيين بعد غلبتهم.
- وجزية صلحية: وهي التي يتبرعون بها ليكف عنهم²، وهي راجعة إلى الاتفاق الواقع في ذلك بين المسلمين وأهل الصلح.
- وأما الجزية الثالثة فهي العشرية: وذلك أن جمهور العلماء على أنه ليس على أهل الذمة عشر ولا زكاة أصلا في أموالهم إلا ما روي عن بعضهم أنهم ضاعفوا الصدقة على نصارى بني تغلب، أي أنهم أوجبوا عليهم دفع ضعف ما على المسلم من الصدقة في شيء من الأشياء التي تلزم فيها المسلمين الصدقة وهي الأموال عندما يتاجرون بها وتصبح بحكم الأموال الظاهرة، واختلف العلماء في تعشير أهل الذمة وسيمر ذلك في أثناء الحديث عن العشور.

الجزية إلى بيت المال العام:

إن الجزية تختلف عن الزكاة في خصوصية المستحقين فيها؛ فهي مطلقة القيود وذكر الفقهاء أن الجزية مشتركة لمصالح المسلمين من غير تحديد كالحال في الفقيه³ عند من رأى أنه مصروف إلى اجتهاد الإمام، ولقد رأى كثير من الناس⁴ أن اسم

1 بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد الحفيد الأندلسي.

2 الصلحية: وهي التي عقدت مع الذين منعوا أنفسهم وأموالهم وبلادهم من أن يستولي عليها المسلمون بالقتال عليه.

3 كفاية الأختيار ج ٢ ص ٦٠٦.

4 المدونة الكبرى للإمام مالك بن أنس ج ٢ ص ٣٠٢.

الفيء إنما ينطبق على الجزية في آية الفيء. قال صاحب رد المحتار: (ومصرف الجزية والخراج ومال التغلبي وهديتهم للإمام)... ثم قال: (كسد ثغور وبناء قنطرة وجسر وكفاية العلماء)¹.

حديث أسر أكيدر ثم مصالحته

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا خالد بن الوليد؛ فبعثه إلى أكيدر دومة، وهو أكيدر بن عبد الملك رجل من كندة كان ملكاً عليها، وكان نصرانياً؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد: **إنك ستجده يصيد البقر؛ فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين وفي ليلة مقمرة صائفة وهو على سطح له ومعه امرأته فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر؛ فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله قالت فمن يترك هذه؟ قال: لا أحد. فنزل فأمر بفرسه فأسرج له وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ يقال له حسان. فركب وخرجوا معه بمطاردهم. فلما خرجوا تلتقتهم خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذته؟ وقتلوا أخاه وقد كان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب فاستلبه خالد فبعث به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل قدومه به عليه. قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن أنس بن مالك، قال رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا، قال ابن إسحاق: ثم إن خالداً قدم بأكيدر على****

1 رد المحتار عن الدر مطلب في مصارف بيوت المال، بداية المجتهد ج ١ ص ٣٢٦.

رسول الله صلى الله عليه وسلم فحقن له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله فرجع إلى قريته فقال رجل من طييء: يقال له بجير بن بجرة يذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد إنك ستجده يصيد البقر وما صنعت البقر تلك الليلة حتى استخرجته لتصديق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك بضعة عشرة ليلة لم يجاوزها، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة. وكان في الطريق ماء يخرج من وشل، ما يروي الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له وادي المشقق؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سبقنا إلى ذلك الوادي فلا يستقين منه شيئاً حتى نأتيه. قال: فسبقه إليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه فلما أتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف عليه فلم ير فيه شيئاً. فقال: من سبقنا إلى هذا الماء؟ فقيل له: يا رسول الله فلان وفلان؛ فقال: أو لم أنهمم أن يستقوا منه شيئاً حتى آتاه ثم لعنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا عليهم. ثم نزل فوضع يده تحت الوشل¹ فجعل يصب في يده ما شاء الله أن يصب ثم نضحه به ومسحه بيده ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما شاء الله أن يدعو به فانخرق من الماء - كما يقول من سمعه - ما إن له حساً كحس الصواعق فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لئن بقيتم أو من بقي منكم لتسمعن بهذا الوادي، وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه. وبذلك

¹ الوَشَلُّ بالتحريك الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة يقطر منه قليلاً قليلاً لا يتصل قطره، وقيل لا يكون ذلك إلا من أعلى الجبل، وقيل هو ماء يخرج من بين الصخر قليلاً قليلاً والجمع أوصال، لسان العرب ج ١١ ص ٣٥٤.

تتأكد أهمية المياه في الحياة وضرورة المحافظة عليها وفق الإرشادات النبوية؛ فلم يكن صلى الله عليه وسلم ليمنع الناس من الماء مؤقتاً لحكمة منه صلى الله عليه وسلم، وهي أن يكفي الجميع ببركة النبي صلى الله عليه وسلم، وهكذا ينبغي المحافظة على الماء سواء قل أم كثر بين أيدي الناس، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بسعد رضي الله عنه وهو يتوضأ فقال: ما هذا السرف؟ فقال أفني الوضوء إسراف؟ قال: نعم وإن كنت على نهر جار.

مسجد الضرار وعام الوفود وضيافتهم

قصة مسجد الضرار قصة ذكرها القرآن الكريم؛ قال الله تعالى: **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ*** لا تقم فيه أبداً لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ* أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (التوبة: ١٠٧-١٠٩).

وذكر ابن إسحاق كيفية بناء هذا المسجد الظالم أهله، وكيفية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بخرابه مرجعه من تبوك قبل دخوله المدينة.

ومضمون ذلك: أن طائفة من المنافقين بنوا صورة مسجد قريباً من مسجد قباء، وأرادوا أن يصلي لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه حتى يروج لهم ما أرادوه من الفساد والكفر والعناد.

فعصم الله رسوله صلى الله عليه وسلم من الصلاة فيه، وذلك أنه كان على جناح سفر إلى تبوك؛ فلما رجع منها فنزل بذي أوان – مكان بينه وبين المدينة ساعة – نزل عليه الوحي في شأن هذا المسجد.

ودعا النبي صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدي – أو أخاه عاصم بن عدي – رضي الله عنهما فأمرهما أن يذهبا إلى هذا المسجد الظالم أهله فيحرقاه بالنار؛ فذهبا فحرقاه بالنار، وتفرق عنه أهله¹.

الدروس والعبر:

١- التعزير المالي: إن ظاهر هدم مسجد الضرار هو إضاعة مال ألا وهو البناء وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال. عن المغيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ومنعا وهات ووأد البنات وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال². فكيف يتم التوفيق بين الأمرين:

أجاب بعض العلماء عن هذه المسألة بالقول بجواز العقوبات المالية، ومن هؤلاء ابن القيم حيث قال: التعزير بالعقوبات المالية، مشروع أيضاً في مواضع مخصوصة في مذهب مالك وأحمد، وأحد قولي الشافعي، وقد جاءت السنة عن رسول الله –

1 السيرة النبوية لابن كثير ج ٤ ص ٤٠.

2 أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب ما ينهى عن إضاعة المال ج ٢ ص ٨٤٨.

صلى الله عليه وسلم – وعن أصحابه بذلك في مواضع ثم ذكر... ومثل: هدمه مسجد الضرار¹.

وقال الدكتور وهبة الزحيلي: لا يجوز التعزير بأخذ المال في الراجح عند الأئمة لما فيه من تسليط الظلمة على أخذ مال الناس؛ فيأكلونه².

وبالجملة فإن عدم إقامة الرسول صلى الله عليه وسلم بمسجد الضرار جاء بأمر من الله تعالى.

أسر الرسول ابنة حاتم ثم إطلاقها

وقعت ابنة حاتم – وقد تقدم ذكره أول الكتاب في كرم العرب – في سبايا من طيء وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلت بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا يحبسن فيها؛ فمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقامت إليه وكانت امرأة جزلة فقالت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن علي من الله عليك. قال: ومن وافدك؟ قالت عدي بن حاتم. قال: الفار من الله ورسوله؟ قالت: ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركني وكررت ذلك ثلاثة أيام. فقال صلى الله عليه وسلم: قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذيني. فسألت عن الرجل الذي أشار إلي أن أكلمه فقبل علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وأقمت حتى قدم ركب من بلي أو قضاة، قالت وإنما أريد أن آتي أخي بالشام. قالت فجئت رسول

¹ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ج ٢ ص ٦٨٩ وما بعدها، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية ٦٩١ - ٧٥١، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة الطبعة ١، ١٤٢٨ هـ.
² الفقه الإسلامي وأدلته ج ٧ ص ٥٥٦٩.

الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله قد قدم رهط من قومي، لي فيهم ثقة وبلاغ. قالت فكساني رسول الله صلى الله عليه وسلم وحملني، وأعطاني نفقة فخرجت معهم حتى قدمت الشام¹.

مفهوم المن على الأسير

قال تعالى: **فَأَمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ** (محمد: ٤). وفي المن قولان:

أحدهما: أنه العفو والإطلاق كما من رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثمامة بن أثال بعد أسره.

والثاني: أنه العتق بعد الرق، وهذا قول مقاتل².

وقال السرخسي: ذكر عن الحسن وعطاء رحمهما الله تعالى قال: لا يقتل الأسير

ولكن يفادى أو يمين عليه، وكأنهما اعتمدا ظاهر قوله تعالى: **فَأَمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ**

(محمد: ٤) ولسنا نأخذ بقولهما فإن حكم المن والمفاداة بالمال قد انتسخ بقوله

تعالى: **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** (التوبة: ٥)، لأن سورة براءة من آخر

ما نزل، وذكر في بعض النوادر عن محمد رحمه الله تعالى قال: كان ذلك في عبدة

الأوثان من العرب لأنه لا يجوز استرقاقهم؛ فلم يكن في المن والمفاداة إبطال حق

المسلمين عما ثبت حقهم فيه، ولكن هذا ضعيف والصحيح ما بينا أن حكم المن

والمفاداة قد انتسخ ولا يجوز للإمام أن يفعل ذلك إلا إذا عرف للمسلمين فيه منفعة

1 سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥٨٠.

2 الأحكام السلطانية ص ٨٩، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠ هـ) دار الحديث - القاهرة.

عامة كما روي أن ثمامة بن أثال الحنفي سيد أهل اليمامة أسره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم وربطوه بسارية المسجد فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: **ما وراءك يا ثمامة؟** فقال: إن عاقبت عاقبت ذا ذنب وإن مننت مننت على شاكر وإن أردت المال فعندي من المال ما شئت فمن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرط أن يقطع الميرة عن أهل مكة ففعل ذلك حتى قحطوا¹.

عام الوفود

قال ابن إسحاق: لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت ضربت إليه وفود العرب من كل وجه. قال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع وأنها كانت تسمى سنة الوفود².

قدوم رسول ملوك حمير بكتابهم

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب ملوك حمير، مقدمه من تبوك؛ فكتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: **بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله النبي، إلى الحارث بن عبد كلال، وإلى نعيم بن عبد كلال، وإلى النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان. أما بعد:**

1 المبسوط ج ١٠ ص ٢٥.

2 سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥٦٠.

ذلكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإنه قد وقع به رسولكم منقلبنا من أرض الروم فلقينا بالمدينة ؛ فبلغ ما أرسلتم به وخبر ما قبلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين وأن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغنم خمس الله وسهم الرسول وصفيه وما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء وعلى ما سقى الغرب نصف العشر وأن في الإبل الأربعين ابنة لبون وفي ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر وفي كل خمس من الإبل شاة وفي كل عشر من الإبل شاتان وفي كل أربعين من البقر بقرة وفي كل ثلاثين من البقر تبيع جذع أو جذعة وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها ، شاة وأنها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصدقة فمن زاد خيرا فهو خير له ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم وله ذمة الله وذمة رسوله وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها ، وعليه الجزية على كل حال ذكر أو أنثى ، حر أو عبد دينار واف من قيمة المعافر أو عوضه ثياباً ؛ فمن أدى ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن له ذمة الله وذمة رسوله ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله .

الدروس والعبر:

١- اتصال الأمور المالية بالإيمان: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابه

لملوك حمير مجموعة من الأعمال وكان من صلب تلك الأعمال الأمور التالية:

- إيتاء الزكاة والتي هي ركن من أركان الإسلام.
- خمس الغنائم والتي هي مخصصة لبيت المال وفق تقسيم القرآن لها.
- صدقة العقار: أي زكاة الزروع والثمار ما سقت المساء العشر، وما سقي بآلة نصف العشر.
- زكاة الأنعام.
- الخير والتطوع في الصدقات.

٢- بيان الجزية على أهل الكتاب ولا إكراه في الدين: مرّ من قوله صلى الله عليه

وسلم: ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها، وعليه الجزية على

كل حال ذكر أو أنثى... وفيه إشكال من أن المرأة لا تجب عليها الجزية ولا يؤخذ

ذلك منها إلا على وجه الصلح¹. (وإن بذلت المرأة الجزية، أخبرت أنها لا جزية

عليها؛ فإن قالت: فأنا أتبرع بها أو أنا أوّديها، قُبلت منها ولم تكن جزية، بل هبة

تلزم بالقبض)².

¹ شرح مختصر الطحاوي ج ٧ ص ٢٠٨. أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠ هـ) دار البشائر الإسلامية - ودار السراج الطبعة: الأولى ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.
² المغني لابن قدامة ج ٩ ص ٢٧١.

مشروعية دفع القيمة في الجبايات المالية

دل قوله صلى الله عليه وسلم: دينار واف من قيمة المعافر أو عوضه ثياباً، على جواز دفع القيمة المالية فالأصل في الجزية هنا هو الدينار الذهبي أو قيمته وهذه المسألة تتشابه مع مسألة جواز دفع القيمة في الزكاة واختلاف الفقهاء فيها. وقد ورد عن طاووس قال معاذ باليمن: ائتوني بعرض ثياب آخذه منكم مكان الذرة والشعير¹. وفي رواية: ائتوني بخميس أو لبيس² آخذه منكم مكان الصدقة فانه أهون عليكم وخير للمهاجرين بالمدينة³. فالشاهد في قول معاذ رضي الله عنه: (وخير للمهاجرين بالمدينة).

وقد عنون الإمام البخاري في صحيحه فقال: باب العرض في الزكاة وقال طاووس قال معاذ رضي الله عنه لأهل اليمن ائتوني بعرض ثياب خميص أو لبيس في الصدقة مكان الشعير والذرة أهون عليكم وخير لأصحاب النبي صلى الله عليه

1 السنن الكبرى للبيهقي ج ٤ ص ١١٣. وذكره أبو عبيد القاسم بن سلام ص ٥٥. الأموال أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤ هـ) دار الفكر - بيروت.
2 ثوب خميص هو ثوب طوله خمسة أذرع، وقيل سمي بذلك لأن أول من عمله الخميس ملك من ملوك اليمن. وقال عياض: ذكره البخاري بالصاد، وأما أبو عبيدة فذكره بالسين، قال أبو عبيدة: كأن معاذاً عنى الصفيق من الثياب. وقال عياض: قد يكون المراد ثوب خميص أي: خميص، لكن ذكره على إرادة الثوب. وقوله "لبيس أي: ملبوس فعيل بمعنى مفعول.
3 السنن الكبرى للبيهقي ج ٤ ص ١١٣.

وسلم بالمدينة. وقال الحافظ ابن حجر ناقلاً عن ابن رشيد¹ قوله: وافق البخاري في هذه المسألة الحنفية مع كثرة مخالفته لهم لكن قاده إلى ذلك الدليل. وفعل معاذ مع إقرار النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك يدل على جواز ومشروعية القيمة في الزكاة وصدقة الفطر زكاة بلا خلاف².

إسلام فروة بن عمرو الجذامي

قال ابن إسحاق: وبعث فروة بن عمرو النافرة الجذامي ثم النفاثي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولاً بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء وكان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام. فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم فلما أجمعت الروم لصلبه على ماء لهم يقال له عفراء بفلسطين، قال: ثم ضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء يرحمه الله تعالى.

الدروس والعبر:

¹ ابن رشيد: المحدث محب الدين أبو عبد الله المشهور بابن رشيد الفهري السبتي، قال لسان الدين بن الخطيب في تاريخ غرناطة: كان فريد دهره عدالة وجلالة وحفظاً وأدباً عالي الإسناد صحيح فقيها ذاكراً للتفسير ريان من الأدب حافظاً للأخبار والتواريخ مشاركاً في الأصلين عارفاً بالقرآت حسن الخلق كثير التواضع مولده سنة سبع وخمسين وستمائة بسبته ومات بفاس في محرم سنة إحدى وعشرين وسبعمائة. ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي تأليف تلميذه الحافظ أبي المحاسن الحسيني الدمشقي ص ٣٥٥. دار احياء التراث العربي.
² فتح الباري ج ٣ ص ٣١٢.

١ - **معاملة الوفود معاملة الضيف** : يعاملون معاملة الضيف لوصية النبي صلى الله عليه وسلم : **أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد¹ بنحو ما كنت أجيزهم²** . قال الإمام النووي : هذا أمر منه صلى الله عليه وسلم بإجازة الوفود وضيافتهم وإكرامهم تطييباً لنفوسهم ، وترغيباً لغيرهم من المؤلفة قلوبهم ونحوهم وإعانة على سفرهم . وقال القاضي عياض : قال العلماء سواء كان الوفد مسلمين أو كفارا ، لأن الكافر إنما يفد غالباً فيما يتعلق بمصالحنا ومصالحهم³ .

٢ - **قبوله صلى الله عليه وسلم للهدية** : يدل على ذلك حين بعث فروة بن عمرو النافرة الجذامي ثم النفاثي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولاً بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء .

ومن أدلة قبوله للهدية ما حدث يوم بعث إلى الملوك رسلا من أصحابه وكتب معهم إليهم يدعوهم إلى الإسلام . وكان من بين هؤلاء المقوقس فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتئذ رسلا من أصحابه وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام . فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم ، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ، ملك فارس ، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى

1 أجيزوا الوفود: أي أعطوهم، والجائزة العطية، وقيل أصله أن ناسا وفدوا على بعض الملوك وهو قائم على قنطرة فقال: أجيزوهم فصاروا يعطون الرجل ويطلقونه فيجوز على القنطرة متوجها فسميت عطية من يقدم على الكبير جائزة، وتستعمل أيضاً في إعطاء الشاعر على مدحه ونحو ذلك. وقوله بنحو: (ما كنت أجيزهم) أي بقریب منه، وكانت جائزة الواحد على عهدہ صلى الله عليه وسلم وقيّة من فضة وهي أربعون درهما. فتح الباري لابن حجر ج ٨ ص ١٣٥ .

2 البخاري كتاب الجهاد والسير؛ في الصحيح باب جوائز الوفد ج ٣ ص ١١١١ ، ومسلم كتاب الوصية، باب في إخراج اليهود من جزيرة العرب ج ٣ ص ١٢٥٨ .

3 شرح النووي على صحيح مسلم ج ١١ ص ٩٤ .

النجاشي، ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، ملك الإسكندرية، وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعياد ابني الجلندي الأزديين ملكي عمان، وبعث سليط بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي، إلى ثمامة بن أثال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين، وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، ملك تخوم الشام. قال ابن هشام: بعث شجاع بن وهب إلى جبلة بن الأيهم الغساني وبعث المهاجر بن أبي أمية الخزومي إلى الحارث بن عبد كلال الحميري، ملك اليمن.

فكان المقوقس قد قابل البعث بالهدية وهي مارية رضي الله عنها أم إبراهيم.

خروج الأمراء والمال على الصدقات

قال ابن إسحاق: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث أمراءه وعماله على الصدقات إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان فبعث المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة إلى صنعاء؛ فخرج عليه العنسي وهو بها، وبعث زياد بن لبيد، أخا بني بياضة الأنصاري إلى حضرموت وعلى صدقاتها، وبعث عدي بن حاتم على طيء وصدقاتها، وعلى بني أسد، وبعث مالك بن نويرة - قال ابن هشام: اليربوعي - على صدقات بني حنظلة وفرق صدقة بني سعد على رجلين منهم فبعث الزبرقان بن بدر على ناحية منها، وقيس بن عاصم على ناحية وكان قد بعث العلاء بن

الحضرمي على البحرين، وبعث علي بن أبي طالب رضوان الله عليه إلى أهل نجران، ليجمع صدقتهم ويقدم عليه بجزيتهم¹.

وهذا كله يرتبط ببيت مال الزكاة وبيت المال العام في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد مر الحديث عنها، وعن كيفية محاسبة الرسول صلى الله عليه وسلم لعماله كما في حديث ابن اللثبية.

ويدل إرسال النبي صلى الله عليه وسلم للعمال على الإدارة النبوية لبيت المال عموماً وبيت مال الزكاة على الخصوص الذي أوجبه الله تعالى.

وقد مشى على الهدي النبوي الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم، وكان ذلك مخصوص بالأموال الظاهرة أما الأموال الباطنة التي عند أصحابها فهم يقومون بأدائها، وحث النبي صلى الله عليه وسلم على إرضاء عمال الزكاة فقال: **إذا أتاكم المتصدق فليصدر عنكم وهو راض**².

وكان أكثر خراج جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم من البحرين؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أتني النبي صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم بمال من البحرين فقال: **انثروه في المسجد**. وكان أكثر مال أتني به رسول الله صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم إلى الصلاة، ولم يلتفت إليه؛ فلما قضى الصلاة جاء فيجلس إليه؛ فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاءه العباس فقال يا رسول الله: أعطني فإنني فاديت نفسي وفاديت

1 سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٠٠.

2 مسلم في صحيحه باب إرضاء الساعي ما لم يطلب حراماً ج ٢ ص ٧٥٧، سنن الترمذي أبواب الزكاة، باب ما جاء في رضا المتصدق ج ٣ رقم ٦٤٧.

عقياً؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذ؛ فحثا في ثوبه، ثم ذهب يقله فلم يستطع؛ فقال يا رسول الله: أؤمر بعضهم يرفعه إليّ. قال: لا، قال: فارفعه أنت عليّ. قال: لا؛ فنثر منه، ثم ذهب يقله؛ فقال يا رسول الله: أؤمر بعضهم يرفعه عليّ. قال: لا. قال: فارفعه أنت عليّ. قال: لا. فنثر منه، ثم احتمله فألقاه على كاهله ثم انطلق؛ فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله عليه ويتبعه بصره حتى خفي علينا، عجباً من حرصه؛ فما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثمّ منها درهم¹.

حجة الوداع²

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحج لخمس ليال بقين من ذي القعدة، قال ابن هشام: فاستعمل على المدينة أبا دجاجة الساعدي، ويقال سباع بن عرفطة الغفاري.

خطبة الرسول في حجة الوداع³:

قال ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على حجه فأرى الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجهم وخطب الناس خطبته التي بين فيها ما بين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

¹ صحيح البخاري أبواب المساجد باب القِسْمَةِ وَتَغْلِيْقِ الْقُنُوِّ فِي الْمَسْجِدِ ج ١ ص ١٦١.

² سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٠٣.

³ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٠٤.

أيها الناس اسمعوا قولي؛ فإنني لا أدري لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً؛ أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت؛ فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله... أما بعد أيها الناس فإن لكم على نساءكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح؛ فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً؛ فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولي؛ فإنني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت؟ فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اشهد.

الدروس والعبر :

١- المالية شرط في الحج الركن الخامس : قال تعالى : **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ**

لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ

آمِنًا وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ

الْعَالَمِينَ ؛ والاستطاعة المالية في هذا الركن الخامس مطلوبة وقد فصلها الفقهاء

وهي عند الحنفية ملك الزاد والراحلة، بأن يقدر على الزاد ذهاباً وإياباً، وعلى

الراحلة وسيلة الركوب، زائداً ذلك عن حاجة مسكنه وما لا بد منه كالثياب وأثاث

المنزل والخدام ونحو ذلك؛ لأنها مشغولة بالحاجة الأصلية، وزائداً أيضاً عن نفقة

عياله الذين تلزمه نفقاتهم إلى حين عودته. والاستطاعة المالية عند المالكية ووجود

الزاد المبلغ بحسب أحوال الناس وبحسب عوائدهم، ويقوم مقام الزاد الصنعة إذا

كانت لا تزري بصاحبها وتكفي حاجته. وتتحقق الاستطاعة بالقدرة على الوصول

إلى مكة، ولو بثمن شيء يباع على المفلس من ماشية وعقار وكتب علم وآلة صانع

ونحوها، أو حتى ولو صار فقيراً بعد حجه، أو ولو ترك أولاده ومن تلزمه نفقته

لصدقة عليهم من الناس إن لم يخش عليهم هلاكاً أو أذى شديداً، بأن كان الشأن

عدم الصدقة عليهم أو عدم من يحفظهم. وأما عند الشافعي فالقدرة المالية

تتحقق: بوجود الزاد وأوعيته، ومؤنة (كلفة) ذهابه لمكة وإيابه، أي رجوعه منها

إلى بلده، وإن لم يكن له فيها أهل وعشيرة، وعند الحنابلة فالاستطاعة المشتركة: هي القدرة على الزاد والراحلة¹.

٢- حرمة الأموال بعد حرمة الدماء في خطبة الوداع: أكد النبي صلى الله عليه وسلم على حرمة مال المسلم تجاه أخيه المسلم مباشرة بعد حرمة الدماء وذلك لأجل تنبيه الناس إلى خطورة العدوان على أموال المسلمين ويشمل ذلك منع أي عدوان مالي في هذا الشأن وأياً كان.

٣- التأكيد على أداء الأمانة: تكرر أمر الأمانة في السيرة النبوية وذلك بشخصيته صلى الله عليه وسلم وتطبيقه لها حتى مع من ناصبوه العداوة وظهر ذلك أيضاً في الحث عليها مراراً، وهاهي كلمات خطبة الوداع تؤكد على دفع جميع الأمانات إلى أصحابها وأهلها؛ فبذلك يتم التأكيد على الضبط التام لهذا الخلق العظيم. ولا شك أن وجود الأمانة في التعاملات المالية له أثر عظيم في نهضة الاقتصاد وعمران البلاد، وإغناء العباد.

٤- انتهاء ودفن عهد الربا الذي كان في الجاهلية: ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أمر الربا ليُعلم جميع الناس خاصة ممن أسلم متأخراً على الانتهاء الكامل لزمان التعامل الربا؛ فما ينبغي لأحد أن يقوم بالنباش عن هذا التعامل النتن المدفون وإظهاره من جديد سواء على المستوى الخاص أم على المستوى العام.

٥- بيان الحقوق الزوجية ونفقة النساء بالمعروف: على المرأة حقوق طاعة زوجها بالمعروف، وضمن حدود الشرع، إذا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ فيها تتوثق

¹ الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي ج ٣ ص ٢٠٨٣ وما بعدها.

علاقة الزوجين وتتم المودة وعلى الرجل أن يوفِّي زوجته حقوقها المالية: مهرها وذلك حسب مقداره، ونفقتها على قدر استطاعته، دون إسراف وتبذير، أو بخل وتقتير، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل رجل: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت لا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت¹. وطبعاً أن تكون تلك الحقوق المالية حلالاً. وليست هذه النفقة بالمجان عند الله بل في الأجر العظيم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: جاء النبي صلى الله عليه وسلم يعودني وأنا بمكة وهو يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها، قال: يرحم الله ابن عفرأء. قلت: يا رسول الله أوصي بمالي كله؟ قال: لا. قلت فالشطر؟ قال: لا. قلت الثلث؟ قال: فالثلث والثلث كثير إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالية يتكففون الناس في أيديهم وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناس ويضر بك آخرون. ولم يكن له يومئذ إلا ابنة².

٦- طيب النفس في الأخذ من الناس: عن أبي حميد الساعدي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يحل للرجل ان يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفسه وذلك لشدة ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم من مال المسلم على المسلم³.

¹ سنن أبي داود باب في حق المرأة على زوجها ج ١ ص ٦٥١.

² صحيح البخاري كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس ج ٣ ص ١٠٠٦.

³ رواه أحمد في المسند ج ٥ ص ٤٢٥.

مرض ووفاة النبي صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق : ابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكواه الذي قبضه الله فيه إلى ما أراد به من كرامته ورحمته في ليال بقين من صفر أو في أول شهر ربيع الأول .

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن عمر، عن عبيد بن جبير مولى الحكم بن أبي العاص عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن أبي مويهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوف الليل؛ فقال : يا أبا مويهبة إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع؛ فانطلق معي؛ فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم قال : السلام عليكم يا أهل المقابر ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى، ثم أقبل عليّ فقال : يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة . قال فقلت : بأبي أنت وأمي؛ فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة؟ قال لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي والجنة ثم أستغفر لأهل البقيع، ثم أنصرف فبدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه الذي قبضه الله فيه¹ .

1 السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٦٤٣ .

رجع النبي صلى الله عليه وسلم من مقبرة البقيع وبدأ صداع في رأسه؛ فدعا نساءه فاستأذنه أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنه فأذن له . فخرج رسول الله بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن عباس ورجل آخر عاصباً رأسه تخط قدماه حتى دخل بيت عائشة . روى ابن إسحاق : عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من البقيع؛ فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي، وأنا أقول: وارأساه؛ فقال: بل أنا والله يا عائشة وارأساه . قالت: ثم قال: وما ضرك لو مت قبلي؛ فقمتم عليك وكفنتك، وصليت عليك ودفنتك؟ قالت قلت: والله لكأنني بك، لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي؛ فأعرست فيه ببعض نسائك، قالت: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتام به وجعه وهو يدور على نسائه حتى استعز به وهو في بيت ميمونة فدعا نساءه فاستأذنه في أن يمرض في بيتي؛ فأذن له .

الدروس والعبر:

١ - كنوز الدنيا أمام الآخرة: حُير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مفاتيح خزائن الدنيا مع البقاء فيها وبين لقاء الله والجنة فاختر الأخيرة... لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يعلم أمته الحجم الصغير لهذه الدنيا أمام الآخرة كما قال تعالى: **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ** (الرعد: ٢٦). وكيف لا يختار الحبيب صلى الله عليه

وسلم الآخرة والله تعالى قد قال له: **وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى** (الضحى: ٤).

أي وللدار الآخرة، وما أعد الله لك فيها، خير لك من الدار الدنيا وما فيها¹.

٢- **الطبيبة عائشة رضي الله عنها**: تُعد مهنة الطب من أسس الحياة الكريمة، وأسس الاقتصاد السليم، ذلك لأن السعي إلى البقاء على العافية ضروري للحركة والمعاش، ولقد علمت وعملت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالطب في كثير من المناسبات ومنها المرض الأخير لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ويشهد لعائشة في صنعة الطب عروة ابن الزبير وهو ابن أختها؛ فيقول: وقال عروة: ما رأيت أحداً أعلم بفقهِ ولا بطب ولا بشعر من عائشة².

وأما سبب سعة علم عائشة رضي الله عنها بفن الطب فتبينه رواية هشام بن عروة قال كان عروة يقول لعائشة يا أمتا لا أعجب من فقهك أقول زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنة أبي بكر ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام العرب أقول ابنة أبي بكر وكان أعلم الناس أو من أعلم الناس لكن أعجب من علمك بالطب؟ قال: فضربت على منكبه، وقالت: أي عروة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بسقم عند آخر عمره أو في آخر عمره فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنتعت له الأنعات فكانت أعالجها فمن ثم³.

1 تفسير الطبري ج ٢٤ ص ٤٨٧.

2 تهذيب التهذيب ج ١٢ ص ٣٨٦، للإمام الحافظ شيخ الاسلام هب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٥٢٨ هـ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

3 صفة الصفوة ج ٢ ص ٣٣، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ - ١٩٧٩.

تولي أبي بكر الصديق رضي الله عنه

لم يترك المسلمون شأنهم العام دون قيادة جديدة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فحتى قبل تجهيز الحبيب صلى الله عليه وسلم، اجتمع الصحابة لأجل المشورة في خليفة للرسول صلى الله عليه وسلم وتمت بيعة أبي بكر رضي الله عنه.

لما ولي أبو بكر خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد:

أيها الناس قد وليت أمركم ولست بخيركم ولكن نزل القرآن فأدبنا فتأدبنا وسن النبي صلى الله عليه وسلم، السنن فعلمنا، اعملوا أن أكيس الكيس التقوى وأن أحمق الحمق الفجور، وأن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه وأن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق، أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع؛ فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني¹.

الدروس والعبر:

١ - الفهم العميق الدقيق للصحابة الكرام لأمر إدارة المسلمين: رغم أن الحبيب صلى الله عليه وسلم قد توفي؛ فلم يقوموا بشأن تجهيزه لأجل الدفن، وإنما انشغلوا في المشورة والاتفاق على خليفة للمسلمين، ويدل ذلك على خطورة الشأن العام على مصالح المسلمين. ومن مشاهد تلك الخطورة ما رواه ابن هشام: أن أكثر أهل مكة لما توفي صلى الله عليه وسلم هموا بالرجوع عن الإسلام وأرادوا ذلك حتى خافهم عتاب بن أسيد؛ فتواري؛ فقام سهيل بن عمرو: فحمد الله وأثنى عليه ثم

1 الطبقات الكبرى ج ٣ ص ١٨٣ محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري الناشر: دار صادر - بيروت الطبعة: ١ - ١٩٦٨ م.

ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة؛ فمن رابنا ضربنا عنقه فتراجع الناس وكفوا عما هموا به وظهر عتاب بن أسيد . فهذا المقام الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله لعمر بن الخطاب – يوم الحديبية – إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تدمه¹ .

٢- السياسات المالية لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: تُعد السياسات المالية لأبي بكر أصلاً عظيماً في المالية العامة للدولة الإسلامية سواء في عصر التأسيس بمكة المكرمة أو في عصر ما بعد الهجرة التي كان له فيها بصمة واضحة وثابتة بنص كتاب الله تعالى قال الله تعالى: **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا خَرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** **ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هَمَّا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (التوبة: ٢٦) .

لقد ساهم بماله الخاص في الدعوة إلى الله ونصرة وعزة دينه فحين أسلم يوم أسلم كان له أربعون ألف درهم²، أنفقها لوجه الله تعالى .

1 سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٦٥ .

2 مصنف ابن أبي شيبة برقم ٣٦٥٨٥، ج ٧ ص ٣٣٧ .

جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفنه

قال ابن إسحاق: فلما بويع أبو بكر رضي الله عنه أقبل الناس على جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء. ولقد غسلوه وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه والقميص دون أيديهم.

قال ابن إسحاق: فلما فرغ من غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم كفن في ثلاثة أثواب ثوبين صُحَارِيِّين¹ وبرد حبرة أدرج فيها إدراجاً.

فلما فرغ من جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء وضع في سريره في بيته وقد كان المسلمون اختلفوا في دفنه. فقال قائل: ندفنه في مسجده. وقال قائل: بل ندفنه مع أصحابه. فقال أبو بكر رضي الله عنه: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض**؛ فرفع فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي توفي عليه فحفر له تحته ثم دخل الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون عليه أرسالاً، دخل الرجال حتى إذا فرغوا أدخل النساء حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان. ولم يؤم الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد، من وسط ليلة الأربعاء².

الدروس والعبر:

1 صَحَار: قَرْيَةٌ بِالْيَمَنِ نُسِبَ الثَّوْبُ إِلَيْهَا. وَقِيلَ هُوَ مِنَ الصُّحْرَةِ وَهِيَ حُمْرَةٌ خَفِيَّةٌ كَالْغُبْرَةِ. يُقَالُ ثَوْبٌ أَصْحَرُ وَصُحَارِيٌّ عَنِ النَّهْيَةِ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرُ ج ٣ ص ١٨ النَّهْيَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرُ أَبُو السَّعَادَاتِ الْمُبَارَكُ بْنُ مُحَمَّدِ الْجَزْرِيِّ الْمَكْتَبَةُ الْعِلْمِيَّةُ - بَيْرُوتَ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

2 سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٦٣ - ٦٦٤.

١- تغسيل الرسول صلى الله عليه وسلم ودفنه في بيته من الخصائص النبوية: جاء في عون المعبود: وإنما دفن المصطفى في بيت عائشة مخافة اتخاذ قبره مسجداً ذكره القاضي قاله المناوي في فتح القدير وقال الحفاجي ولا يرد عليه أنه صلى الله عليه وسلم دفن في بيته لأنه اتبع فيه سنة الأنبياء عليهم السلام كما ورد ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض فهو مخصوص بهم¹.

٢- كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان وترأ، ويستحب في الكفن عموماً كما يلي:

- بياض الكفن من كتان، أو قطن وهو أولى، وتبخيره بالعود ونحوه إلا المحرم فلا يطيب عند الشافعية والحنابلة، وخالف المالكية والحنفية في ذلك، ويندب أيضاً وضع الحنوط (الطيب) من كافور أو غيره داخل كل لفافة من الكفن.
- الزيادة على الكفن الواحد: فالاثنتان أفضل من الواحد، وإن كان وترأ، تكريماً وستراً للميت، وكون الكفن وترأ: فالثلاثة أفضل من الاثنين ومن الأربعة.
- تحسين الكفن من غير مغالاة، واتفق الكل على عدم المغالاة في الكفن، لقوله صلى الله عليه وسلم: لا تغلوا في الكفن؛ فإنه يسلب سلباً سريعاً².

٣- كفن الميت فرض كفاية على جماعة المسلمين:

1 عون المعبود شرح سنن أبي داود ج ٦ ص ٢٢، محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥.
2 الفقه الإسلامي وأدلته للزحيلي: ج ٢ ص ١٥٠٧.

نفقات التكفين ومؤونة التجهيز من حمل للمقبرة ودفن ونحوه تكون من تركة الميت، أي ماله الخاص الذي لم يتعلق به حق الغير كالمرهون، ويقدم على الدين والوصية؛ فإن لم يكن له مال فعلى من تلزمه نفقته في حال الحياة، وعلى الزوج تكفين زوجته عند الحنفية، والشافعية في الأصح، لأنها في نفقته في الحياة، أما عند المالكية والحنابلة فلا يلزم الزوج كفن امرأته ولا مؤونة تجهيزها، لأن النفقة والكسوة وجبا في حال الزواج للتمكين من الاستمتاع، بدليل سقوطها بالنشوز والبيونة، وقد انقطع ذلك بالموت؛ فأشبهت غير الزوجة (الأجنبية). ولا شك أن المقبول هو الرأي الأول إذ لا يعقل التفريق في هذا بين الموت والحياة، وأما سقوط النفقة بالنشوز ونحوه فلحملها على العودة لبيت الزوجية.

فإن لم يوجد أحد تلزمه نفقة الميت؛ فنفقة تكفينه وتجهيزه من بيت المال إن وجد، وإلا فعلى جماعة المسلمين المستطيعين¹.

براءة الزمة المالية لبيت المال

أعلن الصديق رضي الله عنه بياناً مخصوصاً لاستبراء الزمة المالية المترتبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم الممثل للشخصية المعنوية لبيت المال فاستدعى من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة² ليفي بعهده صلى الله عليه وسلم وينجز عدته إذ هو الخليفة والقاضي عنه والمتبع لسيرته والقائم بإنفاذ وصاياه قال رضي الله عنه:

1 الفقه الإسلامي وأدلته للزحيلي ج ٢ ص ١٤٩٨.
2 العدة الوعد ويجمع على عدات. لسان العرب ج ٣ ص ٤٦١.

من كانت له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عِدَّةٌ فليأتني فجاء إليه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: فأتيته فقلت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان قال لي: لو قد جاءنا مال البحرين¹ لأعطيتك هكذا وهكذا وهكذا. فقال لي - أي الصديق - احثه فحثوت حثية؛ فقال: لي عدها فعددتها فإذا هي خمسمائة فأعطاني ألفاً وخمسمائة².

فهذا الحديث أصل عظيم في وجوب تأدية الإمام ديون من كان قبله من الأئمة والخلفاء.

توريث الحصص النبوية لبيت المال

المقصود بالحصص النبوية تلك التي ذكرها الله في سياق الحديث عن الغنائم والفيء.

قام أبو بكر رضي الله عنه بإدخال سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته إلى بيت مال المسلمين، وخصصه لإنفاقه على الخيل والعدة في سبيل الله. وكانت فاطمة بنت محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنها أرسلت إلى أبي بكر رضي الله عنه:

1 ليست مملكة البحرين على واقعها الحالي وإنما جاء في كتب البلدان: هي بلاد واسعة شرقيها ساحل البحر، وجوفها متصل باليمامة، وشمالها متصل بالبصرة، وجنوبها متصل ببلاد عمان، وقاعدتها حجر، وأهلها عبد القيس ومن بلاد البحرين الأحساء والقطيف وبيشة والزارة والخط الذي تنسب إليه الرماح الخطية وغيرها. عن الروض المعطار محمد بن عبد المنعم الحميري ص ٨٢.

2 أخرجه البخاري باب ما أقطع النبي صلى الله عليه وسلم من البحرين وما وعد من مال البحرين والجزية ولن يقسم الفيء والجزية ج ٣ ص ١١٥٤.

يا خليفة رسول الله أنت ورثت رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أهله؟ قال: بل أهله. قالت: فما بال سهم النبي صلى الله عليه وسلم. قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله عز وجل إذا أطعم نبياً طُعْمَةً ثم قبضه جعله للذي يقوم من بعده فرأيت أن أردّه على المسلمين. قالت: فأنت وما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم¹.

وأما طلب السيدة فاطمة رضي الله عنها فليس بمنكر لأنها لم تعلم ما قاله الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وظنت أنها ترثه كما يرث الأولاد آباءهم فلما أُخبرت آثرت أمر الله والرسول صلى الله عليه وسلم.

روى أبو عبيد عن قيس بن مسلم²، قال: سألت الحسن بن محمد³ عن قوله:

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ... (الأنفال:

٤١). فقال: هذا مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة، ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال قائلون: سهم القرابة لقرابة النبي صلى الله عليه وسلم، وقال قائلون: لقرابة الخليفة، وقال قائلون: سهم النبي صلى الله عليه وسلم للخليفة من بعده، قال: فأجمع رأيهم على أن يجعلوا هذين

1 الحديث أخرجه الإمام أحمد ج ١ ص ٤ بإسناد حسن. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا نُورث ما تركنا صدقة البخاري أبواب الخمس، باب فرض الخمس ج ٣ ص ١١٢٦، مسلم كتاب الجهاد والسير، باب لا نورث ما تركنا صدقة ج ٣ ص ١٣٧٩.

2 قيس بن مسلم الجدلي من متقني الكوفيين وجملة مشايخها مات سنة عشرين ومائة عن مشاهير علماء الأمصار ص ١٠٤: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي دار الكتب العلمية - بيروت، - ١٩٥٩.

3 الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب أخو عبد الله بن محمد كنيته أبو محمد من أفاضل أهل البيت وأميلهم إلى أبي بكر وعمر كان يقول من خلع أبا بكر وعمر فقد خلع السنة مات في زمن عبد الملك بن مروان وكان من أعلم الناس بالاختلاف عن مشاهير علماء الأمصار ص ٦٢.

السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، قال: فكانا على ذلك خلافة أبي بكر وعمر¹.

التركة النبوية

توفي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله وهو يدعو ويقول: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً، وقد يسأل سائل كيف ذلك ولرسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الحصص والأسهم المخصصة له من أموال الفيء؟ قال النووي: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة فكان ينفق على أهله نفقة سنة وما بقى جعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله، أما الكراع فهو الخيل وقوله ينفق على أهله نفقة سنة أي: يعزل لهم نفقة سنة ولكنه كان ينفقه قبل انقضاء السنة في وجوه الخير فلا تتم عليه السنة².

قالت عائشة رضي الله عنها: ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً، وفي حديث عمرو بن الحارث ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سلاحه وبغلته وأرضاً جعلها صدقة، قالت عائشة رضي الله عنها ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي، وقال لي: إني عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت لا يا رب أجوع يوماً وأشبع يوماً فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك وأما اليوم الذي أشبع فيه

1 الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٤٢٦ دار الشروق ط ١، ١٤٠٩.

2 شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٢ ص ٧٠.

فأحمدك وأثني عليك، وفي حديث آخر إن جبريل نزل عليه فقال له: إن الله تعالى يقرئك السلام ويقول لك: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً وتكون معك حيثما كنت؟؛ فأطرق ساعة ثم قال: يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له قد يجمعها من لا عقل له؛ فقال له جبريل: ثبتك الله يا محمد بالقول الثابت، وعن عائشة رضی الله عنها قالت: إن كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً إن هو إلا التمر والماء.

وعن عائشة رضی الله عنها قالت: لم يمتلئ جوف النبي صلى الله عليه وسلم شعباً قط ولم يبث شكوى إلى أحد وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى وإن كان ليظل جائعاً يلتوي طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها، ولقد كنت أبكي له رحمة مما أرى به وأمسح بيدي على بطنه مما به من الجوع وأقول نفسي: لك الفداء، لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك فيقول: يا عائشة مالي وللدنيا؟ إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم؛ فأجدني أستحيي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غداً دونهم، وما من شيء هو أحب إلي من اللحوق بإخواني وأخلائي، قالت فما أقام بعد إلا شهراً حتى توفي صلى الله عليه وسلم¹.

1 الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج ١ ص ١٤١ وما بعدها للعلامة القاضي أبي الفضل عياض اليحصبي ٥٤٤ هـ دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع.

وكان الفراغ من كتابته ليلة العاشر من شهر المحرم لعام ألف وأربعمائة واثنين وأربعين للهجرة النبوية الشريفة وكل يؤخذ ويرد عليه خلا الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم .

تمت بحمد الله تعالى ، هو حسينا ونعم الوكيل

فهرس المراجع

١. إتحاف الأخصّاء بفضائل المسجد الأقصى شمس الدين محمد بن أحمد بن علي بن عبد الخالق، المنهاجي الأسيوطي الهيئة المصرية العامة للكتب ١٩٨٤م.
٢. الأحكام السلطانية أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي دار الحديث - القاهرة.
٣. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي المتوفى: ٥٠٥هـ، دار المعرفة - بيروت.
٤. الاختيار لتعليق المختار ابن مودود، مطبعة الحلبي القاهرة - ١٩٣٥م.
٥. الإدارة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أحمد عجاج كرمي، دار السلام - القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ ص ١٦٩.
٦. أسباب النزول تأليف أبي الحسن علي بن أحمد الواحدني النيسابوري دار الباز للنشر والتوزيع مكة المكرمة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م. - القاهرة.
٧. أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري. دار الكتب العلمية بيروت ط ١ - ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
٨. إسعاف المبطل برجال الموطأ - جلال الدين السيوطي - دار الهجرة بيروت.
٩. الإصابة في تمييز الصحابة أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي دار الجيل - بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٢.
١٠. الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين.
١١. الإقناع للشربيني شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي مكتب البحوث والدراسات - دار الفكر - بيروت.
١٢. الأم - الإمام ابي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
١٣. الأموال أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي دار الفكر. - بيروت.
١٤. الإنصاف للمرداوي.
١٥. الإيرادات العامة للدولة في صدر الإسلام وتطبيقاتها المعاصرة للدكتور منذر القحف (المعهد الإسلامي للبحوث والتنمية).
١٦. البحر الرائق الشيخ زين الدين بن ابراهيم بن محمد المعروف بابن نجيم المصري الحنفي دار الكتب العلمية بيروت. الطبعة الاولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
١٧. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين الكاساني دار الكتاب العربي بيروت ط ٢ - ١٩٨٢.
١٨. التاج والإكليل مختصر محمد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدري الغرناطي، هدار الكتب العلمية الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ ١٩٩٤.

- ١٩ . تاريخ ابن خلدون دار احياء التراث العربي بيروت .
- ٢٠ . تاريخ الأمم والملوك . محمد بن جرير الطبري أبو جعفر دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ .
- ٢١ . تاريخ العلامة عبد الرحمن بن خلدون دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ٢٢ . التاريخ الكبير محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله البخاري الجعفي ، دار الفكر .
- ٢٣ . تاريخ خليفة بن خياط . خليفة بن خياط الليثي العصفري أبو عمر، دار القلم و مؤسسة الرسالة - دمشق و بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٧
- ٢٤ . تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ط ١، ١٤١٩ هـ دار الفكر بيروت .
- ٢٥ . تحفة الأحوذى محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري دار الكتب العلمية، بيروت .
- ٢٦ . تفسير القرآن العظيم لابن كثير دار طيبة الطبعة : الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .
- ٢٧ . التكافل الاجتماعي في الإسلام للدكتور عبد العال أحمد عبد العال، الشركة العربية للنشر والتوزيع ١٤١٨ .
- ٢٨ . التكافل الاجتماعي في الإسلام للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي ١٩٩١ .
- ٢٩ . التكافل والضمان الاجتماعي في الإسلام سعد عبد السلام حبيب، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة، العدد الثاني والثلاثون ١٩٦٣ .
- ٣٠ . تلخيص الحبير - أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني المدينة المنورة، ١٣٨٤ - ١٩٦٤ .
- ٣١ . التلقين في الفقه المالكي لأبي محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي المالكي المتوفى : ٤٢٢ هـ دار الكتب العلمية، ط ١ / ١٤٢٥ هـ .
- ٣٢ . تهذيب التهذيب للإمام الحافظ شيخ الاسلام شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- ٣٣ . جامع البيان في تأويل القرآن محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري مؤسسة الرسالة الطبعة : الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .
- ٣٤ . الجامع لأحكام القرآن أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي دار الكتب المصرية، القاهرة الطبعة : الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- ٣٥ . جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة أحمد زكي صفوت المكتبة العلمية - بيروت .
- ٣٦ . الحرية الاقتصادية في الإسلام وأثرها في التنمية للدكتور سعيد أبو الفتوح البسيوني .
- ٣٧ . الخراج - أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبة الأنصاري المكتبة الأزهرية للتراث .
- ٣٨ . الخصائص الكبرى الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

- ٣٩ . الدرر المباحة في الحظر والإباحة، للعلامة خليل بن عبد القادر الشيباني الشهير بالحنلاوي، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م - المطبعة العلمية بدمشق .
- ٤٠ . ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي تأليف تلميذه الحافظ ابي المحاسن الحسيني الدمشقي دار احياء التراث العربي .
- ٤١ . الرحيق المختوم . صفي الرحمن المباركفوري دار المؤيد - ١٤١٨هـ ١٩٩٨م .
- ٤٢ . رد المختار ابن عابدين، دار الفكر .
- ٤٣ . الروض المعطار محمد بن عبد المنعم الحميري، مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - طبع على مطابع دار السراج الطبعة: ٢ - ١٩٨٠م .
- ٤٤ . زاد المعاد في هدي خير العباد محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، مؤسسة الرسالة بيروت ط١٤، ١٤٠٧ - ١٩٨٦ .
- ٤٥ . زاد المعاد محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية .
- ٤٦ . سنن أبي داود سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي دار الفكر .
- ٤٧ . سنن الترمذي دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ٤٨ . السنن الكبرى أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤ - ١٩٩٤ .
- ٤٩ . سنن النسائي أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي دار المعرفة ببيروت الطبعة: الخامسة ١٤٢٠هـ .
- ٥٠ . السياسة الاقتصادية والنظم المالية في الإسلام للدكتور أحمد الحصري .
- ٥١ . سياسات تحصيل الزكاة، وإلغاء الضرائب المالىتين للدكتور سامر قنطججي .
- ٥٢ . سير أعلام النبلاء، الذهبي، الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م مؤسسة الرسالة بيروت .
- ٥٣ . السيرة النبوية المسمى عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير محمد بن عبد الله بن يحيى ابن سيد الناس مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م بيروت - لبنان .
- ٥٤ . السيرة النبوية لابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري منشورات دار الخلود بيروت .
- ٥٥ . السيرة النبوية للإمام أبي الفداء اسماعيل بن كثير ٧٠١ - ٧٤٧ هـ ١٣٩٦ هـ - ١٩٧١ م دار المعرفة، بيروت .
- ٥٦ . الشرح الكبير على متن المقنع تأليف شمس الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن بن قدامة المقدسي دار الكتاب العربي .
- ٥٧ . الشرح الكبير لأبي البركات أحمد الدردير، دار احياء الكتب العربية .
- ٥٨ . شرح صحيح مسلم دار إحياء التراث العربي بيروت، ط ٢، ١٣٩٢هـ .

- ٥٩ . شرح قانون الأحوال الشخصية السوري للدكتور عبد الرحمن الصابوني منشورات جامعة دمشق ١٤١٨ - ١٩٩٧ م.
- ٦٠ . شرح مختصر الطحاوي أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي دار البشائر الإسلامية - ودار السراج الطبعة: الأولى ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.
- ٦١ . الشفا بتعريف حقوق المصطفى للعلامة القاضي أبي الفضل عياض اليحصبي ٥٤٤ هـ دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع.
- ٦٢ . صحيح ابن خزيمة محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٠ - ١٩٧٠.
- ٦٣ . صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.
- ٦٤ . صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة - بيروت.
- ٦٥ . صفة الصفوة عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرجدار المعرفة - بيروت الطبعة الثانية، ١٣٩٩ - ١٩٧٩.
- ٦٦ . طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي. أبو إسحاق الشيرازي، ١٩٧٠، دار الرائد العربي بيروت - لبنان.
- ٦٧ . الطبقات الكبرى محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري الناشر: دار صادر - بيروت الطبعة: ١ - ١٩٦٨ م.
- ٦٨ . الطرق الحكمية في السياسة الشرعية أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية دار عالم الفوائد - مكة المكرمة الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ.
- ٦٩ . عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥.
- ٧٠ . غريب الحديث، لأبي الفرج عبد الرحمن بن جعفر، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٥.
- ٧١ . فتح الباري أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.
- ٧٢ . الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي دار الفكر، ط ٤.
- ٧٣ . الفقه الاقتصادي لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الدكتور جريبة الحارثي، دار الأندلس الخضراء.
- ٧٤ . فقه السيرة النبوية للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي منشورات جامعة دمشق ط ٧ ١٤١٨ - ١٩٩٨.
- ٧٥ . فقه السيرة النبوية، الدكتور علي الصلابي - ط ٦ - ١٤٣٤ هـ - دار ابن كثير بيروت.

- ٧٦ . فقه الموارد العامة لبيت المال عامر محمد نزار جلعوط، دار أبي الفداء العالمية ٢٠١٠ .
- ٧٧ . فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير للعلامة محمد عبد الرؤوف المناوي، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .
- ٧٨ . الكافي لابن عبد البر يوسف بن عبد الله القرطبي دار لكتب العلمية بيروت، ط ١ - ١٤٠٧ هـ .
- ٧٩ . كفاية الأخيار، أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن بن حريز بن معلى الحسيني الحصري، تقي الدين الشافعي، دار الخير - دمشق الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ .
- ٨٠ . كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٩ .
- ٨١ . لباب التأويل في معاني التنزيل علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم المعروف بالخازن دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ .
- ٨٢ . لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري دار صادر - بيروت .
- ٨٣ . المبسوط السرخسي . محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي، دار المعرفة - بيروت ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م .
- ٨٤ . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمى، دار الفكر بيروت - ط ١٤١٢ .
- ٨٥ . مختار الصحاح . محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي مكتبة لبنان ناشرون - بيروت ١٤١٥ - ١٩٩٥ .
- ٨٦ . المدونة الكبرى مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .
- ٨٧ . المستدرک على الصحيحين، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠ .
- ٨٨ . مسند الإمام أحمد مؤسسة قرطبة - القاهرة .
- ٨٩ . مشاهير علماء الأمصار محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي دار الكتب العلمية - بيروت، - ١٩٥٩ .
- ٩٠ . مصنف ابن أبي شيبة . أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفين مكتبة الرشد - الرياض الطبعة الأولى، ١٤٠٩ .
- ٩١ . مصنف عبد الرزاق . أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ .
- ٩٢ . المعجم الأوسط أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥ .
- ٩٣ . معجم البلدان ياقوت الحموي دار الفكر - بيروت .

- ٩٤ . المعجم الكبير سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني مكتبة العلوم والحكم - الموصل الطبعة الثانية، ١٤٠٤ - ١٩٨٣ .
- ٩٥ . معجم قبائل العرب القديمة والحديثة عمر رضا كحاله، دار العلم للملايين بيروت ١٣٨٨ هـ - ط ٢ .
- ٩٦ . معرفة الصحابة لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني دار الوطن للنشر - الرياض، ط ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .
- ٩٧ . المغني أبو محمد موفق ابن قدامة المقدسي مكتبة القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- ٩٨ . مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي دار الكتب العلمية ط ١، ١٤١٥ هـ .
- ٩٩ . مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ
- ١٠٠ . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام وما بعدها الدكتور جواد علي، ط ٢ - ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ .
- ١٠١ . مواهب الجليل لمحمد بن عبد الرحمن المغربي دار الفكر بيروت، ط ٢، ١٣٩٨ هـ .
- ١٠٢ . موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبهاني، دار إحياء التراث العربي - مصر .
- ١٠٣ . النفقات العامة في الإسلام للدكتور يوسف إبراهيم يوسف .
- ١٠٤ . النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- ١٠٥ . الوسيط في المذهب لحجة الإسلام الغزالي دار النشر / دار السلام .
- ١٠٦ . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، دار صادر، بيروت .

صدر للمؤلف

١. الفقه المالي للملكية الأراضي الأميرية (رسالة دكتوراه).
٢. فقه الموارد العامة لبيت المال (رسالة ماجستير).
٣. السياسات المالية عند الخلفاء الراشدين.
٤. المعيار الشرعي لزكاة الفطر.
٥. أربعون خطبة في الإرشاد والاقتصاد.
٦. الغلول والإغلال في المالية العامة.
٧. تعدد أذان الفجر ووقت ذلك عند الفقهاء.
٨. الرفيق الرقيق.
٩. إيقاظ المدارك إلى بركات المسالك.
١٠. يسألونك عن الأهلة.
١١. فقه الأوبئة " كوفيد ١٩ أنموذجاً.

لقد قدّمت السيرة النبوية الشريفة للحبيب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أروع وأدقّ المشاهد العملية؛ لمن أراد نماذج عملية للتأسي والافتداء.

نماذج كانت حاضرة منذ طفولته صلى الله عليه وسلم مرورًا بشبابه، ووقوفًا عند بعثته ورسالته وتبليغه الكامل عن الحق عزّ وجلّ إلى حين انتقاله إلى الرفيق الأعلى جلّ جلاله.

وبعد اطلّاعي ودراستي لعدد من الدراسات التي اعتنت بالتخصص في السيرة الشريفة رأيت أن أفق عند الناحية الاقتصادية والمالية للسيرة النبوية الشريفة تحليلًا ماليًا واقتصاديًا؛ لما فيها من مشاهد كثيرة في هذا المجال، والتي تستحق مزيدًا من العناية والرعاية والنظر العلمي؛ فكتبت هذا البحث ليكون لبنةً وضاءً في رحاب الاقتصاد الإسلامي ما شاء الله ذلك.

محّب رسول الله صلى الله عليه وسلم

المؤلف..